الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

سجينة الضمير

جامع أبيولا

سجينة الضمير

جامع أبيولا

الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L

بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى

1435 هـ - 2014 م

ISBN: 978-614-02-2250-2

جميع الحقوق محفوظة

توزيع

عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم

هاتف: (+961-1) 785107 - 785108 - 786233

ص.ب: 13-5574 شوران - بيروت 1102-2050 - لبنان

فاكس: (+961-1) 786230 - البريد الإلكتروني: bachar@asp.com.lb

الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة تصويرية أو الكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو بأية وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات، واسترجاعها من دون إذن خطي من الناشر.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الدار العربية للعلوم ناشرون ش. م. ل

التنضيد وفرز الألوان: أبجد غرافيكس، بيروت - هاتف (+9611) 785107

الطباعة: مطابع الدار العربية للعلوم، بيروت - هاتف (+9611) 786233

الإهداء

إلى زوجتي خديجة وأطفالي، مشهود وقدرة وحظ الدين وأمينة اللذين يقفون دوماً بجانبي من أجل تحقيق أهدافي.

أود أن أنتهز هذه الفرصة كي أشكر الذين لعبوا أدواراً مهمة في إخراج هذا الكتاب حيث قدّموا النصائح وبعض المعلومات عن الأمور الاجتماعية والسياسية بشأن موضوع هذا الكتاب، وأخص بذلك الآنسة منيرة ناصر الأومير التي ساعدتني جداً بالتدقيق بشكل ملموس ومثالي من خلال موهبتها في هذا المجال.

1

لقد مرت حوالى ستَ عشرة سنة منذ اختفاء تلك الأشباح ولكن، حدث تطوّر جديد جعل ماري تراها مجدداً! في كل ركن في نيويورك، وفي كل شارع وفي كل ناحية. وما جعل هذا الوضع أكثر سوءاً أنها كانت واثقة تماماً عند قدومها من لبنان إلى الولايات المتحدة برفقة والدتها وجدتها بأنها لن تراها مجدداً بهذا الشكل المباشر والخطير... كيف ستراها بعد أن دفنتها بجانب والدها في صور، جنوب لبنان؟ لقد أسرّت لنفسها عندئذ بأن الأشباح لا تستطيع أن تسافر لمسافات بعيدة... ولكنها في هذا اليوم البارد في السابع والعشرين من يناير عام 1990، عرفت بأنها كانت مخطئة لأن الأشباح كانت حاضرة ما جعلها تكرّر لنفسها... لقد انتهيت! لقد انتهيت!

بدأت قصة ماري وأشباح ضميرها قبل ست عشرة سنة في يوم عيد ميلادها الثامن عشر. كانت تنحدر من عائلة مسيحية مارونية في لبنان وهي الابنة الوحيدة لوالديها، والدها كان طباخاً يدعى أنطوان إلياس وأمها ربة منزل اسمها سارة.

كانت تعيش حياة سعيدة حتى وقعت في غرام إسحاق كشوغي، شاب مسلم، بعمر العشرين سنة، كانت قد قابلته في حفلة عيد ميلادها. وتطورت بعدها علاقتهما سريعاً، وانتهى الأمر بهروبهما سوياً، ما أدى إلى تعرّض والدها لأزمة قلبية توفّي على أثرها، حصل ذلك قبل عدة أيام فقط من خطته ليهاجر معها ووالدتها إلى الولايات المتحدة.

شهدت وفاته تحوّل ماري إلى سجينة لضميرها... حاولت عبثاً أن تقنع نفسها بأنها ليست من قتلته ولكنها كانت تدرك في قرارة نفسها بأنها هي من مهّدت الطريق الذي تسبب في تلك المصيبة.

أثناء جلوسها اليوم على مقعد في المنتزه المركزي في مانهاتن، نيويورك، كان بإمكانها أن ترى نفسها في الماضي مع أشباحها، هكذا بدأت تشق الطريق الذي قادها إلى هذا المصير الحزين... يوم عيد ميلادها الثامن عشر، كان التاريخ السابع من شهر مايو من العام ألف وتسعمائة وأربع وسبعين، قبل أحد عشر شهراً من اندلاع الحرب الأهلية في لبنان.

في ذلك اليوم، كانت التحضيرات مكثّفة لإقامة حفلة صغيرة لها في شقة والدها الذي عاد من عمله مبكراً بأفكار جديدة، نظر إلى ماري بينما أعلن لزوجته قائلاً:

«سوف نقيم حفل ماري في مطعم «فلمنجو» بدلاً من هنا، الجو هناك أفضل وسيحس ضيوفنا بالمزيد من الراحة بدون شك». قامت والدتها فوراً عن كرسيها لتعترض وكان اعتراضها بناء على عدم قدرتهم المادية على إقامة حفلة في مثل ذلك المكان الغالي، ولكنه طمأنها قائلاً:

«إن رئيس الطباخين هناك يعدّ صديقاً حميماً منذ الطفولة ولذا لن يكلفني شيئاً. أليس ذلك أفضل من إقامتها في هذه الشقة الصغيرة؟». لم ينتظر ردها، بل مضى قدماً إلى غرفته... لم يكن في ذهنه عندئذ سوى سؤال واحد، أي البذلات ينبغي أن أرتدي؟

بعد أن اختفى تماماً عن نظرها، بقيت زوجته منزعجة... لماذا لم يتخذ ذلك القرار من قبل؟ ألم يرها منذ فترة وهي تبذل قصارى جهدها من أجل الحفلة؟ في تلك اللحظة، كان زوجها يبدو في نظرها كجنرال في جيش هتلر المستبد. كرّرت لنفسها بأن زوجها قد يدّعي للعالم بأنه طباخ، ولكنه مجرد عسكري بلا ضمير... حاولت أن تبدو هادئة على أمل عدم إفساد مزاج ابنتها... ولكن نظرة واحدة إلى وجه ماري كانت كافية لتخرج الكلمات من فمها... وطارت كلماتها كأنها كانت صواريخ صغيرة.

«هل رأيت ما فعله والدك؟ كيف سأخبر كل الضيوف الآن بأن الحفلة ستقام في مكان آخر قد يكونون على الطريق الآن؟ وماذا سنفعل بكل هذه الكراسي التي تم استئجارها بمبالغ باهظة؟». بعد

أن قالت كل ذلك، اقتحمها الإحساس بالذنب القاتل... ماذا تتوقع أن تكون إجابة هذه المراهقة التي لطالما تستمع إلى الناس دون أن تتفوه بأي كلمة؟... ولكنها كانت مندهشة حين قالت ماري بهدوء:

«لا تقلقي ماما، هنالك حلول... قد نكون في حاجة إلى هذه الكراسي في حال حضور أقاربنا من الجنوب غداً لأنني لا أظن بأن كراسينا ستكون كافية لهذا العدد من الزائرين... وبالنسبة إلى الذين لا نستطيع أن نخبرهم عبر التلفون بأن مكان الحفلة قد تغيّر، يمكننا أن نترك لهم رسالة عند البواب مع عنوان المطعم، فإنه ليس بعيداً عن هنا لحسن حظنا ونستطيع أن نخبرهم بأن تغيير المكان كان مفاجأة تمّ تخطيطها مؤخراً. ما رأيك في ذلك؟» ابتسمت أمها بطريقة جعلتها تبدو أصغر من سنها ثم حضنت ماري قائلة:

«الكلام معك دائماً له فائدة، أنت بنت عظيمة... أنت بنت لطيفة.. فأنت كالجوهرة». حضنتها لفترة ثم قامت فجأة حين تذكرت بأن عليها الاتصال بالضيوف لتخبرهم عن التغييرات، أمسكت بيد ماري وسحبتها إلى العليّة، حيث المكان الوحيد الذي يوجد به هاتف في شقتهم.

حتى بعد مرور الكثير من السنوات، لم تغب كلمات والدتها تلك عن ذهن ماري أبداً «أنت بنت عظيمة... أنت بنت لطيفة... أنت كالجوهرة»... وذلك لأن تلك الكلمات تحوّلت مع الوقت لتصبح الحبل الوحيد الذي يربطها بعهد البراءة والتوازن... عهد السلام وراحة البال والذي كان يميّز زمناً لطيفاً وجميلاً.

ذلك اليوم الذي كان يفترض به أن يكون الأجمل في حياة ماري، سيتحول إلى اليوم الذي ستسلك به طريقاً جديداً حيث لن يكون لديها رفيق سوى الوحدة والمرارة... وسيؤدي هذا الطريق إلى جبهة قتال ولمدة طويلة بينها وبين ضميرها، الذي سينتصر بعدها ثم يتحول إلى مجموعة من الأشباح ستجعل من ماري سجينة... سجينة لضميرها.

2

أخيراً وصل أنطوان وعائلته إلى «فلمنجو» بعد أن أهدروا وقتاً كثيراً في الزحمة في ذلك النهار الحار، وكان المطعم مزدحماً أيضاً لدرجة أصبح من السهل أن يكون لدى أي مراقب انطباع بأنه تم اختياره من قبل كل العائلات في بيروت لمناسبات مختلفة في ذلك اليوم.

بينما كانتا تمشيان بجانب أنطوان، وتتبادلان النظرات كأنهما كانتا تتساءلان، هل هذه حفلتنا أم حفلة الجميع؟ فجأة ظهر أمامهم درج قادهم إلى الأسفل حيث اقتنعتا بسبب ما شاهدتاه بأن أنطوان كان على صواب في رغبته إقامة الحفلة في ذلك المطعم.

كان هناك بساطاً ناعماً للغاية على الأرض لدرجة كان من الصعب على كل من يمشي عليه أن يقاوم الرغبة في أن يلقي نفسه عليه متعمداً.. وبالإضافة إلى ذلك، كانت الجدران مزينة بشكل جميل ببعض اللافتات مثل:

«مرحباً بك يا ماري في سن الثامنة عشر».

كانت أغنيات عبد الحليم حافظ، مطربها المفضل على مدى سنوات كثيرة تصدح، واكتشفتا بأن أنطوان قام بتخطيط كل شيء بشكل ممتاز، وذاك ما أكسبه رضا وسماح زوجته في آن واحد، استدارت سارة إليه مبتسمة ثم قالت بصوت يلفه المرح والحيوية:

«أنت الشخص الوحيد الذي يستطيع أن يتحول من جنرال متعجرف إلى ملاك لطيف في لمح البصر..».

اكتفى أنطوان بابتسامة عريضة قبل أن يقبّلها، وأمسك بيدها وبيد ماري في نفس الوقت ثم قال قبل أن يحضنهما:

«بعد قليل سيكون هذا المكان مكتظاً بالناس... ولكنني أريد أن أخبركما شيئاً مهماً قبل ذلك.. هو أن وجودهم جميعاً مهما كان عددهم كبير لا يساوي في نظري شيئاً مقارنة بوجودكما معي في هذه اللحظة».

وهكذا أنهى كلامه.. لطالما تميزت طبيعة هذا الرجل الضخم بقلّة الكلام وكثرة الأفعال عند تعامله مع الناس بشكل عام، ومع أعضاء عائلته بشكل خاص.

كان زواجهما ناجحاً في كل المقاييس، فهو قد دام لعشرين سنة رغم كونهما صاحبي مزاج مختلف.. وسر ذلك النجاح يكمن في معرفته ضرورة تقديم التنازلات في الوقت المناسب. لم يكن لديهما طفولة متشابهة.. بالرغم من أن زوجته من عائلة مسيحية مارونية مثله، ولكنها ولدت في حالة مادية أفضل منه بكثير، وكان والداها مدرّسين مما جعلهما قادرين على تلبية معظم طلباتها. أما بالنسبة إلى زوجها، فلقد فقد والدته أثناء ولادتها إياه مما أجبره على العيش مع زوجة والده الشريرة ما دفعه إلى أن يعتمد على نفسه قبل سن المراهقة، فبدأ يعمل كموزع للجرائد قبل أن يستقر كعامل تنظيف في إحدى الدكاكين قرب بيتهم، واستمر في هذه الوظيفة حتى قرر والده أن يستسلم لضغوط زوجته ويرسله بعيداً عن صور، إلى مدرسة الفندقية في بيروت.. وهكذا أصبح طباخاً محترفاً اليوم.

ظل أنطوان وسارة وماري في حضنهم العائلي حتى أحست ماري بلمسة على ظهرها، سحبت نفسها من والديها واستدارت لترى أمامها داليا، صديقتها المقربة منذ عدة أعوام.

«كيف حالك داليا؟ أتمنى بأنه لم يكن من الصعب عليك إيجاد هذا المطعم».

اقتربت إليها والدة داليا وقدمت لها حقيبة ثم قالت لوالديها:

«نهاركما سعيد يا سيد وسيدة إلياس. هذه هديتنا لابنتكما العزيزة، نتمنى أن تنال على إعجابها». نظرت إليها ماري بامتنان ثم قالت:

«شكراً جزيلاً».

ألقت نظرة سريعة إلى محتويات الحقيبة ثم ابتسمت قائلة:

«ماما، لقد أحضرت لي فستاناً جميلاً». ثم حدّقت إلى والدة داليا وقالت:

«أتمنى أن يكون المكان قد نال إعجابك يا سيدتي كما نالت هذه الهدية على إعجابي».

ملأت الضحكات المطعم. لم يحصل أحد على فرصة لقول شيء إضافي لأن المكان صار مكتظاً فجأة بالناس وكأن الضيوف خرجوا من مخبأهم.

أول جماعة ظهرت كنّ صديقات ماري من «مدرسة البنات» ثم ظهر أصدقاء والدها ووالدتها في نفس الوقت كأن موعد ظهورهم كان أمراً متفقاً عليه مسبقاً. كان الجو احتفاليًّا جداً بسبب المرح الذي ران كل ركن مما أسعد سارة أكثر وجعلها تقبّل يد زوجها باستمرار... كان ذلك سبيلها لتطلب منه مسامحتها على اعتراضها السابق على إقامة الحفلة في هذا المطعم.

وفجأة ظهر شاب لم يكن قد تلقى دعوة للحضور، يدعى إسحاق كشوغي وعمره عشرين سنة. كان ينزل السلالم مندفعاً بفضوله.. ونظر حوله بين الحاضرين ولكن لدى رؤيته ماري، ركّز نظراته عليها... حدّق إلى شعرها وعينيها وابتسامتها وملابسها... ولما سئم من الوقوف، جلس على كرسي، ولكن عينيه لم تشبع بعد من النظر إليها... ربما لو لم يكن هنالك ذلك الحاجز الضخم بينهما نظراً إلى خلفيته الإسلامية وخلفيتها المسيحية في ظل الخلافات السياسية التي كانت تدور بين بعض الجماعات الإسلامية والمسيحية منذ وقت طويل في لبنان، فشكّل اهتمامه بها خطراً كبيراً عليهما... وربما لو لم يكن لبنان على وشك الدخول بحرب أهلية بسبب هذا التوتر، لما كان إعجابه بالفتاة أمراً غريباً كما سيبدو في ظل هذه الواقعة.

بعد أن ظلّ على كرسيه لمدة فاقت العشر دقائق، نهض كأنه كان مقتنعاً الآن بأن ماري ليست سراباً... بل إنها فعلاً أمامه لحماً ودماً. مشى نحوها بثقة نفس كانت قد نبعت من تطوّر جديد يصب في مصلحته... لقد تركها والديها وبقية الراشدين الذين كانوا متحملقين حولها وذهبوا جميعاً إلى مكان أكثر هدوء لمناقشة أمور أكثر جدية كالسياسة... لم يجد بجانب فريسته سوى فتاتين في عمرها. وهكذا أسرع إليها في لمح البصر ثم همس في أذنها سائلاً:

«هل تعرفيني؟».

رمقته في دهشة، لم تعرفه إطلاقاً ولكن الغريب في الأمر هو أنها لم تعرف أيضاً بأنه كان يمكن لشخص أن يشبهه... فهو جميل ومخيف في نفس الوقت... ولطيف وبارد في نفس الوقت أيضاً، كانت محتارة للغاية من التناقضات في مظهره ولكن لم يمنعها ذلك من الإجابة على سؤاله:

«لا، أنا لا أعرفك».

تنهّد إسحاق بينما ألقى نظرة سريعة حوله، كان يعرف بأنه لم يكن لديه الوقت مما جعله يسألها بسرعة:

«ما اسمك وما اسم مدرستك؟».

لم تكن ماري متأكدة عما إذا سمعت سؤاله جيداً أو لا، لكن إجاباتها كانت صحيحة حينما قالت:

«اسمي ماري إلياس وأدرس في مدرسة البنات في وسط بيروت».

نظر إليها مبتسماَ ثم ابتعد عنها قليلاً وحدّق إلى صديقاتها، طاف بنظره، واقترب إليها مجدداَ قائلاً:

«يجب أن تعرفيني وسوف تعرفيني، لأنني في غضون دقائق قليلة أصبحت مهتماً بشأنك أكثر من كل هؤلاء الناس الذين يعرفونك منذ مدة أطول بكثير».

ثم استدار ومشى نحو السلالم بعد أن سحرها بتلك الكلمات... كانت تنظر إليه في دهشة تامة بينما اقتحمها الفضول القاتل... ما اسمه؟ هل سأراه مجدداً؟ لماذا لم أسأله عن اسمه؟ ماذا كان يقصد بجملته الأخيرة؟ لم تعد تهمها سوى تلك الأسئلة، لقد انتهت الحفلة منذ تلك اللحظة بالنسبة لها.

في أثناء حديث ماري مع زائرها الغريب، كان والداها مشغولين وهما يشكران الطباخ الذي ساعدهما في إقامة حفلة ابنتيهما هناك... هكذا فاتهما ظهور واختفاء إسحاق كشوغي، وحتى داليا والفتاة الأخرى اللتان كانتا موجودتين وقت ذاك الحوار الغامض، لم تعرفا ما دار بينهما بسبب الموسيقى العالية.

استمرت الحفلة لساعتين إضافيتين وكان كل عضو في عائلتها الصغيرة مرهقاً تماماً لدى رجوعهم إلى البيت... لم يسبق لهم أن استضافوا ذلك العدد الهائل من الضيوف. ولكن لسوء حظ ماري، لم تكن تتذكر أي ضيف كان قد جاء بعد إسحاق.. كل ما ذكرتها عنه كانت دقات قلبها التي أخذت تنبض بشكل أسرع منذ مقابلتهما القصيرة والمثيرة.

3

22 مايو 1974

«تعال فوراً... العشاء جاهز... اخرج من غرفتك الآن». كان محمود يصرخ لأخيه الأصغر «إسحاق» حيث كان جالساً بجانب والديه، السيد والسيدة كشوغي كما يفعلون كل مساء عند الساعة السادسة.

كان السيد كشوغي مهندساً ناجحاً نوعاً ما، ضَمَن لعائلته حياة مريحة في الطبقة المتوسطة الجديدة في لبنان... وكان يصرّ على أن يتعشى كافة أعضاء العائلة سوية كل يوم كنوع من التعويض لهم لعدم تمكّنه من تمضية الكثير من الوقت معهم في النهار.. وهذا ما جعله يشعر بنوع من السعادة.. وبالإضافة إلى ذلك، كان يدرك بأن الأمور لم تكن على ما يرام في وطنه بسبب تدفق عدد أكبر من الفلسطينيين إلى لبنان منذ انتصرت إسرائيل في حرب الستة أيام، وهذا ما جعله قلقاً.. ومؤخراً كان على علم بأن لدى إسحاق سراً يفسد مزاجه وهذا جعل الأب غاضباً جداً... وذلك لأنه لم يسبق أن قدّم لكلا ابنيه عذراً أو سبباً ليخفيا شيئاً عنه، فلطالما تميّز تعامله معهما بالانفتاح وحرية التعبير... ولذا لم يكف عن التساؤل لماذا قرر ابنه الأصغر أن يشق طريق الغموض والأسرار؟؟

بعد أن سئم من الاستماع إلى صرخات محمود لإسحاق والتي لم تسفر عن النتيجة المرغوبة، قرر السيد جمال كشوغي أن يصعد الدرج بنفسه كي يأتي به بينما قال لنفسه: «هذا الشاب يعرف أصول هذا البيت ويريد أن يتجاهلها، سوف أعلّمه درساً مهمًّا»... حاول أن يفتح باب غرفة إسحاق ولكنه وجده مغلقاً... أخرج مفتاحه الخاص الذي يفتح به كل أبواب بيتهم الصغير وفتح الباب ثم دخل الغرفة في أقل من خمس ثواني.. وعندما رأى ابنه، أثار منظر الشاب المرتعش إشفاقه ورمقه في حيرة ثم قال:

«ما خطبك في هذه الأيام؟ لماذا تتصرف هكذا؟» لم يجبه إسحاق، بل اكتفى بالنظر إليه بخوف... ساد الصمت في الغرفة لبرهة.. كل ما تمكن كلاً منهما أن يسمعاه كان تنفس إسحاق العالي وصوت الريح الآتي من النافذة المفتوحة، ومرت ثواني حتى نهض المراهق وكأنه شخص تم إنقاذه من السحر للتو، أقفل النافذة ثم ابتسم لوالده قبل أن يقول:

«عندي زكام... هذا كل ما في الأمر. ولكن ذلك لن يمنعني من النزول معك». اقترب من والده الذي كان ما زال في حيرة من أمره، ثم نزل برفقته إلى مائدة الطعام وكأن شيئاً لم يكن.

ولدى رؤيته، ألقت والدته ابتسامةً خفيفة عليه بينما رماه أخوه بنظرات غاضبة لأنه كاد يموت من الجوع، ولكن قواعد بيتهم تمنع الأكل في غياب أي عضو من العائلة... أكلوا جميعاً بسرعة وفي صمت. وبعد الوجبة، تكلم كل فرد عن تفاصيل المستجدات في الأربع وعشرين ساعة الفائتة.

كان دوماً لدى الوالد الكثير ليقوله، أكثر من أي عضو آخر في الأسرة لأنه مهندس، وكانت الهندسة المهنة الأكثر نشاطاً في لبنان في السبعينيات. حيث المباني والعمارات الجميلة والحديثة التي أكسبت بيروت لقبها المشهور «باريس الشرق الأوسط». وبعد ساعة، انتهى العشاء واستطاع إسحاق أن يعود إلى غرفته والتي تحولت إلى مخبئه مؤخراً.

جلس على كرسيه بجانب الراديو... لم تمر أكثر من دقيقة قبل أن يلوح في ذهنه الاسم الذي كان يخاف منه «ماري». لا يعرف لغاية الآن كم من المرات تمنى لو كان لديها اسماً آخر مثل سارة أو داليا.. على الأقل لكان من الممكن عدم معرفته بأنها مسيحية منذ البداية كي يحلم بها براحة على الأقل قبل أن يكتشف دينها لاحقاً.

بعد أن قابلها قبل أسبوعين، أحس بضرورة إقناع نفسه بأنه لم يحس نحوها بالحب من النظرة الأولى.. حاول أن يُفهم نفسه بأن الفضول هو ما منعه من أن ينساها ولكن في قرارة نفسه، كان هناك صوت يخبره بأنه كان يخدع نفسه... ماذا ستكون ردة فعل والده لو فاتحه بالموضوع؟ ومجرد تفكيره في هذا السؤال كانت القشعريرة تنتابه، فالبوح بمثل ذلك الحب إلى أبيه سيكون في نظره بمثابة إصدار أمر إليه بأن يعطيه ألف صفعة، فسيكون من الأسهل أن يدخل إبليس الجنة على أن يقبل والده ارتباطه بفتاة مسيحية.

قد يكون من الصعب أن يثبت أحد بأن المهندس جمال كشوغي يكره المسيحيين ولكنه كان من الصعب أيضاً أن يثبت أحد بأنه لا يكرههم... فإنه كانٍ يبحث دوماً عن سبب ليسخر منهم... ولم تكن صدفة بأنه لم يكن لديه أصدقاء مسيحيون. كان رجلاً محافظاً جداً ولم يعطِ نفسه مجالاً للخروج عن دائرة معارفه الذين تميزوا جميعاً بكونهم مسلمين.

والإنسان الوحيد الذي كاد إسحاق أن يخبره عن ماري كان محمود، أخوه الذي ولد قبله بسنتين. عندما كانا يتكلمان مع بعضهما قبل أسبوعين، طرح إسحاق عليه سؤالاً:

«عندي صديق مسلم وقد وقع في غرام فتاة مسيحية، ما رأيك في ذلك؟» نظر إليه أخوه بجدية كرجل ينظر إلى شخص قد وقع قناعه أثناء حفلة تنكرية، فسأله:

«وهل صديقك هذا هو نفسه الشاب الغريب الذي يلبس نظارة كبيرة؟».

«تقصد علي؟ لا، ليس هو؟ لماذا خطر هو بالذات على بالك؟».

«لأن هيئته تشير إلى أنه لديه الغباوة الكافية ليسمح لمثل هذا الشيء أن يحدث له».

«كلامك ضد الإسلام يا محمود... هل نسيت بأنه كان حلال حتى في عهد الرسول أن يتزوج الرجال المسلمون بالنساء المسيحيات؟». انفجر محمود سخطاً، ورد قائلاً:

«لم أنسَ ولكنه من الصعب قول هذا أو فعله هنا في هذه الأيام». ثم نظر إلى إسحاق وسأله بصوت عالي:

«لماذا تهتم بهذا الموضوع السخيف أصلاً؟» قرر إسحاق أن يتجنب المزيد من الحديث حول الأمر وأخذ يتكلم عن شيء آخر لينهي النقاش.

لم ينم إسحاق حتى الساعة الثالثة صباحاً عندما وصل إلى قراره النهائي بخصوص ماري... سوف يذهب إلى مدرستها في اليوم التالي ليقابلها... وسوف يبذل كافة جهوده كي تبقى علاقتهما في نطاق الصداقة... ولو أحس بأنه يحبها فعلاً ويريد الزواج منها، لن يتجاهل الفكرة لأن ذلك ليس ممنوعاً كما قال لأخيه... هكذا استجمع الشجاعة بأن يتقرب إلى أكبر مصدر للفضول بالنسبة إليه... إلى من لم تجعله يدخل بتحدي مع عائلته وكل من كان مهماً في حياته فقط، ولكنها ستجعله يدخل بتحدي مع نفسه أيضاً قبل أن تغيّر مسار حياته إلى الأبد.

4

23 مايو 1974

انقلبت حياة ماري رأساً على عقب بسبب انتظارها الطويل الذي دام لأكثر من أسبوعين لزيارة الشاب الذي تعرفت عليه أثناء عيد ميلادها... على الرغم من أنها لم تعرف حتى اسمه أو أي تفاصيل أخرى عنه عندئذ. سبقت أن سمعت مراراً وتكراراً المثل الذي يقول بأن الغياب يجعل القلوب أكثر ولعاً... ولكن في نظرها الآن، كان ينبغي أن يقال بدلاً من ذلك بأن الغياب يجعل القلوب أكثر مرارة... ولذلك تمنت لأول مرة بعد حفلة عيد ميلادها لو أنهم أقاموا الحفلة في شقتهم كما أرادت أمها من الأول... على الأقل، لم تكن لتقابل ذلك الشاب الغائب والمختفي.

بعد أن بذلت كافة جهودها للنهوض في ذلك الصباح البارد، تمكنت أخيراً من انتشال جسمها من فراشها... فإنه كان شبه مستحيل أن تمشي بسبب كسلها الغريب في ذلك اليوم... ولأول مرة، اجتاحتها رغبة قوية في أن تدّعي بأنها مريضة كي تتجنب الذهاب إلى المدرسة. ولكنها قاومت فعل ذلك وأخذت حماماً ساخناً وارتدت زي المدرسة وقالت بنبرة شاحبة:

«أنا جاهزة بابا».

نظر والدها إلى مظهرها الحزين بذهول، ثم سألها بفضول:

«متى ستتخلصين من هذا المزاج السيئ؟».

نظرت إليه بارتباك ثم ردت عليه بإجابتها المألوفة الذي اعتاد عليها:

«أنا لا أعرف عما تتحدث يا بابا».

ثم ضحكت كي تهرب من الموضوع. تنهد والدها قبل أن يقول:

«كما تريدين، ولكن يكون في علمك بأن أي وقت تقررين البوح فيه عما تخفينه، سوف تجدينا، أنا ووالدتك في انتظارك».

لدى قوله ذلك، توقف عن الضغط عليها لأنه عرف بأن ذلك لن يسفر عن أي نتيجة.

فخلال الأسبوعين الماضيين، حدثت بينهما أحداث مماثلة... وكانت دوماً تعطيه نفس الإجابة «أنا لا أعرف عما تتحدث». في المرة الأولى، وجدها شاردة الذهن لوحدها في المطبخ... وبعد بضعة أيام، كادت أن تسقط على الدرج لأنها لم تكن تنظر أمامها... والمرة الأخيرة، تركت الماء يجري بعد أن خرجت من الحمام... فهذا ليس سلوك ابنته التي لطالما تميّزت بشخصية متزنة.

وبعد خروجهما من البيت، كان المشي إلى سيارة أنطوان سريعاً للغاية لأنهما كانا يهربان من البرد في ذلك الصباح، وحالما دخلا السيارة، شغل والدها الراديو في أمل أن تؤثر الموسيقى على مزاجها بشكل إيجابي... وأسفرت فكرته عن النتيجة المرغوبة لأنها أصبحت أكثر ابتهاجاً وكان ذلك واضحاً من ملامح وجهها.

ولدى وصولهما إلى «مدرسة البنات»، قامت بتقبيله كأنها كانت تعتذر لمزاجها المثير للغرابة. خرجت من السيارة ثم أسرعت إلى المكتبة حيث أكملت فروضها المنزلية التي كان يفترض أن تفعلها ليلة البارحة... وبعد ذلك، ذهبت إلى فصلها الأول... ولكن لسوء حظها، لقد جاءت مدرستها، السيدة أسمهان قبلها وحين رأتها، ظهرت ابتسامة شريرة على وجهها:

«أهلاً وسهلاً ماري... يعتبر حضورك لفتة كريمة منك».

«أنا متأسفة للغاية، كنت في الحمام».

أذنت لها المعلمة بالدخول قبل أن تقول بسخرية:

«إنه من المدهش بأن الحمام والمكتبة يشبهان بعضهما في هذه الأيام أو هل لديك توأم كانت تفعل فروضها المنزلية في المكتبة قبل قليل؟».

أحست ماري كأن أحدهم قد صبّ عليها ماء بارد ولما سمعت ضحكات البنات الأخريات، شعرت كأنها كانت واقفة تحت عاصفة شديدة... أرادت أن تهرب من الفصل ولكنها استجمعت القوة من حيث لا تدري وبقيت في صمت بينما ركزت عينيها على كتبها حتى طرحت عليها المدرسة سؤالاً:

«ماذا يميّز لبنان عن بقية الدول العربية؟» لم تعرف الإجابة ثم قالت المدرسة:

«لبنان الدولة العربية الوحيدة التي ليس لديها صحراء. عليك أن تركزي أكثر، وهذا آخر إنذار لك يا ماري».

كانت هذه جملتها الأخيرة قبل أن تنهي الفصل لتبدأ فصلاً آخر.

بعد أن انصرفت السيدة أسمهان، لم تعد ماري تحت الأضواء لأنها لم تفعل ما يلفت الانتباه إليها... فجلست بهدوء تام وهكذا مرت الساعات حتى أنهت كل فصولها.

خرجت من فصلها الأخير كالعادة لتبحث عن داليا كي تذهبا إلى المنزل مع بعضهما ولكن قبل أن تجدها، ظهر الحارس فجأة وأخبرها بأنه كان هناك شاب في انتظارها قرب البوابة... لم تصدّق أذنيها.

في البداية، تمشت نحو ضيفها ببطء بسبب الدهشة... ثم أسرعت خطاها نحوه بسبب البهجة حتى وصلت إلى شاب يرتدي جينز أزرق وقميص أحمر، لم تستطع أن ترى سوى ظهره لأنه كان ينظر إلى خارج المدرسة... ولكن عندما اقتربت إليه جداً، استدار كأنه كان واثقاً بأنها كانت موجودة وراءه... كان نفس الشاب الذي قابلته في عيد ميلادها وكان ينظر إليها بنفس بريق عينيه التي نظر بهما في ذلك اليوم. وبعد أن مرت عدة ثواني، قال:

«أهلاً وسهلاً ماري».

5

31 أكتوبر 1974

«لو أن أحدهم أخبرني بأنك أنت بالذات كنت تفكر في الهروب من لبنان، لكنت انفجرت ضاحكة في وجهه فكيف لي أن أصدق شيئاً مماثلاً؟ ولكنك الآن واقف أمامي وتخبرني نفس الشيء بنفسك... يظهر بأنك تريد أن تصدمني بنفسك بدلاً من أن تريحني في هذه السن المتقدمة».

قد يكون صوتها خافت في أذن أنطوان حين قالت والدة زوجته تلك الكلمات، ولكن كانت محتويات تعليقها مؤلمة جداً.

وفي ذلك اليوم، كان أنطوان يحاول أن يقنعها بأنهم جميعاً كانوا في حاجة ماسة إلى الفرار من لبنان، فلم يعد يحس بالأمان هنا إطلاقاً. وعلى مرّ الأيام، أصبحت الأحداث في نظره توحي بأن التوتر بين الجماعات الإسلامية والمسيحية التي لطالما كان لبنان يتميز بها منذ نهاية الاستعمار الفرنسي في عام 1943 كان على وشك التحول إلى حالة فوضى واضطراب كامل... حتى أثناء الحرب الباردة، كان هنالك انقسام، بحيث كان المسيحيون يؤيدون الغرب، بينما كان المسلمون يؤيدون الاتحاد السوفياتي. ولقد سمع أنطوان في نفس اليوم الذي قرّر به أن يفاتح حماته عن خطته للهرب بأن هنالك جهوداً مكثفة من جهة المسلمين والمسيحيين للحصول على كمية ضخمة من الأسلحة... لم يكن واثقاً تماماً عما إذا سيؤدي ذلك التطور إلى حرب أهلية، ولكنه لم يكن لديه الصبر والشجاعة الكافيتين لينتظر مع عائلته رؤية ما سيحدث.

«أنتِ كما تعلمين لست مجرد امرأة تعد في مقام والدتي في نظري فحسب... فإنك فعلاً الوالدة التي حرمت منها وأعني كلامي هذا حرفياً. ولو تركنا البلاد اليوم، فهذا يعني أننا سنعيش للعودة إليه في يوم آخر. هنالك أناس مصرّون على استغلال الفروق الدينية من أجل تصفية حسابات سياسية وشخصية... وكمسيحي لا أشعر بالأمان على الإطلاق... لو كنت غير متزوج، لما فكرت في الفرار ولكن بصفتي أباً وزوجاً وابناً لك، يجب أن تكون قراراتي منطقية وفي مصلحتنا كلنا».

قررت زوجته أن تتدخل في الموضوع عندئذ، فهي أحست بأن خلافهما كان على وشك الوصول إلى طريق مسدود:

«ماما، لا تتسرعي بإدانة موقف أنطوان، فهو محق في رأيه... حاولي أن تتمالكي أعصابك وأنا متأكدة بأنك ستوافقينه الرأي»، تنهدت ثم أضافت:

«لا ينبغي أن يعتبر الذين يهربون منافقين... فإنهم ليسوا سوى أناس رأوا الحقيقة المكتوبة على كافة الجدران واتخذوا الخطوة الصحيحة قبل أن يفوت الأوان... حتى إن بعض المسلمين الذين يتمتعون بقدر أكبر من السلطة، أخذوا يهربون أيضاً. هل تعرفين ذلك؟» رمقتها والدتها بحدة ثم قالت:

«كنت حمقاء إذاً عندما سمحت لكما أن تقنعاني بالمجيء إلى هنا وسأكون أغبى لو لم أرجع إلى صور غداً... وصور هو ذلك المكان الذي يتميز بأجمل الأشجار وأجمل الناس... وهناك لن تري سوى من سيتكلم معك بصراحة لأن أهل صور يبغضون النفاق».

اقتربت سارة من والدتها أكثر حين لاحظت بأن الجدل كان على وشك دخول مرحلة الشتائم والإهانات ثم أشارت إلى زوجها بعينيها أن يتركهما لوحدهما.... هكذا انصرف أنطوان بقلب مثقل بالحزن.

لم تكن ماري في غرفة الجلوس أثناء ذلك الخلاف الساخن ولكنها سمعت كل شيء من

المطبخ... وعلى الرغم من معرفتها أهمية موضوع النقاش، لم تبالِ إطلاقاً لأن لديها خطة أجمل في نظرها، فقد اتفقت مع إسحاق على الهرب إلى سوريا قريباً بحيث سيسهل لهما أن يبدآ حياة جديدة تخلو من وجود أقارب لكليهما هناك... نسيت الخلاف الذي بين والدها وجدتها وأخذت تتذكر اليوم الأول الذي زارها فيه إسحاق في المدرسة.

أول يوم قضاه معها طمأنها من ناحيته تماماً، فهو لم يخبرها اسمه فحسب، بل أضاف بأن اسمه هو نفس الاسم الموجود في التوراة العائد إلى النبي إسحاق، ابن إبراهيم. أعجبها كلامه لأنه نقل إليها رسالة بأنه مسلم يبحث عن منطقة مشتركة بينهما. لم يقضيا أكثر من ثلاث دقائق في مدرستها لأنها اقترحت أن يتمشيا خارج المدرسة لتجنّب عيون وكلمات الناس.

أخبرها عن كافة تفاصيل حياته... نقاطه المتوسطة في الجامعة... بنت خالته التي كانت حبيبته الأولى... حبه لوالديه وأخيه محمود وكل أقاربه... وأخيراً تحدّث عن حبه لدينه الإسلام... ولدى وصوله إلى هذه النقطة المهمة، ظهر بعض التوتر بينهما.

«يا ماري، نحن مسلمون نرى بأن المسيح كان نبياً بينما ترونه كابن لله». حدقت إليه في حيرة ثم سألته:

«ولماذا يصعب التصديق بأنه ابن الله؟» تنهد إسحاق ثم قال:

«فلننظر إلى الأمور من ناحية أخرى: لو تبيّن في يوم القيامة بأن المسيح كان ابن الله، هل تظنين بأنني سوف أدخل الجحيم لأنني كنت أؤمن بأنه نبي؟».

نظرت إليه لمدة طويلة ثم بدأت تضحك قبل أن تقول:

«أنت تريد أن تكسب مهما حدث». ضحك ثم أوقفها عن المشي، ونظر إليها وقال:

«أريد أن أكسب الجنة في الآخرة... أما بالنسبة إلى الدنيا، أريد أن أكسب مكاني في قلبك لأن ذلك سيجعل الأرض جنة لي».

وفجأة أحسا بأن الدنيا توقفت عن الدوران لبرهة ثم بدأت في دورانها ثانياً ولكن هذه المرة، كان دورانها الجديد من أجلهما فقط وكان الدوران أيضاً في الاتجاه المعاكس... هكذا أصبح من السهل لهما التخلص من الأفكار والمبادئ التي تربيا عليها منذ طفولتهما. ومنذ تلك اللحظة، لم تعد الصداقة خياراً لهما بسبب ظهور الحب. ثم جاءت والدتها وقطعت حبل أفكارها.

«ماري، أنت هنا في هذا المطبخ المظلم وتبتسمين في الظلام!، ما الذي يسعدك في هذا المساء؟».

منذ عدة أيام، كان والداها سعيدين للغاية معها لسببين - لقد تحسّن أداؤها في المدرسة بعد أن قررت القيام بفروضها المنزلية نتيجة انتقاد مدرستها ذلك اليوم... وثانياً كان مزاجها رائعاً دوماً بعد أن قابلت إسحاق للمرة الثانية.

«لم أنتبه بأنه كان مظلماً هنا. ولماذا أنا سعيدة الآن؟ كيف لي أن لا أكون سعيدة وأنا أرى نقاطي ترتفع يومياً في المدرسة؟» ثم نهضت وحضنت والدتها... فرحت سارة بما فعلته ابنتها، وكيف لها أن تعرف بأن ماري فعلت ذلك فقط لأنها اكتشفت كم ستشتاق إليها بعد هروبها؟ قررا بأنه يتوجب عليهما أن يهربا لأنهما كانا واثقين من عدم حصولهما على الدعم من أهليهما لو أعلنا حبهما. كانت خطتهما إذاً أن يهربا لمدة قصيرة، مثل سنة أو سنتين وأن يرجعا حين يصبحان أكثر استقلالاً مادياً مع طفل على الأقل كي يتمكنا من مواجهة أي اعتراض... وقررا أن يبوحا بكل هذه التفاصيل في رسالتين لأهليهما قبل الفرار.

«أنتِ وأسرارك يا ماري. على فكرة كنت دائماً أخبر جدتك كل شيء عندما كنت في عمرك». أحست ماري بالذنب ثم قالت:

«أنا متأكدة بأنك تمزحين.. هل تظنين حقاً بأن لدي أسرار لا تعرفين عنها».

«أليس كذلك؟ انظري إلى عينيّ وقولي لي بأنه ليس كذلك». لم تفعل ماري كما قالت، بل اكتفت بالقول:

«يظهر بأن ذلك الخلاف الساخن قد قلب رأسك رأساً على عقب». ضحكت والدتها وقالت:

«في هذه النقطة معك حق. ما رأيك في الأمر؟ هل تظنين بأنه علينا البقاء هنا ونتمنى أن تستقر الأوضاع في البلد، أو هل ينبغي أن نسافر إلى الولايات المتحدة كما يريد والدك؟».

كانت ماري محتارة جداً من سؤالها لسببين... أولاً عندما كانت تخطط لهروبها مع إسحاق، لم يخطر على بالها وجود احتمال أن ترجع إلى لبنان لتكتشف بأن والديها قد اختفيا، وثانياً لم تشأ أن تشجعهما أن يبقيا في لبنان كي تجدهما هنا لدى رجوعها لأنها عرفت بأنها لن تسامح نفسها لو فعلت ذلك وحدث لهما مكروه.

«جائز يستحسن أن تسمحا للتطورات أن تساعدكما في اتخاذ القرار الصحيح».

«من يستمع إليك سيظن فوراً بأنك لست عضواً في هذه العائلة لأن كلامك يبدو وكأن قرارنا لا يعنيك».

ولكن قبل أن ترد ابنتها، اضطرت سارة للخروج من المطبخ عند سماع نداء زوجها. بقيت ماري على كرسيها مع إحساسها بالذنب... لم ترَ سوى الحب والحنان من والديها، ولكنها الآن تفكر في أن تخونهما من أجل رجل لم تكن تعرفه منذ سنة على الأقل. قررت عندئذ عدم المضي قدماً بخطتها مع إسحاق، وعادت إلى غرفتها حزينة.

اليوم التالي

«ما الذي تقصدينه عندما قلت بأنك غيّرت رأيك؟ هل تظنين حقاً بأن هذه الخطة سهلة لي أيضاً؟ إنه من المؤسف للغاية بأنني في نظرك لست سوى أحمق لا يبالي بشعور والديه، بدلاً من أن أكون في نظرك الرجل الذي يريد التضحية بكل شيء من أجل قصة الحب الأعظم في التاريخ المعاصر».

كان إسحاق غاضباً جداً في منتزه الحمراء حيث كانا يتقابلان كل يوم بعد المدرسة، مرت دقائق قبل أن ترد ماري ولما فعلت ذلك، كان من الصعب أن يفهم ما كانت تقوله لأن صوتها كان يرتجف جداً.

«على الأقل والداك سيكون لديهما أخوك محمود بعد مغادرتك، أليس محمود اسمه؟ سوف يعتني بهما في هذه الأوقات غير المستقرة... ولكن بالنسبة إلى والديّ، هل تعرف من سيتبقّى لهما؟ ستبقى جدتي التي تشتكي أكثر من أي شيء آخر في العالم».

بعد أن هزته دموعها، أمسك إسحاق بيدها وحثّها على الجلوس بجانبه.

«ماري، هل تعرفين أهمية غد، الثاني من نوفمبر؟».

كانت غاضبة لدرجة لم تعد ترغب في النظر إلى عينيه.

قالت بأنها لا تعرف، سكت قليلاً ثم أخذ نفساً طويلاً وقال:

«غداً عيد ميلادي، سيكون عمري واحد وعشرين. هل تعرفين معنى ذلك؟ سوف أصبح رجلاً غداً، وبناءً على ذلك سأحتاج إلى امرأة، وليس إلى فتاة».

لم يقل أكثر من ذلك، أرادها أن تستوعب ما قاله بالكامل لأنه كان يدرك بأن أي ضغط إضافي عليها لن يسفر عن أي نتيجة إيجابية. ولأول مرة منذ وقوعهما في الغرام، اقتحمهما توتّر شديد بدل الجو الجميل المألوف الذي لطالما كان يسود مقابلاتهما. وفجأة وبلا مقدمات هبت ريح عاصفة أشارت إلى المطر الذي كان على وشك الهطول... كان الناس حولهما يمشون بسرعة والذين كانت لديهم سيارات كانوا يركضون إليها، ولكنهما ظلا جالسين دون أن يتحركا... تجاهل كلاً منهما تقلّب الجو كأنّ الأمر لا يخصهما. ولحسن حظهما، لم يدم المطر لأكثر من عشر دقائق. ثم وجدت ماري صوتها وقالت لحبيبها:

«هذا قراري، تعرفه الآن... مستقبل حبنا في يدك مثلما سيكون قلبي في يدك إلى الأبد... إلى اللقاء إسحاق».

نهضت وبدأت تمشي باتجاه بيتها ولكنه لم يوقفها كما توقعت، فالغضب منعه من ذلك. كان يراوده شعور بأنه كان ضحية خداعها لأنها أخبرته يوماً بأنها تحبه أكثر من أي شيء في العالم، ولكنه لم يعد يصدقها... لم تعد سوى كاذبة في عينيه.

كان المشي إلى البيت حزيناً للغاية... أحست ماري بأنها كانت مثقلة من الحزن وشعرت كأنها كانت تجر قدميها جراً. وصلت إلى البيت أخيراً عند الساعة الخامسة، كان كلا والديها خارج المنزل عندئذ. علمت لاحقاً بأنهما خرجا في الصباح الباكر ولكن لدى عودتهما، اكتشفا بأن جدتها قد عادت إلى صور كما هددت، وأسرعا إلى المحطة على أمل العثور عليها قبل مغادرة القطار.. ولكنهم تأخروا فلقد غادر القطار وسافرت.

صعدت ماري إلى غرفتها وأخذت تبكي بدون توقف فيما تساءلت عما إذا كانت ستستطيع أن تعيش بدون إسحاق. عرفت في أعماقها بأنه سيكون مستحيلاً ولكنها ظلت مصممة على عدم ترك والديها.

بعد ثلاثة أسابيع

غابت جدة ماري لثلاثة أسابيع فقط، ولكن هذه المدة كانت تكفي لجعل البيت أشبه بمدينة أشباح، فلقد أصبح خالياً تماماً من حيويته المألوفة. حتى إنه قبل ذهابها، عرف كل فرد منهم قيمتها وقيمة المثل الذي يقول «إن الإنسان لا يعرف ما لديه إلا بعد أن يضيع منه».

ومن ضمن مواهب تلك المرأة العجوز مقدرتها الاستثنائية على سرد أجمل القصص، كان يشعر كل من يستمع إليها عندئذ بأنه عاد طفلاً صغيراً وسعيداً مهما كبرت سنه. وبالإضافة إلى ذلك، كانت ماهرة جداً في الطبخ لدرجة أن ابنتها كانت تمازحها أحياناً فتقول لها بأنها قد تفوقت على زوجها في مهنته.

كانت سارة قد سافرت عدة مرات إلى صور، وحاولت أن تقنع والدتها بالعودة مرات ومرات إلى بيروت ولكنها رفضت، ففقدت سارة الأمل عندما رأت تشبث أمها برأيها وقررت أن تتركها في المكان الذي اختارته لتقضي بقية عمرها.

أما بالنسبة إلى ماري، فقد تميزت أيامها بالبؤس والملل بينما بدا كل نهار أطول مما تمنّت. وفي أثناء ذلك، كانت تواصل ذهابها إلى منتزه الحمراء حيث كانت تقابل إسحاق من قبل على أمل أن تراه مجدداً بالصدفة. ولكن عندما لم يحدث ذلك، كانت تغضب ثم تقسم لنفسها بأنها لن ترجع هناك ثانياً... ولكن قبل مرور يومين، كانت تغيّر رأيها ثم تعود أدراجها إلى نفس المنتزه... ذهبت إلى هنالك لسبع مرات خلال الأسبوعين الماضيين فقط وكانت دوماً تجلس وحدها لنصف الساعة قبل أن تعود إلى البيت بقلب محطّم.

وبعد مرور خمسة عشر يوماً على تلك الحالة، قررت أن تضع كرامتها جانباً وأن تزوره في جامعة بيروت حيث كان يدرس الحقوق. أخبرت مدرّستها في ذلك اليوم بأنها كانت مريضة بعض الشيء ونالت الإذن للذهاب إلى العيادة في المدرسة ثم استغلت ذلك كعذر للخروج من المدرسة باكراً.

حصلت على سيارة أجرة بسهولة وهكذا شقت طريقها إلى جامعة فارس أحلامها... وصلت هناك في غضون نصف الساعة. ولدى اقترابها من مبنى الجامعة، لم تدخل مباشرة. بل دخلت حمام إحدى المطاعم قرب الجامعة وخلعت زي مدرستها ثم لبست ملابس جميلة حفظتها في حقيبتها، وفجأة بدت كأنها طالبة في الجامعة. ثم دخلت عبر البوابة الرئيسية للجامعة وسألت أول طالبة قابلتها عن مكان قسم الحقوق، توجهت إلى هنالك بسرعة مع قلب يخفق بشدة.

أخذت تبحث عن إسحاق، أرادت أن تجده بنفسها لأنها خافت من أن تنتشر إشاعات عنهما لو سألت أحداً عنه. استمرت في بحثها ولما مرّ أكثر من نصف ساعة، اجتاحها اليأس لدرجة رغبت في مغادرة المبنى، ولكنها رأته فجأة أخيراً وهو يخرج من إحدى الفصول برفقة امرأة تكبره جداً في السن... عرفت ماري بأن المرأة كانت على الأرجح مدرّسته، ولكن لم يبعد ذلك غيرتها.

كان إسحاق يمشي بوجه خالٍ من التعابير ولكنه عندما رأى ماري أمامه فجأة تغيرت تعابير وجهه إلى وجه رجل كان لديه مليون سؤال. تابعت المرأة حديثها معه ولم تلاحظ بأنه لم يعد يهتم بما كانت تقوله، فهي كانت تتحدث دون أن تنظر إليه. ولدى وصولها إلى حيث كانت ماري واقفة، قال إسحاق بصوت عالٍ:

«أشكرك جداً لاهتمامك بشأني يا سيدة لينا وأعدك أن أركّز أكثر على دراستي».

توقفت المرأة حين اكتشفت بأنه توقف عن المشي وقالت في حيرة:

«لماذا توقفت؟ لم نصل بعد إلى السلالم أو هل ستبقى هنا». أشار إسحاق إلى ماري ثم قال:

«نعم، سوف أبقى هنا لأنه يبدو أن لدي ضيفة».

تنبهت السيدة لينا عندئذ إلى وجود ماري وابتسمت لها ثم قالت:

«حسناً... لا تنسى ما قلته لك». حيّت ماري ثم لوّحت إليهما قبل أن تغادر المبنى.

بعد أن اختفت المدرسة، شعر إسحاق براحة ثم صافح يد ماري ودعاها أن ترافقه إلى مطعم الجامعة فوافقت. وفي طريقهما إلى هناك، قال:

«فجأة أحس بالجوع... تعرفين لماذا؟ لأن الأكل فقد طعمه في غيابك، والآن عاد طعمه بسبب حضورك».

«لو تتوقع مني أن أصدّق ذلك، أخبرني أيضاً بأنك كنت ميتاً، وظهوري اليوم هو الذي بعثك حيًّا مجدداً».

ما زالت غاضبة لأنه لم يأت للبحث عنها طوال هذه المدة، فقد كان غيظها واضحاً.

لدى دخولها المطعم، أخذ إسحاق طبق الأرز والكباب بينما أخذت ماري زجاجة ماء من الثلاجة وقادها إلى كرسيين قريبين من جهاز التكييف، ولقد اختار مكاناً قريباً من جهاز التكييف لأن معظم الناس يتجنب الجلوس هناك بسبب البرد، وأراد أن يكون لديهما أكبر قدر من الخصوصية. بعد أن جلست، رمقته بذهول قائلة:

«طعام بلا شراب؟ لماذا؟».

أخذ يحدق إلى زجاجة الماء التي أخذتها من الثلاجة ثم قال:

«كنت أظن بأنني أمتلك هذه الزجاجة أيضاً لأنها ملكك أو هل أنا غلطان؟».

«لست سوى مجموعة تناقضات. قبل أكثر من أسبوعين، سمحت لي أن أرجع بقلب محطم إلى بيتي لوحدي، وطوال أسبوعين لم تحاول معرفة عما إذا وصلت إلى البيت بسلام أم لا، والآن تتجرأ أن تتكلم بشكل رومانسي وكأن شيئاً لم يكن... أنت فعلاً مجموعة تناقضات».

أنا أعرف بأنني أخطأت في حقك لأن كل ما قلتيه في ذلك اليوم كان صحيحاً ومقنعاً... ولكن هنا يكمن عيبي الكبير، في عدم تمكني من التفكير بشكل سليم عندما أشعر بالغضب. كان يفترض بك أن تعبّري عن تحفّظاتك هذه منذ البداية، عندما بدأنا نرسم خطتنا للهروب، ولكنك انتظرت حتى أكملنا كافة التخطيط ثم سحبت البساط من تحت أرجلنا».

«هل مصيرنا هو أن نظل نتجادل في الموضوع نفسه؟ هل هذا ما تريده لنا؟ أنا سئمت من هذا الأمر».

«إنه من السهل أن تطرحي عليّ كل هذه الأسئلة في آن واحد لأنك لا تريدين أن تكبري لتري كل ما يحدث حولك... فالناس يهربون من هذه البلاد كما يقفز الناس من سفينة تغرق».

«حسناً.. وما الذي تريدني أن أفعله؟ تريدني أن أشكو وأتذمر بلا توقف عن وضع البلاد كما يفعل والداي؟» أخذ إسحاق نفساً طويلاً ثم قال:

«أريدك أن تعيدي التفكير بخطتنا للهروب»، ثم نظر إليها مبتسماً وسألها بوضوح:

«هل لدى والديك خطة للسفر؟» مرت أكثر من دقيقة قبل أن تجيب:

«والدي حالياً يقوم بالإجراءات اللازمة كي نسافر جميعاً في الثالث من ديسمبر هذا العام إلى الولايات المتحدة... إنه يريدنا أن نذهب إلى ولاية تسمى بأطلنطا حيث يسكن صديقه المفضل».

بدا إسحاق غاضباً نتيجة ما قالته ودفع طعامه بعيداً ثم نظر إليها قائلاً:

«أشكرك جداً على هذه المعلومات المهمة».

ثم نهض من كرسيه وخرج من المطعم بينما كانت تنظر إليه في دهشة.

بعد أن استوعبت ما حدث للتو، قامت أيضاً وذهبت لتبحث عنه فيما كانت تتمنى عدم رؤية أحد معارفها في الطريق. واستطاعت أن تصل إليه قبل خروجه من البوابة الرئيسية وصرخت قائلة:

«لماذا ترى حبي لك شيئاً مبرَّرا لتجعلني أركض وراءك دائماً؟ هل تظن بأن لديك الحق أن تجعلني دوماً أبدو رخيصة هكذا؟ لو كان عندك أخت، هل ستكون راضياً إزاء رجل يعاملها هكذا؟».

لقد هزته جملتها الأخيرة جداً فاستدار إليها بنظرة معتذرة ثم قال:

«لا يوجد شيء أو إنسان يستطيع أن يجعلك رخيصة لأن قيمتك لم تسبق أن وجدت في هذا القرن.. وهذا ما يجعلني أنانياً هكذا... في هذا العالم لا أريد سواك وندمي هو أن حبك لي ليس في مستوى حبي لك».

لدى قوله تلك الكلمات، أخذ يدها وقادها إلى ركن منعزل. كانت تبكي ثم سألته:

«كيف يمكنني أن أثبت لك بأنني فعلاً أحبك كما تحبني أو ربما أكثر؟ أخبرني وأنا تحت أمرك».

«حسناً... اكتبي رسالة الوداع إلى والديك كي نهرب إلى سوريا في نهاية هذا الشهر، في 30 نوفمبر 1974 بالتحديد، يمكنك أن تكتبي في الرسالة اسم عائلتي بالكامل وعنوان بيتنا كي يعرف أهلك بأن الرجل الذي هربت معه ينحدر من عائلة محترمة، وسوف يطمئنون عليك قليلاً حينها».

سكتت ماري لبرهة ثم نظرت إليه وقالت بصوت إنسانة مسحورة:

«سوف أفعل ما تريده... سوف نذهب كما تريد في اليوم الذي اخترته ولكن لي شرط، يجب عليك أنت أن تكتب الرسالة لأنني لن أستطيع أن أقوم بذلك».

أخذت تبكي أكثر فيما ضغط على يدها المرتعشة وقال:

«سوف أكتب الرسالة، ولكن عليك أن تعديني ألا تغيّري رأيك مجدداً». نظرت إلى عينيه وقالت:

«أنا أعدك لأنني سأموت بدونك ولا أريد أن يحدث ذلك لأنني أريد أن أعيش بسببك».

بعد أن قالت تلك الكلمات، أخذا يتمشيان بعيداً عن الجامعة التي كان على وشك تركها من أجل الحب. لم يتفوه كلاً منهما بشيء لمدة طويلة... لقد استنفد طاقتهما كل ما قالاه في ذلك اليوم.

8

بعد ثلاثة أيام

كان يوم الاثنين، وكان على أنطوان أن يقل ماري وسارة إلى مكتب الجوازات مجدداً بعد أن أرغمتهم الزحمة هناك قبل يومين أن يعودوا إلى منزلهم دون أن يحققوا هدفهم في الحصول على جوازات السفر كي يتمكنوا من السفر قبل مرور عشرة أيام كما أراد أنطوان.

وصلوا في البداية إلى مدرسة ماري للحصول على إذن للانصراف، فمدرستها لطالما تميزت بمجموعة من الأنظمة الصارمة. ولدى وصولهم هناك، انتظرت ماري في السيارة بمفردها فيما أسرع والديها إلى داخل المبنى ثم خرجا في غضون عشرة دقائق مبتسمين لأن الأمر كان أسهل من المتوقع. شغّل أنطوان المحرك ثم نظر إلى ابنته وقال:

«أتمنى بأننا لم نتأخر عليك».

كانت ماري مترددة لتردّ عليه لأنها شعرت بالحماس والذنب في آن واحد... فالحماس نبع من كونها على وشك الحصول للمرة الأولى في حياتها على جواز سفر، بينما كان السبب وراء إحساسها بالذنب هو أنها كانت على وشك استعمال نفس جواز السفر الذي سيعطيها إياه والدها لتخون ثقته. أخيراً أجابته قائلة:

«لا طبعاً، لم تتأخرا على الإطلاق، ذهبتما ورجعتما في لمح البصر». ابتسمت سارة لزوجها قائلة:

«لا تصدق كلامها لأنها تبالغ، فإنها دائماً شاردة الذهن ولا أعتقد بأنها تنتمي إلى هذه العائلة. أحياناً يراودني الشعور بأنها مجرد كائنة ظهرت لنا من البحر».

انفجر الجميع في الضحك ثم توقفت سارة عن الضحك فجأة وكأنها تذكرت شيئاً مهماً ثم قالت:

«أنطوان، لا أتخيل أبداً بأنني أقدر على ترك والدتي هنا لوحدها، ربما كان علينا أن نقوم بمجهود أكبر لإقناعها أن تأتي معنا». تنهّد زوجها ثم قال:

«لا تلومي نفسك يا حبيبتي، لقد فعلنا كل ما كان بوسعنا».

ألقت عليه نظرة مليئة بالغضب وخيبة الأمل ثم صرخت:

«هل كنت ستقول هذه الكلمات عديمة الإحساس لو أنها كانت أمك وليست والدتي؟».

أخذ نفساً طويلاً وظل صامتاً لبرهة كأنه كان يفكر جيداً عما ينبغي أن يقوله دون أن يجرح شعورها أكثر.

«هنالك شيء كنت قد أخفيته عنك ولكن نظراً إلى غضبك هذا، لقد حان الوقت أن أصارحك به... بعد أن رحلت والدتك، سافرت إليها مرتين لتقنعيها أن ترجع معك، أليس كذلك؟ أما بالنسبة إلي، سافرت إليها ستة مرات وكل مرة كنت مع زميل جديد كي نقنعها معاً، وكان ذلك تطبيقاً للمثل الذي يقول بأن «رأسين أفضل من رأسٍ واحد».. ولكنني بالرغم من هذه الجهود، فشلت يا حبيبتي وأنا متأسف لذلك».

ساد الصمت الكامل فيما غرقتا سارة وماري في إحساس مثقل بالذنب.. تمنت سارة أن تختفي داخل السحاب بينما تمنت ماري أن تنشق الأرض وتبتلعها... ولكن لحسن حظ سارة، كان الصمت أحياناً قادراً على التحدث، سمع أنطوان من خلال صمتها بأنها كانت متأسفة جداً، وكان ذلك كافياً له

كي يسامحها.

وصلوا إلى مكتب الجوازات واضطروا إلى الانتظار لساعة قبل أن يدخلوا عبر البوابة بسبب نفس الزحمة التي شهدها المكان في يوم السبت المنصرم. ولكن عند المرور عبر الحراس، التقى أنطوان بموظف كبير هناك والذي كان من الزبائن المواظبين في المطعم الذي يعمل فيه. ابتسم الرجل ثم قال:

«عندنا ضيف مهم هذا اليوم، الطباخ الشاطر بنفسه». وحدّق إلى ماري وسارة قبل أن يسأل أنطوان:

«هل هاتان من أفراد عائلتك؟» أجابه أنطوان بفخر:

«نعم، هذه زوجتي سارة وابنتي، ماري. أقترح أن تنتهز هذه الفرصة لتشكرهما لأنه لولا وجودهما في حياتي، لما تمكنت من طبخ الطعام الذي جعلك من كبار المواظبين والمدمنين لمطعمنا». ضحك الجميع ثم نظر إلى زوجته وقال:

«يشرفني أن أقدم إليك السيد يوسف حريري، أحد زبائننا المهمين أو ربما بتعبير أدق هو زبوننا الأهم». ابتسم يوسف ثم قال وهو ينظر إلى سارة وماري:

«أنا واثق من أن زوجتك وابنتك ليستا سوى ساحرتين». كان أنطوان مرتبكاً من تعليقه واستفسر معناه:

«لم أفهم ما تقصده يا سيدي؟» ابتسم يوسف وقال:

«إنها معجزة بأن طعامك المميز لم يجعلهما سمينتين».

انفجر الجميع ضاحكين ثم قاطعهم يوسف يسأل:

«هل أنتم هنا لتجديد جوازات سفركم؟».

شعر أنطوان بالقليل من الخجل لأنه لم يسبق أن امتلك جواز سفر.

«لا، فنحن لم نسافر من قبل ونود الحصول على جوازات سفر لأول مرة».

«حسناً... تعالوا إلى مكتبي وسوف أساعدكم».

وفي الطريق، أشار يوسف إلى مجموعة ضخمة من الناس وقال:

«هؤلاء الناس يكافحون من أجل الحصول على جوازات سفر لأنهم لا يعرفون الموظفين الكبار هنا، ولكنك تعرفني... لماذا أردت إذاً أن تكافح مثلهم؟» نظر أنطوان إليه ثم قال:

«بصراحة لا أعلم بأنك تعمل هنا». كان يوسف مستغرباً وسأله:

«وأين كنت تظن بأنني أعمل؟».

«لو قلت لك الحق، هل ستغضب؟».

«لا طبعاً، قل ما في جعبتك».

«لم أفكر أبداً بمكان عملك، فهذا لا يهمني، كل ما كان يهمني هو لطفك وأمنيتي أن يكون العدد الأكبر من زبائننا مثلك».

أسعد كلامه يوسف للغاية، وظل يبتسم فيما قادهم بسرعة إلى مكتبه. ثم أخذ من أنطوان كل مستنداتهم وذهب بها إلى مكان ما. ورجع بعد عشرين دقيقة وقال لهم:

«لقد قطعنا شوطاً كبيراً، سوف تكون جوازاتكم جاهزة قبل مرور أربعة وعشرين ساعة، ما رأيكم؟».

كان من الصعب لأنطوان أن يصدق ما كان يقوله يوسف، فهو لا يستطيع أن يحصي عدد الحكايات المخيفة التي سمعها عن تجارب الناس السلبية في مكتب الجوازات.

«هذا أجمل خبر سمعته منذ وقت طويل... أشكرك من قلبي وسوف أشكرك أيضاً من خلال شيء آخر... أرجو منك أن تختار أي مساء في هذا الأسبوع بعد الساعة السابعة وسوف آتي إلى منزلك وأطبخ لك ولعائلتك». تفاجأ يوسف من عرضه وقال:

«ليس هناك داع لذلك يا أخي، والناس لبعضها». ولكن أنطوان صمّم أكثر قائلاً:

«على فكرة، لا توجد كلمة «لا» في قائمة خياراتك يا سيدي». ضحك يوسف ثم استسلم.

«من سيقف أمام قطار متحرك؟ سيكون يوم الخميس عند الساعة الثامنة في المساء مناسب لي، هل لديك مانع؟».

أومأ أنطوان برأسه موافقاً بحماس، ثم استطرد يوسف قائلاً:

«وبالمناسبة، أنت من ستختار ما ستطبخه لأنني أحب المفاجآت... ولكن أريد أن أحذرك بأن بيتنا عادي جداً وليس بجمال مطعمكم الخمس نجوم».

ثم ذهب إلى طاولته وكتب عنوانه على ورقة وسلّمها لأنطوان الذي شكره مجدداً، وشكرته سارة أيضاً وماري قبل أن يغادروا المبنى.

وفي طريقهم إلى البيت، ساد الهدوء في السيارة... فقد أثّر يوسف على مزاجهم بشكل جميل مما أبعدهم عن توترهم السابق. لم يقل أحدهم شيئاً طوال الطريق فكل واحد منهم كان يفكر في أمر مختلف.. كان أنطوان يحلم بحياتهم الجديدة في الولايات المتحدة بينما كانت سارة تفكر بوالدتها وحياتها في صور... أما بالنسبة إلى ماري، فكانت تتساءل عما إذا سيكون بإمكانها أن تفهم اللهجة السورية بسهولة عندما تفتح صفحة جديدة مع إسحاق في سوريا خلال بضعة أيام.

9

يظن الكثير من الناس بأنه لا يوجد إنسان أسعد من الملك ولكنهم لو عرفوا إسحاق منذ ذلك اليوم الذي زارته فيه ماري في الجامعة حتى يوم هروبهما من عائلتيهما، لقالوا بأنه لا يوجد من هو أسعد من إسحاق فعلاً.

ومنذ اليوم الذي وافقت فيه ماري أن تهرب معه، صار إنساناً مختلفاً للغاية. فهو لم يعد يدع للغضب مكاناً على الإطلاق في حياته، أصبح دائماً مبتسماً وكأن ابتسامته صارت ملتصقة بوجهه بشكل دائم.

والإنسان الوحيد الذي أحس بأن لديه سراً كان أخوه محمود.. وعند رجوع إسحاق إلى البيت يوماً، لم يعرف بأن محمود كان يراقبه بينما كان يتسلل إلى غرفته عند الساعة الثامنة، لم يكن يريد لأحد أن يراه لأنه لم يتعشَ مع بقية أعضاء العائلة في ذلك المساء... ولذا شعر بقشعريرة لما سمع صوت أخيه قبل أن يدخل غرفته.

«لماذا تمشي إلى غرفتك بحماس شديد كأنك حجر دائر؟ ماذا حدث لك أو ماذا سيحدث لك قريباً؟».

أخذ إسحاق نفساً طويلاً قبل أن يقترب إليه ثم همس كي لا يسمعه والدهما الصارم:

«ماذا سيحدث في حياتي المملة؟ إن كنت تراني متحمساً، فذلك يرجع على الأرجح إلى أنني ليس لديّ شيء أفضل لأكونه». حدّق محمود إليه بحدة ثم قال:

«إنه أسهل لامرأة أن تصبح حاملاً دون الاقتراب من رجل، على أن تقنع أحداً عندما تكذب».

ضحك ثم ذهب إلى غرفته بينما ظل إسحاق متسمراً وهو ينظر إليه مندهشاً.

دخل إسحاق غرفته وهو يتساءل لماذا كان من السهل للجميع أن يكشفونه عندما يكذب، ثم توجّه نحو المرآة وحاول أن يخبر نفسه كذبة ولكنه تعجّب عندما اكتشف بأنه أيضاً استطاع أن يرى كذبه فانفجر ضاحكاً عندئذ.

وبعد أن جلس لأكثر من خمس دقائق، قرر أن يكتب الرسالة التي وعد ماري بأنه سيكتبها وكانت:

عزيزتي ماما، عزيزي بابا،

لم يسبق لي أن واجهت صعوبة ما مثل الصعوبة التي واجهتها في كتابة هذه الرسالة الآن، وذلك لأنني أحس بالحزن الشديد. أولاً أود أن أعبّر عن تقديري لحبكما العميق، وأتمنى أن لا تجعلكما الخطوة التي سأتخذها اليوم تشكا في حبي لكما... وما أفعله ليس سوى تنفيذ أمر حدّده قدري أن أفعله.

عند قراءتكما هذه الرسالة، سأكون قد تجاوزت الحدود ودخلت سوريا برفقة إسحاق، الرجل الذي تذكرني كل صفاته بشخصيتك الجميلة يا بابا، والرجل الذي قررت أن أقضي معه بقية عمري.

والفرق الوحيد الذي بينكما، هو أنه مسلم بينما أنت مسيحي. ولهذا السبب أخفيت أمره عنكما لأنني أعرف بأنه سيصعب عليكما القبول بمثل هذا الارتباط... واسمه بالكامل هو إسحاق كشوغي وهو ابن المهندس جمال كشوغي الذي يعيش في شارع زايد في بيروت. هو ينحدر من عائلة محترمة وقابلته في «فلمنجو» في حفلة عيد ميلادي الأخير. أحب أن أقول لكما إنني أقدم إليكما هذه التفاصيل كي تعرفا بأنني لا أفعل سوى الشيء الصحيح.

وذهابنا إلى سوريا أمر مؤقت، فنحن نريد أن نستقر مادياً بشكل مستقل ولا نؤمن بأن هذه البلاد ستقدّم لنا الفرصة للقيام بذلك في ظل هذه الظروف السياسية المتوترة، وبالأخص بسبب الخلافات التي تهدد علاقات المسلمين والمسيحين.

أنا لا أعلم لِمَ يراودني خوف بأنني لن أراكما عند رجوعي من سوريا، فأنا أعتقد بأنكما ستكونان قد هاجرتما إلى الولايات المتحدة في غيابي، وأتمنى أن تفعلا ذلك لأن الحياة الأفضل التي تستحقانها هناك في الولايات المتحدة بلا شك. وفي حال غبتما، سأزور جدتي في صور وأعطيها كل معلوماتي الخاصة مثل عنواني الجديد على أمل أن أتوصل إليكما بأسرع وقت ممكن.

من فضلكما لا تغضبا من تصرفاتي، أحبكما جداً وأرجو منكما تفهم موقفي.

المخلصةماري إلياس

بعد أن كتب تلك الرسالة، أحس إسحاق بالذنب لأول مرة.. تذكّر ضغطه على ماري المسكينة. وما جعله يفكّر هكذا كان الجزء في الرسالة حيث كتب فيه بأن كل صفاته ذكرت ماري بشخصية والدها... أيضاً لم يستطع إسحاق أن يتوقف عن التساؤل بينه وبين نفسه عما إذا كانت ردة فعله ستكون متفهمة لو كان لديه بنت وكانت على وشك الفرار مع حبيبها.

مرة ثانية وقف أمام المرآة وسأل نفسه بصوت عالٍ:

«كيف يمكنك أن تكون شريراً لهذه الدرجة؟ تريد الهروب معها لأنك تظن بأن حبك لها يؤهلك لفعل ذلك... هل تفكيرك معقول ومنطقي؟».

لقد جعله هذا الإحساس المثقل بالذنب يشعر بالكثير من المرارة، فالذي رآه في المرآة كان شكل رجل حزين جداً.

ثم أسرع نحو كرسيه وسلّه إلى جانب النافذة. كان الخارج مظلماً تماماً وأخذ ينظر إلى القمر كي يحاول أن يرى شيئاً على الأقل من خلال نوره.. وفجأة أخذ يكرر لنفسه بأن حياته ستكون مظلمة مثل هذه الليلة المظلمة لو سمح لماري أن تفلت من يده، وتابع قول ذلك لنفسه حتى تبخّر إحساسه بالذنب وأصبح متحمساً ثانية لفكرة الهروب معها. وابتسم قبل أن يقول لنفسه:

«هذا ما سأفعله، سوف أهرب معها... فليذهب الجميع إلى الجحيم، وحتى ضميري، فليذهب أيضاً إلى الجحيم».

وبعد ذلك هرع بسرعة نحو دفتره مجدداً وأخذ منه ورقة أخرى وكتب عليها الرسالة التالية إلى والديه:

عزيزي بابا وعزيزتي ماما،

لقد ذهبت بعيداً ولكن ذلك لن يمنعني من الرجوع قريباً... فلو كانت لدي خيارات أخرى متاحة لما رحلت... ولكنه وللأسف لا يوجد حتى نصف خيار ينصفني وينصفكما ولذلك اضطررت إلى أن أتخذ هذا القرار المؤلم.

بابا، هل تتذكر اليوم الذي طلبت مني أن أقابل أحد أصدقائك في مطعم «فلمنجو» بخصوص إمكانية مساعدتي في الحصول على عمل مؤقت؟ لما كنت أنتظر قدومه إلى المطعم، قررت أن أتجوّل حول المكان وهكذا قابلت ماري، فتاة مسيحية لديها من العمر ما هو أقل من عمري بسنتين ووقعت في غرامها منذ النظرة الأولى.

نظراً إلى مواقفك بالذات ضد المسيحيين، أعرف بأنك لن تسمح لي أن أتزوج بهذه الفتاة. ولأنني أحبها وهي تحبني أيضاً قررنا بعد الكثير من التفكير أن ننتقل إلى سوريا حيث سنبدأ حياة جديدة...

أنا أعرف بأن البداية ستكون صعبة ولكن من خلال الحب، سوف ننتصر.

أتمنى منكما مسامحتي كما أتمنى أن تكونا سعيدين من أجلي. أعتذر مجدداً لكل هذا. إلى اللقاء.

المخلصإسحاق كشوغي

بعد أن أنهى الرسالة، وضعها في صندوق داخل دولاب ملابسه كي لا يراها أحد ثم خلع ثيابه الثقيلة وارتدى شيئاً خفيفاً قبل أن يستلقي على السرير. كان لا يزال يرى القمر من سريره وتساءل عما إذا كانت ماري تنظر إلى القمر أيضاً في تلك اللحظة. ثم قال لنفسه كم كان سيكون جميلاً لو استطاع أن يرسل إليها رسالة حب عبر القمر في تلك الليلة الداكنة.

أخذ إسحاق يفكر بأمور كثيرة حتى أصبحت المسافة بينه وبين النوم كالمسافة بين الشرق والغرب، وأصبح أيضاً من الصعب أن ينام لأن القلق حول مستقبله في بلاد أجنبية أخذ يشغل باله باستمرار. وبعد برهة من الزمن ليست بقصيرة، بدأ عقله يتعب تدريجياً وبدا القمر أبعد عن عينيه المتعبتين... وأخيراً استسلم للنوم على أمل أن يرى ماري في أحلامه.

10

27 نوفمبر 1974

أحياناً تمتلك المكالمات الهاتفية القدرة المميزة على تغيير مسيرة حياة بعض الأشخاص، وذلك لأنها تستطيع أن تخرج الأمل من اليأس كما تخرج اليأس من الأمل. وهكذا أصبحت مكالمة هاتفية نقطة تحول في حياة أنطوان يوماً بعد زيارته مع عائلته لمكتب الجوازات، عاد إلى مكتب الجوازات ليرى إذا ما كانت الجوازات جاهزة كما وعده يوسف. لم يجد يوسف في المكتب ولكنه التقى بسكرتيرته التي أخبرته بأن الجوازات لم تكن جاهزة بعد. وعندما ظهرت علامات خيبة الأمل على وجهه، طلبت منه أن يكتب رقمه الهاتفي كي تتصل به عندما يحدث أي تطور يخص جوازاتهم. فعل كما اقترحت ثم خرج من مكتبها بإحساس شخص معلّق بين السماء والأرض.

وبعد أن أوصل ابنته إلى المدرسة في اليوم التالي، أراد أن يرجع إلى شقته لينتظر تلك المكالمة التي أصبحت أهميتها بالنسبة له كرسالة مباشرة من السماء ولكن كان عليه الذهاب إلى عمله في المطعم، وعلى رأي المثل «للضرورة أحكام» وقياساً على ذلك فإن وظيفته من أحكامها.

ذهب إلى المكتب كالعادة ولكن ظلت روحه متعلقة بالهاتف في البيت. ولذلك كان يخترع عذراً جديداً كل عشر دقائق ليتصل بزوجته على أمل أن تنهي حالته المتوترة بخبر سعيد ينهي كل هذا الكابوس وتخبره بأنها تلقت مكالمة وأن الجوازات جاهزة... وبسبب هذا التوتر الشديد، كان الوقت يزحف أمامه. وحتى زوجته التي لطالما كانت تتميز بطبيعة وسلوك هادئ أخذت تقلق ولكنها بالرغم من ذلك، تحاول جاهدة إخفاء قلقها كي لا تزيد من قلقه.. فعند اتصاله الأول أراد أن يعرف لو كانت تحتاج شيئاً كي يجلبه في طريقه إلى البيت... ولدى اتصاله الثاني أراد أن يعرف لو ترك كتاباً بجانب سريره... وفي اتصاله الثالث أراد أن يعرف لو سمعت أي خبر من والدتها... ولكن مع مكالماته المتتالية، بدا كأنه استنفذ كل الأعذار وكأنه يقول فقط بأنه أراد أن يسلّم عليها.

عند الساعة الخامسة، بدأ يحضّر نفسه للذهاب إلى البيت. لقد أصبح حزيناً للغاية فيما كان يكافح كي لا يشعر بأنه يجري وراء سراب. حتى بدأ يلوم نفسه على ما أسماه بالتفاؤل الزائد، فإنه بات أمراً معروفاً بأن معظم زائري مكتب الجوازات كانت لديهم تجارب سلبية متشابهة.

ولدى خروجه من المطعم، اتجه إلى سيارته مسرعاً ولكن قبل أن يركب، أوقفه صوت ضعيف. استدار على الفور واندهش برؤية يوسف حريري أمامه.

«أنطوان... أنطوان... تأخرت عليك، كيف حالك يا صديقي؟» كانت ردة فعل أنطوان خليط من السعادة والقلق في آن واحد، فقد كان سعيداً بظهوره بينما كان قلقاً من مظهره المثير للشفقة.

«ما خطبك يا سيد يوسف؟ هل كل شيء على ما يرام؟».

«في نفس اليوم الذي قابلتك فيه، أصبت بزكام شديد ولم أذهب إلى المكتب حتى اليوم»، تنهّد ثم قدّم إليه ظرفاً كبيراً قبل أن يضيف:

«وكما خشيت، لم يتحرّك ملفك طوال فترة غيابي لأن مكتبنا هكذا في العادة.. فعند غياب أي موظف، يتم تجاهل كافة أموره من قبل زملائه وكأنه قد مات ولكني بذلت كافة جهودي لدى عودتي اليوم والحمد لله حصلت على جوازاتكم. سوف تجدها كلها في هذا الظرف».

عندما سمع أنطوان ما قاله، اقتحمه شعور بالسعادة العارمة وكان من الصعب عليه أن يقاوم الرغبة في فتح الظرف على الفور أمام يوسف.

«لم تكن بصحة جيدة وعلى الرغم من ذلك، لم تنسَ أمري... يذكّرني أمثالك بالشخصيات

العظيمة التي نقرأ عنها فقط في التاريخ». أمسك بالظرف بشدة ثم أضاف:

«أشكرك جداً وأتمنى بأنك لم تنسَ موعدي غداً في مطبخك». ابتسم يوسف ثم قال:

«لم أنسَ طبعاً، هل تريد إقناعي بأنك لا تعلم بأن وعدك للطبخ في بيتي غداً هو ما جعلني أساعدك هكذا؟» ضحكا سوياً قبل أن يضيف يوسف:

«آمل بأنه لا حاجة لأن أقول لك بأني فقط أمزح معك». رد أنطوان قائلاً:

«حتى لو لم تكن تمزح، لن أغضب لأنني أؤمن بالمثل الذي يقول بأنه من المنطقي لمن يأخذ كثيراً أن يقدم كثيراً أيضاً.. هل ستشرفني بشرب بعض القهوة معي داخل المطعم؟».

«بصراحة لن أستطيع للأسف لأن يومي كان مزدحماً للغاية وأنا في أمس الحاجة إلى الراحة... لولا أهمية زيارتي لك اليوم لذهبت إلى البيت مباشرة، ولحسن حظي، مطعمكم في طريقي إلى بيتي». أومأ أنطوان متفهماً.

«دعني أرافقك إذاً إلى سيارتك».

هكذا تمشيا كأنهما صديقين حميمين منذ مدة طويلة. وفي أثناء مشيهما، أخذ أنطوان يكرر لنفسه كم أصبحت الدنيا مليئة ببعض الأحداث الغريبة، وذلك لأنه قبل عدة أشهر لم يكن ليصدق بأنه سيوجد داعي أو سبب كي يزور يوسف في بيته. بعد أن وصلا إلى سيارته، شكره مجدداً ثم ودّعه قبل أن يذهب هو أيضاً إلى بيته.

كان أنطوان سعيداً في طريقه إلى البيت كما كان أيضاً في ذلك اليوم الذي وعد فيه يوسف أن يساعده. وقبل وصوله إلى البيت، قرر أن يقوم بتمثيل ما حدث للتو أمام عائلته. ركن السيارة ثم دخل الشقة بمظهر دمية مكسورة ولما شاهد زوجته واقفة بجوار ابنته، تظاهر وكأنه لم يرهما مما جعلها تتجه إليه مباشرة لتقول:

«ما الأمر يا رجل؟ لو لم تحصل على جوازات السفر وموضوع السفر سيؤثر عليك لهذه الدرجة فلنتجاهله ونبقى هنا».

أحدثت كلمات والدتها قشعريرة في جسد ماري التي خافت أن لا تستطيع الهروب مع إسحاق بلا جواز سفر. حتى أخذت تتساءل عما إذا سيصدقها لو أخبرته بأن الأمر خارج عن سيطرتها أو لا؟ ألقى أنطوان نظرة حادة لعيني زوجته ثم قال:

«أنا لا أعرف من أين أبدأ». ثم تعمد ان يسقط الظرف من يده قبل أن يضيف:

«هل بإمكانك أن تناوليني هذا الظرف من على الأرض؟».

لم تجبه بل اكتفت بتنفيذ طلبه ولحظتها اكتشفت لعبته لأنه تعمد ترك الظرف مفتوحاً فاستطاعت أن ترى محتوياته بوضوح، ابتسمت قائلة لماري:

«لقد أصبح والدك ممثلاً محترفاً، لن أتعجب إذا امتهن التمثيل في الولايات المتحدة».

ثم ناولت الجوازات إلى ماري والتي بدورها تلقتها بحماس طفل معاق قد تلقى بساط ريح كهدية فيما نزلت الدموع من عينيها، سكتت قليلاً ثم قالت لوالدها:

«حتى لو كان هنالك أمر مستحيل، سيصبح ممكناً بلمساتك السحرية». ثم جرت نحوه وحضنته بينما كانت والدتها تنظر إليهما مبتهجة. وبعد عناق طويل قال لهما أنطوان بهدوء:

«وبمناسبة هذا التطور الجميل، علينا أن نتحرك بسرعة ونترك لبنان قبل أسبوع على الأكثر».

تفاجأت زوجته قائلة:

«ماذا تقصد بحق السماء؟ لماذا علينا أن نتحرك بمثل هذه السرعة اللعينة؟».

أقلقته نبرتها وتنهد قبل أن ينظر إلى عيني ابنته كأنه يترجاها أن تنضم إلى صفه.

«تكلمنا عن هذا الموضوع مليون مرة، اسمعي يا ماري... سأخبرك كيف ظهرت فكرة الذهاب إلى الولايات المتحدة. هنالك رجل أميركي يدعى بالسيد وتسون، هو مسؤول كبير في السفارة الأميركية في مصر، زار بيروت خلال بعض المؤتمرات وكان يأتي إلى مطعمنا كل يوم خلال تواجده هنا، ولحسن حظي كان يحبني جداً وتوطدت علاقتنا من خلال أحاديث لطيفة كانت تدور بيننا وقبل مغادرته بيروت أعطاني كل أرقامه التلفونية وحتى عنوانه في الولايات المتحدة ووعدني أن يساعدنا في الذهاب إلى الولايات المتحدة»، توقف قليلاً ثم تابع سرد قصته:

«في الأسبوع الماضي، كتب لي رسالة يقول فيها بأنه تم نقله لإحدى السفارات الأميركية في أوروبا وعليه أن يغادر مصر قبل العاشر من ديسمبر... والدتك تعرف كل هذه التفاصيل وتعرف أيضاً بأننا لو تأخرنا أكثر، لن يتمكن السيد وتسون أن يساعدنا». أوقفته سارة صارخة:

«لا بأس سأهرب معك كجبانة، ولكني سوف أكره نفسي».

بعد هذه الكلمات، ذهبت إلى غرفتها غاضبة بينما بقي زوجها جالساً في حيرة. أخذت ماري جواز سفرها بهدوء ثم تسللت إلى غرفتها كمجرمة... كانت مصممة على الهروب الآن أكثر من ذي قبل لأنها اعتقدت بأن هروبها سيرغم والديها على البقاء في بيروت على الرغم من أن الأنانية هي السبب وراء قرارها؛ حاولت أن تتجاهل هذا كله كي لا تزيد من شعورها بالذنب.

11

29 نوفمبر 1974

«ما الذي يزعجك اليوم إلى هذه الدرجة يا إسحاق؟ وارد أنك أصبحت متردداً بعض الشيء بخصوص سفرنا».

كان إسحاق منزعجاً فعلاً كما ألمحت ماري ولكن لم تكن حالته هذه متعلقة بتردده لهروبهما... كان هنالك أمراً آخر أفسد مزاجه بالأمس. فقد سرق مالاً من والده لأول مرة في حياته. لم يتمكن من منع نفسه من ذلك لأنه شعر بأنهما سيحتاجان إلى المال من أجل أن يعيشا ويحسا بالأمان قبل أن يحصل على وظيفة في سوريا. رداً على سؤالها، قال:

«هنالك مثل يقول بأن البرميل الفارغ يرن. لو أصبحت متردداً الآن، سيعني ذلك بأني مثل البرميل الفارغ ولست كذلك على الإطلاق».

توجه ليجلس على كرسي قريب منه في المنتزه الذي كانا فيه ثم حثها أن تجلس بجانبه قبل أن يستطرد بكلامه:

«فعلت شيئاً بالأمس وما زلت خجلاً منه ولم أسامح نفسي بعد». رمقته بخوف ثم سألته بصوت مرتجف.

«ماذا فعلت؟».

«ما سنقوم به يتطلب الشجاعة والمال... والشجاعة هي الأسهل من الاثنين لأن حبنا يجعله غزيراً ولكن المال شيء صعب المنال، ولذلك اضطررت إلى سرقة بعض النقود من غرفة والدي، والمبلغ سوف يكفي لنا للعيش في سوريا لبعض الوقت قبل أن أجد عمل».

لم تصدّق ماري ما سمعته، كانت تتمنى لو كان لديه شيء آخر ليقوله كي يبقى شكله جميلاً في ذهنها كما لطالما كان، فهي كانت تعتبره شاباً عنده ضمير قوي يمنعه من القيام بأي شر ولكنه الآن أصبح مجرد لص.

«والمال الذي سلبته من والدك، هل كان ينوي استعماله لغرض مهم، عملية جراحية أو ما شابه ذلك مثلاً؟» بدا نادماً لأنه أخبرها عن السرقة قبل أن يقول:

«لماذا تبالغين في الموضوع؟ ليس لذلك المال أي قيمة عنده، فهو يضع المال في ذلك الدولاب احتياطاً فقط. حتى اعتاد محمود أن يأخذ منه من حين إلى آخر. ولما اكتشف والدي يوماً ما كان يفعله أخي، هل تعرفين ما فعله؟ ابتسم وربت على كتفه فيما طلب منه بهدوء أن يخبره فقط عندما يحتاج إلى النقود».

أحست ماري بالقليل من الفرج ولكنها أرادت أن تتأكد من صحة كلامه أكثر، ونظرت إليه بحدة فيما سألته:

«ولو كان الأمر سهلاً كذلك، لماذا كنت تعيساً إلى حد كبير؟ تمنيت لو كنت أملك كاميرا، لكنت التقطت صورة لك كي ترى نفسك».

«ربما كنت أبدو كذلك لأني لم أفعل شيئاً مماثلاً طيلة حياتي، وهذا كل ما في الموضوع».

أخيراً أحست براحة بال واقتربت منه فيما قالت:

«أنا سعيدة للغاية لوجودك معي، .. ولكن هناك سؤال مهم... أين سنتزوج لدى وصولنا إلى

سوريا، في مسجد أو كنيسة؟».

أصبح إسحاق متوتراً بعض الشيء بسبب هذا السؤال الذي لم يكن يتوقعه على الإطلاق. عرف في قرارة نفسه بأنه لن يتحمل زواجاً في كنيسة ولكنه لم يرغب في البوح بذلك:

«أي مكان يعجبك حبيبتي... على فكرة يمكننا أن نرمي قطعة نقدية لمساعدتنا بقرارنا... ولكن بصراحة يعد الزواج في المسجد أرخص وأسرع».

«ولماذا يكون أسرع؟».

«يكون أسهل لأن الزواج في المسجد يبدأ وينتهي بقراءة سورة الفاتحة ولا تتطلب قراءة تلك السورة أكثر من دقيقتين».

«هذا أمر مثير للغاية ولكني أفضل أن نستشير القطعة النقدية».

ضحكا فيما أمسكا ببعضهما. وبعد ذلك تكلما عن خطتهما لسفرهما في اليوم التالي وقررا أن يلتقيا في الساعة الثامنة والنصف في نفس المنتزه الذي دار فيه خلافهما الأول، وذلك لأنه قريب من المحطة التي ينصرف منها المسافرين إلى سوريا وتركيا.

وبعد ذلك، أبلغته ماري كافة تفاصيل خطتها. فهي أولا ستذهب إلى المدرسة بحقيبة ملابسها مدعية بأن أستاذتها أرادت أن تختار لها الثوب المناسب للدور الذي ستلعبه في مسرحية ما... ولكنها في حال وصولها المدرسة، ستستقل سيارة أجرة إلى المنتزه مباشرة بدلاً من الدخول للمدرسة.

اقتنع بخطة هروبها ثم أخرج رسالة الوداع التي كتبها لها وأخذتها منه دون أن تسأله عن المحتوى، ثم ودعا بعضهما وافترقا ليجهزا نفسيهما للرحلة.

كانت سارة تجلس لوحدها في المطبخ عندما عادت ماري، فقد كان والدها قد ذهب للتو إلى بيت يوسف ليطبخ له ولعائلته كما اتفقا. ما زالت سارة حزينة كما كانت عندما شاهدتها ماري قبل ذهابها إلى المدرسة بسبب شجارها مع أنطوان. ولدى رؤيتها ماري، وبختها قائلة:

«لما ترجعين دوماً متأخرة؟ لا تقولي بأنك كنت مع داليا لأنني تكلمت مع والدتها ونفت لي وجودك معها».

«عمري ثمانية عشر عام وإذا كنتِ لا تعرفين كيف ينبغي أن توجهي أسئلتك لي، يستحسن لو وجهتها لنفسك». ثم خرجت من المطبخ غاضبة بينما كانت والدتها تحدّق إليها بمرارة.

دخلت ماري حجرتها في حالة مضطربة، لم تسبق أن تكلمت مع والدتها هكذا. كانت ترتعش حين بدأت تضع ملابسها في حقيبتها، انتهت من ذلك قبل نصف ساعة ثم أخذت رسالة الوداع وكتبتها بخط يدها دون أن تكترث إلى ما كانت تكتبه. ولما انتهت، وضعت الرسالة على المائدة الخالية بجانب سريرها... كانت أخيراً مستعدة تماما لتنفيذ الخطة.

أما بالنسبة لإسحاق، كانت له أحداث مشابهة حيث إن والده انتقده بشدة بسبب تغيبه عن العشاء، غضب والده جداً لدرجة أنه وصفه بالحمار على الرغم من بغضه للشتائم. لم يرد إسحاق، بل اكتفى بالنظر إليه بهدوء ثم انسل إلى غرفته. وسرعان ما أخذ يجمع أغراضه وتطلب ذلك منه ساعة، نظف الغرفة أيضاً ثم وضع رسالة الوداع على طاولته الوحيدة في الغرفة. كان أيضاً مستعداً لسفرهما خلال مدة وجيزة وذهب إلى النوم مبكراً.

12

30 نوفمبر 1974

كانت الرياح شديدة يوم فرارهما وهطل المطر بشكل عنيف ومتواصل... لولا وجود الحب في قلبها، لنظرت ماري إلى ما يحدث في الخارج على أنه رسالة إليها أن تتخلى عن السفر، ولكنها لم ترَ في ذلك الجو الرديء سوى أمر يضيف إلى جمال الرومانسية التي كانت تحيط ما كانت على وشك فعله.

استفاقت باكراً عند الساعة الرابعة صباحاً، وهي لا تستطيع أن تنام لمدة طويلة حين يقتحم التفكير ذهنها ويجتاح الحماس جسدها. وبعد أن فقدت الأمل في احتمال رجوعها إلى النوم، جلست على سريرها بينما رجعت إليها ذكريات طفولتها الجميلة.

وبعد برهة نهضت وأخذت تتمشى حول الغرفة في محاولة لتقدير كل خطوة كانت تتخذها في ذلك المكان الذي ستشتاق له كثيراً. ولأول مرة، أخذت ترى أشياء في الغرفة لطالما أهملتها طوال هذه السنوات. وأول شيء شاهدته كان دميتها التي كانت متعلقة بها خلال سنوات صغرها، كانت الدمية مرمية في زاوية ما قرب الباب. توجهت نحوها وأمسكت بها بشدة مما أشعرها ببعض الدفء. وظلت تفكر حتى جاب تفكيرها سيرة إسحاق كأنه كان في آخر جزء في طريق أفكارها... وساعتها، وضعت الدمية في مكانها القديم وكأنه كان عليها متابعة إهمالها كي تستطيع أن تفعل ما كانت على وشك القيام به، ثم رجعت إلى سريرها.. استلقت عليه بهدوء وبعد أن بذلت كافة جهودها، نامت لساعتين إضافيتين.

وعندما استيقظت مجدداً، كان الوقت قد حان للمدرسة. أخذت حماماً ساخناً وقررت أن تنضم إلى والديها للإفطار، فهي لم تفعل ذلك منذ زمن. نظرت أمها إليها مبتسمة.

«يظهر أنك سعيدة جداً اليوم، هل كان لديك حلم جميل؟» ضحكت ماري وقالت:

«كيف سيسعدني حلم وأنا لا أتذكّر أحلامي على الإطلاق؟» ابتسم والديها قبل أن يقول والدها:

«ليس من الضروري أن تتذكري شيئاً حرفياً قبل أن يسعدك عملياً»، ثم وضع لها البيض في طبقها قبل أن يضيف:

«بصراحة والدتك محقة، هنالك أمر يجعل عينيك تتلألأن اليوم».

أحست ماري بالكثير من السعادة، احمر وجهها فيما أخذت تشكر إسحاق في داخلها لأنها اعتبرته المصدر الوحيد لسعادتها تلك اللحظة.

«يظهر بأنكما سعيدان أيضاً اليوم... لا أعرف لماذا تركزان علي» انفجر الجميع ضاحكاً قبل أن تضيف:

«وفي المناسبة، اليوم عندنا تمرينات في مسرح المدرسة وتريد أستاذتي أن ترى بعض ملابسي كي تختار شيئاً مناسباً للدور الذي سألعبه، ولذلك يجب أن أذهب إلى المدرسة بحقيبة مليئة بالملابس... هل بإمكانك مساعدتي بحملها إلى السيارة بابا؟».

«طبعاً أنا تحت أمرك، على فكرة ينبغي أن نتحرك بعد خمس دقائق لأن مثل هذا الجو يسبب الكثير من الزحمة».

هكذا تناولت ماري طعامها بسرعة ثم نهضوا جميعاً كي تغادر مع والدها إلى المدرسة... وقبل خروجها من البيت، رمت ماري نفسها في حضن والدتها لمدة طويلة ثم رافقها والدها إلى غرفتها

كي يساعدها في نقل حقيبتها إلى السيارة.

كان الذهاب إلى المدرسة سريعاً مما أدهش أنطوان الذي كان يظن بأن المطر سيجلب المزيد من الازدحام. لم تتوقف ماري عن النظر إلى وجهه الرقيق الذي بدا حزيناً فجأة كأنه عرف بأن مصيبة ما كانت ستحصل قريباً. ولما وصلا إلى المدرسة، أصرّ أنطوان على أن يحمل حقيبتها إلى الداخل فيما حاولت أن توقفه قائلة بأنها قادرة على حملها وحدها... ولحسن حظها، كان حارس المدرسة يراقبهما ثم تدخل وأخذ الحقيبة من أنطوان. تنهدت ماري عندئذ ثم اقتربت إلى والدها وحضنته كما حضنت والدتها ثم ودعته.

بعد أن اختفت سيارة والدها، طلبت من الحارس أن يدعو لها إحدى صديقاتها من الداخل، ولما استدار ليلبي طلبها، حملت الحقيبة على الفور وأخذت تجري بعيداً عن المدرسة. ولم يكن من الصعب على الإطلاق لفتاة جميلة مثلها أن تجد سيارة أجرة، وفي أقل من عشرين دقيقة، وصلت إلى مكان موعدها مع إسحاق لتكتشف بأنه سبقها في الوصول إليه. كان جالساً مع حقيبة بجانبه. مرت عدة دقائق قبل أن ينتبه إلى وجودها، تأملها ثم سألها:

«متى وصلت هنا؟» ابتسمت ثم قالت:

«منذ حوالى بضع دقائق ولكنك كنت شارد الذهن... متى وصلت أنت؟».

«جئت إلى هنا الساعة الخامسة والنصف كي أتجنب رؤية والدي لدى خروجي، فهو يستيقظ عند الساعة السادسة لصلاة الفجر».

«فهمت، هل أكلت شيئاً؟ فلدينا وقت ونستطيع الذهاب إلى مقهى قريب قبل المحطة».

«لما تتكلمين عني فقط؟ ألست جائعة أيضاً؟» ضحكت قائلة:

«لقد أكلت من زمان وحتى لو لم أفعل، سأشبع فقط حين أراك تشبع». ضحكا سوياً ثم ساعدته أن يقف كي يذهبا ليتناولا بعض الطعام.

دخلا مقهى صغير وطلب إسحاق الكثير من الخبز والماء لرحلتهما الطويلة ثم ذهبا إلى المحطة ووصلا هناك عند الساعة الثامنة. اكتشفا على الفور بأن الحظ كان حليفهما لأنهما لو تأخرا فقط عشر دقائق لما تمكنا من شراء التذاكر لرحلتهما. قررا أن يشتريا تذكرتيهما بعيداً عن بعضهما كي يبعدا أي شبهة عنهما وسارت الأمور على ما يرام. وقبل مرور أربعين دقيقة، كانا على متن الحافلة جاهزان للتوجه إلى سوريا.. فقد غادرت الحافلة المحطة عند الساعة التاسعة بالضبط.

في بداية السفر، كانا ينظران إلى الخارج يشاهدان بيروت التي يعرفانها ولكن بعد أقل من عشرين دقيقة، لم يعرفا معظم الأماكن التي مرّا بها كأنهما كانا في دولة أجنبية. وساعتها عرفا كم كانت حياتهما محدودة ضمن مناطق قليلة. وعندما ملا من النظر إلى الخارج، أخذا ينظران إلى بعضهما فيما دار حوار بينهما... طرحت ماري السؤال الأول:

«أي نوع من الوظائف تريد أن تمتهن في سوريا؟».

«أظن بأنني سوف أُدرِّس اللغة الإنكليزية، فأنا أجيدها جداً». نظرت إليه بغيرة ثم قالت:

«منذ متى وأنت تجيد الإنكليزية؟ ولماذا لم تخبرني من قبل؟».

«منذ وقت طويل، ووالدي مهتم بهذه اللغة بشكل غير عادي ولذلك أجبرنا أنا وأخي على تعلّمها منذ صغرنا». نظرت إليه فرحة لأن كلامه طمأنها من ناحية مستقبلهما في سوريا ثم قالت:

«لا أريدك أن تقلق على الإطلاق، فسوف أبحث عن عمل أيضاً كي أساعدك». رمقها إسحاق

بدهشة وقال:

«أي مهنة تخطر على بالك؟» ابتسمت فيما قالت:

«لطالما كنت أجيد الخياطة، علّمتني جدتي الخياطة عندما كنت صغيرة وأنا أجيدها حتى الآن».

«الحمد لله، سنكون بخير إذاً بإذن الله».

وبعد ذلك ساد الصمت لبقية السفر بعد أن ناما في نفس الوقت ولمعظم الرحلة. ولما استفاقا وسمعا الإعلان بأنهما على حدود سوريا، كانت الساعة الثامنة مساءً... وفجأة غلبهما القلق لأن أحد الركاب كان يقول بأن ضباط الجوازات في سوريا صارمون للغاية. قررا عدم الخروج سوية لأنه سيكون من الصعب لهما أن يبررا وجودهما مع بعضهما، وهو لا يستطيع أن يدعي بأنها أخته لأن جوازات سفرهما ستثبت عكس ذلك. خرجت أولاً كي يراقبها ولكن بالرغم من ذلك، أكمل كافة الإجراءات قبلها ولما اقترب إليها ليعرف ما كان يعطلها، سمع ضابط الجوازات يقول لها صارخاً:

«كيف تريدينني أن أقتنع بأنك تزورين والدك هنا؟ أولاً، لا تعرفين عنوانه وثانياً لم يأت شخصياً ليستقبلك في هذا الوقت المتأخر». كانت ماري تترجاه أن يصدق كلامها ولكنه ظلّ متصلباً وعنيداً... قرر إسحاق أن يتدخل لمنع تدهور الأمور أكثر.

«يا حضرة الضابط، من فضلك لا تشك فيها، فأنا أعرفها ولقد أوصتني أمها عليها فأنا رفيقها في هذه الرحلة وتم تفتيش كل أوراقي وهي سليمة». نظر الضابط إليه ثم إليها بغضب ممزوج بسخط شديد قبل أن يسأل إسحاق:

«حسناً... ولماذا كذبت عليّ وقالت إنها كانت تسافر لوحدها؟ أنا أشم رائحة دعارة في هذا الموضوع وقد أكون أنظر إلى وجه عاهرة». غضب إسحاق جداً لما قال ذلك وصرخ عليه:

«ما الأمر؟ انظر إليها... كيف يمكنك أن تتهم فتاة بريئة بشيء مماثل؟».

لما انتبه إلى النظرة الشريرة التي ظهرت على وجه الضابط لحظتها، أدرك بأنه لم يكن ينبغي أن يستعمل تلك النبرة معه، حاول أن يغيّر أسلوبه بنبرة معتذرة ورقيقة ولكن الأوان قد فات... أمر ضابط الجوازات رجاله أن يلقوا القبض عليهما بتهمة الدعارة وأن ترسل تفاصيلهما إلى السفارة اللبنانية في اليوم التالي حسب الاتفاقية الخاصة بين البلدين. كانت ماري تصرخ لما أبعدوها عن إسحاق بينما كان يحاول أن يوقفهم عن إبعادها عنه كأنه رجل مجنون... تابع مكافحته مع الضباط حتى استنفذ صبر أحدهم فضرب إسحاق على رأسه بمسدسه مما أفقده الوعي ثم ألقاه في سيارة مختلفة عن ماري.

13

في اليوم نفسه

بعد أن أوصل ابنته إلى المدرسة، كان ما زال لدى أنطوان الكثير من الوقت قبل موعد عمله ولذا قرّر أن يرسل إلى السيد وتسون المعلومات الضرورية كما طلب منه الأخير بالأمس أثناء مكالمة هاتفية، وكان الموظف في السفارة الأميركية في القاهرة يريد أن يبدأ الإجراءات المتعلقة بتأشيراتهم قبل وصولهم إلى مصر. وهكذا ذهب أنطوان إلى مكتب البريد قبل فتحه واضطر إلى الانتظار لعشر دقائق في الخارج.

ولما دخل أخيراً، فوجئ برؤية المكان خالياً تماماً، وهذا لم يشبه المكان الذي لطالما كان معروفاً بعدد الناس الكبير الذين يأتون إليه مما كان يجعله يبدو كالسوق المركزي.. تلفت حوله حتى رأى امرأة عجوز بعض الشيء ثم ذهب إليها لأنها بدت في نظره كالموظفة ذات التجربة الأكبر من بين بقية الموظفين الموجودين... وعندما أخبرها بأنه يريد إرسال خطاب إلى مصر، نظرت إلى كتاب ضخم أمامها، فتحته ثم قدمت إليه كل المعلومات المهمة بالنسبة إلى طلبه مثل السعر ومدة وصول الرسالة إلى مصر. وبعد أن أنهت كلامها، أومأ أنطوان موافقاً على كل ما قالته. وبعد ذلك طلب منها ورقة وكتب عليها كل المعلومات المطلوبة من السيد وتسون. ولدى كتابته هذه التفاصيل، كانت يده ترتجف جداً لأنه كان يتطلع إلى الحصول على التأشيرة ولأنه لم يعتد الكتابة بالإنكليزية. لاحظت الموظفة كم كان متوتراً وطمأنته باستمرار بابتسامات مشجعة... قدّر أنطوان تلك اللفتة.

ولدى خروجه من هناك، اشترى بعض الجرائد في طريقه إلى العمل. ولم يستغرب عندما اكتشف لدى بلوغه إلى المكتب بأنه كان الوحيد الذي جاء مبكراً، فهو لطالما كان يحل محل الموظف الأفضل، والجميع في المطعم كانوا على علم بأنه كان ينبغي أن يكون قائد الطباخين لولا وجود نادية، الطباخة الكسولة والتي أصبحت قائدة الطباخين فقط بسبب كونها ابنة أبو علي، مالك المطعم.

خلع ملابسه ولبس زي المطعم ثم توجه إلى كرسي قريب من النافذة كي يقرأ جرائده بوضوح بمساعدة ضوء الشمس. والمقال الذي لفت انتباهه كان عن الأزمة الاقتصادية التي يواجهها لبنان بسبب التزايد في عدد الفلسطينيين الهاربين من وطنهم. استخدم الكاتب المقال كإنذار بأن هذا التطور قد يدمر لبنان على المدى القصير. أشعر المقال أنطوان بالكثير من الخوف والقلق، أكثر مما توقع لأنه لطالما كان يحس بأن الأمور ستسير هكذا ولذا كان محتاراً من قلقه المفاجئ في هذا الصباح. ولكن قبل أن يستوعب كل هذه المعلومات ويلملم أفكاره، ضربه أحد على كتفه واستدار ليرى أبو علي صاحب المطعم أمامه.

«أهلاً وسهلاً يا أبو علي، وجودك هنا مبكراً مفاجأة جميلة جداً».

«على فكرة جئت لأطردك من العمل».

ضحك أنطوان لأنه عرف بأنه كان يمزح ثم ضحكا سوياً، واكتشف أنطوان عندئذ بأن نادية ابنته كانت واقفة بجانبه ثم حياها أيضاً. كان أبو علي ما زال ينظر إليه واستطرد قائلاً:

«عندما قلت بالأمس بأنك تنوي السفر بعد ثلاثة أيام، هل كنت جاداً؟».

«نعم كنت جاداً بكلامي».

لم يحاول أبو علي أن يخفي حزنه بسبب ما قاله، وحتى نادية كانت تلبس زي الإحباط في تلك اللحظة بالرغم من كونها إنسانة غير مبالية في العادة. تنهد أبو علي فيما أخرج ظرفاً من جيبه وقدمه إلى أنطوان قائلاً:

«لو الأمر كذلك، أرجوك أن تقبل هذا المبلغ مني بالنيابة عن أهلي لعملك المميز طوال كل هذه السنوات».

كان من الصعب لأنطوان أن يصدّق ما كان يراه، وذلك لأنه لطالما كان أبو علي يتميز ببخل غير عادي، وحتى ابنته، كان من الواضح جداً بأنها كانت مندهشة أيضاً من فعل والدها.

«لا أعرف ما سأقوله لك رداً على هذا الجميل، لا أظن بأنني أستحقه على الإطلاق».

«أنت دائماً كذلك، لا تعرف قيمتك وعلى ما يبدو لا تريد معرفتها أبداً... وهذا المطعم مديون إليك والجميع يعرف ذلك ما عداك». أخذ نفساً طويلاً ثم سأل أنطوان:

«متى ستسافر بالضبط؟».

«شكراً مرة أخرى يا سيدي... سأرحل مع عائلتي بعد ثلاثة أيام إلى القاهرة وإذا حصلنا على التأشيرة الأميركية، سنذهب إلى الولايات المتحدة من هناك». ابتسم أبو علي عندما ذكر الولايات المتحدة.

«كنت أريد أن أعيش أيضاً في أميركا لما كنت شاباً مثلك ولكن فات الأوان لذلك... سوف تشق الطريق الذي لم أسلكه وتعيش الحياة التي لم أعشها».

استدار وانصرف بهدوء برفقة ابنته... تمنى أنطوان لو كان الحديث أطول ولكنه توقّع انصرافه الغير المتوقع، هكذا هو سلوك ذلك الرجل غريب الأطوار، يبدأ حواراً ثم ينهيه قبل أن يكمله.

سار كل شيء على ما يرام في العمل ولما تبيّن بأنه لن يكون هناك المزيد من الزبائن، أذن له أبو علي أن يترك العمل مبكراً. خرج أنطوان من المطعم وتوجه إلى الحلاق على الفور حيث اضطر إلى الانتظار لأكثر من ساعتين بسبب كثرة الزبائن هناك.

انتهى حوالى الساعة الثامنة واتجه إلى البيت فوراً. ولدى وصوله، سمع ضجيجاً ظن بأنه كان آتياً من التلفاز ولكنه لما اقترب إلى باب الشقة، اكتشف بأن الضجيج كان من صرخات زوجته التي كانت تبكي بينما كان جاره يحاول بمساعدة زوجته تهدئة أعصابها. فتح الباب بسرعة ثم توجه نحوها صارخاً:

«ما خطبك يا حبيبتي؟».

رمقته بصمت كأنها أرادته أن يعرف ما حدث من نفسه وظلت صامتة بالرغم من تكراره سؤاله.

«أخبريني كي أستطيع مساعدتك». نظرت إليه بحزن ثم سألته:

«ولو ساعدتني بحق السماء، من سيساعدك أنت بحق الجحيم؟ لقد رحلت ابنتنا الوحيدة، هربت مع شاب لا نعرفه».

بعد أن قالت ذلك، نهضت ثم قدمت إليه الرسالة التي وجدتها في غرفة ماري قبل ساعة. قرأها ثم جلس على الأرض وهو يتذكر حقيبة ماري في ذلك الصباح وعدم رغبتها في أن يساعدها في حملها إلى داخل المدرسة ثم بدأ يصرخ، ولكن لم يسمع جيرانه وحسب صرخاته بل تعالت ليسمعها كل أهل الحي.

14

عندما استعاد الوعي، وجد إسحاق نفسه في مكتب مظلم، وكان بجانبه دكتور يعتني به. كان هنالك أيضاً ضابطان ينظران إليه. ولكنه قفز من كرسيه عندما اكتشف بأن أحدهما كان نفس الرجل الذي اتهم ماري بالدعارة. ألقى إسحاق نظرة معتذرة له ثم قال:

«أرجوك، سامحني على ما قلت لك وأطلق سراحي من فضلك» ظهرت ابتسامة شريرة على وجه الضابط الذي يدعى مازن، ونظر إلى إسحاق بنظرة خالية من التعابير ثم أشار إلى الكرسي قائلاً:

«عليك أن تجر ذلك الكرسي، اقترب واجلس عليه». فعل إسحاق كما أمره ثم استطرد مازن.

«اسمع جيداً لأنني لا أحب أن أكرّر ما أقوله... إذا كنت أنت وتلك الفتاة غير مذنبين كما تدعي، عليك أن تخبرنا كل شيء، وأقصد ذلك حرفياً لأننا مشغولون بقضايا أخرى وليس عندنا وقت نضيعه مع أناس مثلكما تشير كل الأدلة إلى ذنبهم».

كان إسحاق على وشك فقدان سيطرته على أعصابه مجدداً بسبب نبرة مازن، خصوصاً لما قال «تلك الفتاة»، وذلك لأن الطريقة التي قالها تدل على اقتناعه بأنها عاهرة فعلاً، ولكن قبل أن يرد على ما قاله مازن، قاطعهما الطبيب قائلاً:

«بكل احترام يا سيدي لا أظن بأن هذا الشاب في حالة تسمح له أن يعطي إجابات لأسئلتك، فهو قد يكن لا يزال يعاني من صدمة الضربة».

لم تهز كلمات الطبيب مازن على الإطلاق، وكل ما أحس به في تلك اللحظة كان الغضب بنفسه لأنه سمح لأحد زملائه أن يقنعه بأن إسحاق كان في حاجة إلى طبيب. تنهد ثم نظر إلى إسحاق باشمئزاز وأضاف:

«في رأيي، لقد تحسنت حالتك كثيراً، وحتى نبرة صوتك أصبحت تشبه نبرة صوت إنسان وليس حيوان مثلما كان سابقاً... لقد سمعت الطبيب، هل تريد أن تتكلم الآن أو تفضل الانتظار لبعض الوقت كما أقترح؟» توقف مازن قليلاً قبل أن يقول صارخاً:

«هيا أجب على سؤالي فوراً». أخيراً كان عند مازن وإسحاق نقطة اتفقا عليها، فهي بأنهما ليس لديهما وقت لتضييعه». أخذ إسحاق نفساً طويلاً ثم نظر إلى الطبيب قائلاً:

«أشكرك لعونك ولكن أظن بأنني يجب أن أعطيه المعلومات التي يريدها في أسرع وقت ممكن لأن القيام بذلك يصب في مصلحتي ومصلحة خطيبتي ماري».

استدار إلى مازن والذي بدا مستغرباً لاختيار إسحاق كلمة «خطيبتي» لوصف من أسماها «تلك الفتاة»، استطرد إسحاق قائلاً:

«باختصار يا سيدي، لقد هربنا إلى سوريا لأننا نؤمن بأن هذه الدولة ستقدم لنا جواً أكثر انسجاماً للزواج بين مسلم ومسيحية نظراً إلى المستجدات السياسية في لبنان فالوضع لدينا معقد بعض الشيء».

بدا مازن كأنه تجاهل كلامه لأن ملامح وجهه لم تعبّر عن شيء وفجأة أخذ يحدق إلى جواز سفر إسحاق بفضول غريب ثم قال:

«حسناً يا سيد إسحاق كشوغي... ما أجمل حكايتك». نظر إلى جواز سفره مجدداً وقال:

«أنت لست كذاباً، أنا متأكد من ذلك من خلال تجربتي في هذه المهنة التي اكتسبتها منذ أكثر من خمس وعشرين سنة. أعتذر لك لأنني قلت بأنها عاهرة وأنا مستعد لإثبات حسن نيتي وأطلق

سراحكما الآن، وفي هذه اللحظة... ولكن هناك شرط صغير جداً جداً».

á á á

على بعد بعض الأمتار في نفس المبنى، كانت ماري تمر بتجربة مماثلة ولكن لم يكن مضيفها رجل بل كانت امرأة كبيرة في السن تدعى بالسيدة كلثوم. فهي كانت واقفة في الخارج حيث تدخن كالعادة حين دخلت سيارة مازن بماري... توجهت إلى مازن وسألته عنها، وبعد أن أخبرها ما حدث، طلبت منه أن تستجوب ماري لأنها كانت تعلم بحقد مازن للجنس الآخر. وافق على طلبها مترددا ثم أمرت أحد الضباط أن يذهب بماري إلى مكتبها كي تكمل تدخينها، حيّتها ماري عندئذ ولكنها لم ترد عليها أو تنظر إليها. وبعد عشر دقائق، دخلت مكتبها وبدأت تطرح أسئلتها بدون مقدمات.

«ماذا تفعلين في سوريا ومن ذلك الشخص الذي كنت معه؟».

لم تعرف ماري ما ينبغي أن تقوله لأنها لم تكن لديها أدنى فكرة عما كان يقوله إسحاق، وخافت من أن تحصل أي تناقضات في أقوالهما إلى المزيد من المشاكل. تجمدت حتى تذكرت نصيحة سمعتها من جدتها يوماً عندما قالت بأن الطريق الأسهل إلى أي مكان هو الطريق (الدغري) - المباشر - والطريق الأسهل إلى قلب أي إنسان هو الصدق... وذلك لأن الصدق هو الذي يطلق سراح الإنسان. قررت عندئذ أن تقول الحق كله.

«أنا أحبه جداً رغم كونه مسلماً وكوني مسيحية، هربت معه كي نعيش هنا مؤقتاً».

كانت السيدة كلثوم في حاجة إلى الجلوس بسبب ما سمعته للتو، فهي لديها ابنتين في سن ماري تقريباً وأخذت تفكر بهما فجأة. أخذت ماري تحس بقلق شديد بسبب سكوتها مما جعلها تبوح بالمزيد من المعلومات لتملأ الفراغ الذي أوجده صمتها. أخبرتها بكل شيء كان يخص علاقتها بإسحاق دون أن تكون لديها أدنى فكرة عن ردة فعلها. بعد أن أصغت إليها بالكامل، قالت السيدة كلثوم:

«أنا متأكدة بأن والدتك لم تكن لديها فكرة عن هذا الحب العظيم الذي تتكلمين عنه أو هل أنا غلطانة؟».

كانت نبرتها مملوءة بالسخرية بينما أومأت ماري بالإيجاب لما قالته. ثم استطردت السيدة كلثوم:

«أنا مسلمة وضد الارتباط بين أصحاب الأديان المختلفة لدرجة أنني أعارض حتى الزواج بين السنّة والشيعة، ولكن لو كنت والدتك وفاتحتيني بالأمر مثلما فعلت الآن، لحاولت أن أساعدك وأقف إلى جانبك لأن ذلك ما يجب على أي والدة فعله، فهو معنى الأمومة. لماذا لم تعطها فرصة لتفعل ذلك؟ لماذا... لم تعطها فرصة لأنك غبية وأنانية، وهذه هي الحقيقة المرة».

سالت الكثير من الدموع على خدي ماري التي كانت تدرك في أعماقها بأن السيدة كلثوم كانت على صواب في إدانتها فيما أبقت نظراتها إلى الأسفل. لم تردّ على الإطلاق ولم تتوقّع مضيفتها رداً منها. قدمت إليها ورقة ثم قالت:

«اكتبي لي رقم تلفون والديك».

شعرت ماري بالكثير من العار وأرادت أن تدفن بالأرض لحظتها. كررت طلبها فيما ازداد غضبها، وعندئذ عرفت ماري بأنها لن تطلق سراحها في غياب والديها ثم كتبت رقم تلفون بيتها. أخذت السيدة كلثوم الورقة منها وذهبت بها إلى مكتب مازن دون أن تضيف شيئاً.

á á á

كان مازن على وشك إخبار إسحاق بأنه لن يطلق سراحه إلا بوجود رسالة تثبت بأنه سافر مع ماري بموافقة أهلها، ولكن دخول كلثوم قاطعه. أبعدته عن بقية الحاضرين ثم أخبرته كل ما قالته

ماري، وفي النهاية أعطته رقم تلفون بيتها وجواز سفرها فيما نصحته أن يتصل بوالديها فوراً، قرّر مازن أن يفعل كما اقترحت وأمر الجميع أن يخرجوا من مكتبه ما عدا كلثوم التي خرجت أيضاً لتدخن ثانية.

عندما أصبح مكتبه فارغاً تماماً، اتصل مازن بالرقم، أجاب أنطوان على المكالمة بصوت رجل على وشك فقدان صوته إثر كثرة البكاء.

«مساء الخير. هل أنت والد ماري إلياس؟».

أخذ قلب أنطوان يخفق بسرعة لدى سماعه اسم ابنته.

«نعم أنا أنطوان إلياس».

«حسناً! إن حضورك مطلوب عند مقر الشرطة في منطقة جميرة في دمشق في سوريا غداً لمساعدة ابنتك أن تثبت براءتها ضد تهمة الدعارة بعد أن تم إلقاء القبض عليها في حالة مشبوهة». لدى سماعه كلمة «دعارة» أخذ قلب أنطوان ينبض بسرعة غير عادية بينما كافح من أجل التنفس. أخذت زوجته السماعة منه وأخذت تسأل صارخةً:

«من أنت؟ ماذا قلت لزوجي؟ ماذا أخبرت حبيبي؟» نهض مازن من كرسيه فيما اقتحمته موجة من الخوف وبدأ يدافع عن نفسه:

«لم أخبره شيئاً يا سيدتي، أنا متأكد بأن ابنتكما شريفة، كل ما أحتاج إليه هو حضور أحدكما غداً إلى مقر الشرطة في جميرة دمشق. دعيني أشرح له ما كنت أقصده». ولكنها لم ترد، كل ما كان يسمعه بعد ذلك كان «ساعدوه على القيام... المسه على صدره... هل يتنفس؟... هل هناك طبيب في المبنى؟» وأخيراً سمع الجملة الأخيرة عندما قال رجلاً ما: «يؤسفني أن أخبرك يا سيدتي بأن زوجك قد مات». أقفل مازن الخط عندئذ بهدوء وجلس على الأرض ثم أخذ يبكي.

رجعت كلثوم لتجده كذلك وأسرعت إليه وجلست بجانبه. أخبرها كل ما حصل للتو وساعتها عرفت بأن السماح له بالقيام بذلك الاتصال الحساس كان أكبر خطأ ارتكبته في حياتها مما جعلها تبكي أيضاً.

15

أول ديسمبر 1974

كانت ماري محتارة ومندهشة عندما فتحت السيدة كلثوم الباب وفي يدها بعض الشاي والكباب.

«تعالي يا ابنتي، أنا متأكدة من أنك جائعة وعطشة».

وعند سماعها لكلمة «ابنتي» كانت متفاجئة جداً وكادت لا تصدق أنها نفس المرأة التي قالت لها قبل بضع ساعات بأنها «بنت غبية وأنانية». فقالت في نفسها على الفور بأن تأثير والدتها كان وراء هذا التغيير الملموس والإيجابي في معاملة كلثوم لها.

«أشكرك جداً للطفك وأتمنى أن لا أكون من منعك من العودة إلى بيتك مبكراً».

انتظرت رداً من كلثوم ولكنها لم ترد... فهي ما زالت في حاجة إلى بعض الوقت كي تستوعب وفاة والد ماري. وذلك كان أمراً صعباً للغاية. أحست بأن تلك المصيبة لم تكن لتحدث لو لم تخرج لتدخين تلك السيجارة اللعينة... لولا إدمانها للسجائر، لما كانت راغبة في الخروج من مكتب مازن وساعتها، كانت ستكون من ستفاتح أهل ماري عن مشكلتها، اكتفت بالنظر إلى ماري، تساءلت عما إذا كانت ستكون قادرة على استعادة حياتها الطبيعية بعد هذه المصيبة. وفجأة أبعدها سؤال ماري عن تفكيرها:

«هل تحدثت إلى والدتي؟».

أومأت كلثوم برأسها علامة الإيجاب فيما أخرجت ابتسامة مزورة.

«نعم، تحدثت إليها وهي تتطلع إلى رؤيتك غداً».

أحست ماري بموجة من الفرح والخوف في نفس الوقت بينما شعرت كلثوم بقلق وانزعاج. أخذ صوت ماري يرتجف أكثر حين استطردت سائلة:

«هل تقصدين بأنها ستأتي غدا؟».

أظهر سؤالها هذا فكرة جديدة في ذهن كلثوم التي أرادت بشدة أن تقوم بشيء من أجل ماري. ولأول مرة، أخذت تفكر في احتمال أن تصطحبها إلى والدتها في لبنان بنفسها، ولكنها ما زالت غير واثقة لو كان ذلك ما أرادت فعله.

«لا يا ابنتي، لن تأتي والدتك هنا، لن يكون هناك داع لذلك».

توقفت لبرهة ثم تكلمت ثانية بعد أن قررت ما ستفعله:

«لدي أقارب في بيروت، سأزورهم غداً وسآخذك إلى والدتك في طريقي... حتى في هذه الليلة، لن تنامي هنا. فلدي غرفة خالية في بيتي وأظن بأنها ستكون مناسبة لك».

كانت تتكلم بسرعة كأنها كانت تحاول إخراج تلك الكلمات قبل أن تغير رأيها. وبعد ذلك، قالت:

«حاولي أن تأكلي وتشربي بسرعة كي نخرج من هنا، سوف تجدينني في الخارج حيث رأيتيني في المرة الأولى».

نهضت وتسللت من الغرفة كأنها كانت مجرد ممثلة وقد انتهى دورها في المسرح.

أحست ماري بوحدة شديدة بعد رحيل كلثوم فيما تساءلت عما قالته لها والدتها وتسبب في هذا التحول الكبير في سلوكها. ولكنها لم تقدّر معاملتها الطيبة كثيراً لأنها لم تذكر شيئاً عن إسحاق.

قررت عندئذ أن لا تذهب معها إلى بيتها في غيابه.

á á á

كان مازن جالساً على كرسيه الآن، لم يعد يبكي على الأرض. ولقد اعتنت به كلثوم بكلمات طيبة قبل رحيلها وساعدته أيضاً على النهوض. اتفقا بأنهما سيطلقان سراح ماري على الفور ولن يفتحا لها ملفاً وكأنه لم يلقَ القبض عليها على الإطلاق. وذلك كان السبب الرئيسي لرغبة كلثوم في أن ترافقها ماري إلى بيتها، فإنه سيكون أصعب بكثير لهما أن يتركاها بتلك السهولة على أن يشاهدها ضابط ذو مرتبة أعلى منهما في مقر شرطة الجوازات.

أما بالنسبة إلى إسحاق، قرّر مازن أن يجعل حياته جحيماً بعد أن ألقى كافة اللوم عليه لكل ما حدث للتو، فهو أكبر من الشابة في السن وكان ينبغي أن يهديها إلى الصراط المستقيم بدلاً من أن يضلها عنه. لطالما كره مازن الذين يعتبرهم أمثال إسحاق، وهم دوماً يتميزون بالجمال والألسنة المعسولة وكان يخاف على بناته من كيدهم.

قرّر أن يدفن أيضاً ملف إسحاق ولا يبلغ والديه بوجوده معهم كي يبقى في الزنزانة عندهم لأطول مدة ممكن، وهكذا سيعلّمه درساً مرًّا ليكون عبرة لأي شاب مثله... «هؤلاء الشباب الفاسدون الذين لا يعرفون بأن بنات الناس لسن لعبة في أيديهم». وهذا كان طريق مازن ليستعيد ما انكسر في داخله في تلك الليلة، وكان أيضاً أسلوبه الخاص في أن يبقي رأيه عن نفسه حياً، فهو لطالما كان يعتبر نفسه الرجل الذي لا يخطئ، كان مقتنعاً بأنه شخص ولد للمساهمة في إصلاح المجتمع من وراء الكواليس.

نهض فجأة وفتح باب مكتبه ثم كلف أحد رجاله أن يأتي بإسحاق فوراً. حضر إسحاق وكانت علامات الجوع والتعب والضعف والعطش واضحة على وجهه. لم يأمره مازن أن يجلس كما فعل سابقاً، ظل يراقبه في صمت وغيظ حتى قال:

«سوف تكون ضيفنا لمدة طويلة يا شاب. ولدى مغادرتك، ستكون قد تعلمت المعنى الحقيقي للرجولة. وبالإضافة إلى ذلك، ستتمكن من تعليم الآخرين مما تعلمته كي يتجنبوا الوقوع في نفس الفخ أيها الأحمق».

لم يستطع إسحاق أن يقول شيئاً، فهو لم يأكل شيئاً منذ أكل في المقهى في بيروت قبل ستة عشر ساعة ولذا لم يمتلك المزاج للخوض في مثل هذه المهاترات الساخنة والمتوترة. فلقد سئم من وجوده هناك وسئم أيضاً من خوفه من مازن.

«لست خائفاً منك، افعل ما تشاء! ولا يهمني شيء لأنني غير مذنب وأعرف بأنك تعرف ذلك. وأعرف أيضاً بأن وجودي هنا ليس له سبب إلا في عقلك المريض». غضب مازن أكثر من ذي قبل وردّ صارخاً:

«إنه لمن العار أن تقف أمامي لتقول بأنك غير مذنب، ربما نسيت بأن تلك الفتاة تعد ابنة لرجل آخر. يبدو وكأنه ليس لديك أمل لأن الشر قد جعلك أعمى عن الحقائق».

ثم توجه نحو إسحاق وصفعه. لم يسبق لإسحاق أن تلقى صفعة من أحد في حياته فانفجر من سخطه ثم بدأ يدفع مازن للوراء قائلاً:

«ما خطبك أيها المجنون المتهور؟ لماذا فعلت ذلك؟ وهل كنت أحكي اللغة الصينية مما جعله مستحيلاً عليك أن تفهم كل ما كنت أقوله بالنسبة إلى الفتاة؟ أنا وهي نحب بعضنا البعض وجئنا هنا كي نتزوج، لماذا لا تستطيع أن تتفهم هذا الأمر؟ أو هل ليس الزواج أمراً شريفاً ونبيلاً؟».

دفعه مازن عنه وصفعه ثانية قبل أن يخبر إسحاق أسوأ خبر تلقاه في حياته:

«هل تعرف بأن والدها لم يستطع أن يتحمل ما فعلته وتوفي قبل ساعة تقريباً؟ هل تعرف الآن ما فعلته؟ هل ترى الآن بأنك الشر متجسداً في شكل إنسان؟».

كانت كلماته ضربة قوية جداً على إسحاق لدرجة لم يعد قادراً على دفعه كما لم يعد متمكناً من منع نفسه من السقوط على الأرض... كان حزيناً ومحطماً ومكسوراً وغاضباً في الوقت نفسه، وكان مدركاً أيضاً عندئذ بأن هروبه مع ماري كان شيئاً سيندم عليه طوال عمره.

16

في اليوم نفسه

قضى جمال كشوغي يوماً سيئاً للغاية في مكتبه في اليوم الذي شهد مغادرة ابنه إلى سوريا. وصل إلى العمل عند الساعة الثامنة والنصف كالعادة ولكنه لدى حضوره، وجد أمامه تحدياً كبيراً لم يسبق أن واجه مثله طوال حياته المهنية.

ولقد قرّر المدير العام لشركته أن يلقي اللوم عليه لخطأ ارتكبه زميل سابق له يدعى ماجد مما أدى إلى انهيار المبنى الذي كان ماجد يشرف على بنائه قبل هجرته إلى المملكة المتحدة مؤخراً. وكان جمال مندهشاً من هذا القرار، خصوصاً لأن المدير كان على علم بأن لجنة التحقيق التي تم تشكيلها من أجل هذا الموضوع قد أفادت بعدم تورطه في هذا المشروع على الإطلاق، وكان موقف اللجنة مستنداً على كونه في العطلة في بداية ذلك المشروع مما أدى إلى نقله تماماً لتحت رعاية ماجد، ما زال في حوزته تقرير اللجنة الذي يثبت براءته. ولكن رداً على ضغوط من الحكومة على الشركة مجدداً حول هذا الحدث، كان المدير في حاجة إلى كبش فداء ولم يجد سوى جمال كشوغي.

بعد أن وصل إلى المكتب، أخبره أحد زملائه بأن المدير العام كان يريد أن يراه فوراً، ترك حقيبته على مكتبه ثم أسرع إلى مكتب المدير في الطابق الثاني. ولدى وصوله، أخبرته السكرتيرة أن يدخل على الفور. فتح الباب ثم قال لمديره مبتسماً:

«صباح الخير يا سيدي».

كان المدير يكتب شيئاً ولكن كان غضبه واضحاً من الطريقة التي كان يكتب بها.

«قد يكون صباحاً خيراً لبقية الناس ولكنه لن يكون صباحاً خيراً لك لو لم تبدأ بتقديم إجابات سريعة ومهمة الآن». انزعج جمال ولكنه استطاع أن يسيطر على أعصابه.

«أنا لا أفهم ما تقصده يا سيدي».

«أنا أتكلم عن المبنى الذي انهار... ولحسن حظ الشركة، لم يتوف أحد نتيجة الحادث، الحكومة تريد إجابات، وبصفتك المهندس الذي تمّ تكليفه بالمشروع، عليك أن تتحمل المسؤولية».

«يا سيدي، لقد راجعت لجنة مكونة من عدة أشخاص هذه القضية واستناداً على ملفات الشركة، لقد تمّ إثبات أنني لم أشترك في هذا المشروع، حتى من بعيد. ولذلك قدمت اللجنة إليّ رسالة بحيث اعترفت فيها بأنني غير متورط في هذا الأمر على الإطلاق».

أدت كلماته إلى المزيد من الانفعال لدى المدير بينما أخذ جمال يشكر ربه بأنه ألح على اللجنة أن تعطيه ذلك التقرير والذي هو الآن في خزنته في البيت.

«من أذن لأي لجنة أن تقدم تقريراً إليك؟ أي مستند مثل الذي ذكرته ينبغي أن يعتبر كشيء بلا قيمة. كل المطلوب منك حالياً هو أن تأتي بماجد حتى ولو كان تحت الأرض كي يتوجه إلى السلطات ويتحمل مسؤولية فعلته».

«مع خالص احترامي يا سيدي، ذلك ليس من ضمن واجباتي في هذه الشركة، خصوصاً الآن بعد أن هاجر ماجد إلى لندن. كيف يمكنني أن آتي به؟».

نهض المدير عندئذ، واقترب إلى جمال ثم قال بغيظ:

«لا يخصني الطريق الذي ستستعمله لتجلبه».

نظر إلى ورائه وأشار بيده إلى بعض الملفات على مائدته ثم سأل:

«هل تعرف ما توجد في تلك الملفات؟ رسائل إلى عدة بنوك لمساعدة الشركة في تمويل بعض مشروعاتنا... ذلك ما يخصني بصفتي المدير العام، لا أملك الوقت كي أشغل بالي بأمر ماجد أو أمثالك الذين يأخذون من الشركة ولا يقدمون إليها شيئاً سوى أخطاء وفضائح». ثم رجع إلى كرسيه وتابع كلامه:

«كان يجب عليك أن تؤجل عطلتك لأن تنفيذ ذلك المشروع كان أكبر من إمكانيات مهندس بخبرة متواضعة مثل ماجد... كيف تتوقع من مجلس الإدارة أن يفكر لمهندس مثلك يدعي بأنه يمتلك دماغاً؟» ثم أنهى الحديث قائلاً:

«لديك أسبوع كامل كي تأتي به أو تعطيني عنوانه في لندن كي نطلب من الشرطة الدولية أن تلقي القبض عليه. اتركني الآن كي أعتني بأمور أكثر أهمية».

خرج جمال من مكتب المدير وهو ينظر إلى الأرض، لطالما عرف بأن المدير ليس رجلاً طيباً ولذا يبذل كل جهوده لتجنّبه، ولحسن حظه لم يكن لديه سبباً للتعامل معه مباشرة، كان يقدّم تقاريره إلى نائب المدير العام وهو رجل يتميز بشخصية طيبة ومتزنة. وقرّر جمال أن يقدم استقالته لدى إيجاد حل للخطأ الذي فعله ماجد في حال رفض المدير أن يعتذر إليه.

وكانت بقية المدة التي قضاها في المكتب أهدأ، تجوّل حول بيروت في زيارات لعدة مشروعات واشترك أيضاً في بضع اجتماعات مع زملائه، طارت الساعات ووصل إلى البيت عند الساعة التاسعة ليلاً. قبل أن يخرج من السيارة، ذهل لرؤية زوجته وابنه محمود في انتظاره عند باب البيت.

«ما خطبكما؟ أقلقتماني جداً بوجودكما هنا». نظر محمود حوله ثم قال:

«دعنا ندخل يا بابا، ربما هناك من يتنصت لحديثنا».

زادت حيرة جمال لأنه لم يسبق أن سمع ابنه يتكلم هكذا بهذه النبرة القلقة. ولدى دخولهم البيت، أقفل الباب قائلاً:

«الآن نوجد على انفراد، ما الأمر؟».

أخذ ابنه وزوجته ينظران إلى بعضهما كأنهما لم يعرفا من ينبغي أن يتكلم أولاً، ولكن بعد برهة، اقترب محمود إليه وأعطاه رسالة إسحاق ثم قال:

«بعد أن انتظرنا عبثاً أن يعود إسحاق من الجامعة، قررت أن أذهب إلى غرفته في أمل أن يكون قد رجع إلى البيت دون أن يحس أحد بذلك، ولكن بدلاً من أن أراه، رأيت هذه الرسالة».

أخذ والده الرسالة منه ثم ذهب إلى كرسي في غرفة الطعام وقرأها. وعندما أكمل قراءته، كان يريد أن يطرح الكثير من الأسئلة على محمود الذي افترض بأنه كان عليه أن يكون على علم بخطة أخيه ولكنه أوقف نفسه، لأنهم في هذا الوقت جميعهم في نفس الصف والمركب، وليس الوقت لإلقاء اللوم على أحد. أخذ يفكر لمدة طالت العشرين دقيقة ثم قال:

«سوف أتصل بمدير شركتنا في سوريا، هو صديقي الحميم. وسأطلب منه المساعدة لأنه يمتلك علاقات متينة مع ضباط الجوازات اللبنانيين والسوريين عند الحدود. يجب أن نجد إسحاق بأسرع وقت ممكن كي نرجع تلك الفتاة إلى والديها». أومأ محمود برأسه موافقاً قبل أن يقول:

«ما زلت عاجزاً عن التصديق بأن أخي يستطيع أن يلحق هذا القدر من الأضرار بعائلتين، يشير تصرفه هذا إلى أننا لم نعرفه جيداً، فهو ليس سوى ممثل شاطر أخفى شخصيته الحقيقية». غضبت والدته وانتقدته قائلة:

«ما تفعله ليس عادلاً، تنتقد أخيك في غيابه دون أن تعطيه فرصة للدفاع عن نفسه. ماذا ستقول لو اكتشفت بأنه هرب مع امرأة أكبر منه في السن وهي التي خدعته بسبب سذاجته؟» قاطعها زوجها قائلاً:

«إنه لمن الواضح كيف صار إسحاق متهوراً لهذه الدرجة، فهو لديه والدة قامت بتربيته بأسلوب خاطئ، فلنترك هذا الكلام إلى وقت لاحق... سنغادر جميعاً إلى سوريا غداً بسيارتي عند الساعة السابعة».

صعد السلالم دون أن يعطي لأحد فرصة لقول أي شيء لأنه كان غاضباً جداً، وكان مستعجلاً أيضاً لأنه عليه أن يتصل بنائب المدير في مكتبه كي يخبره بأنه لن يأتي إلى المكتب غداً، وعليه أن يتصل بعماد، مدير شركته في سوريا كي يخبره عن المشكلة، سوف يعطيه كل بيانات إسحاق في أمل أن تكون لديه معلومات قبل أن يصل إلى سوريا في مساء اليوم التالي.

17

كانت كلثوم تدخن السجائر أكثر من العادة في الخارج كما اعتادت على فعل ذلك كلما اجتاحها شعور مضطرب. فهي قضت ساعة تقريباً تنتظر ماري أن تأتي إليها كي ترحلا سوية إلى منزلها، ولم تعرف لماذا كانت الفتاة تضيع الوقت. ولم تعرف أيضاً ما إذا كان ينبغي عليها أن تفعله من أجل الضغط عليها، أو كان ينبغي أن تصبر في الخارج على أمل أن تخرج بنفسها، ولكن عندما نظرت إلى ساعتها وأدركت كم كان الوقت متأخراً، قررت أن تذهب إليها.

فتحت الباب بهدوء واستغربت لدى رؤية ماري وهي نائمة على نفس الكرسي الذي تركتها عليه. ولفت انتباهها أيضاً إلى أنها لم تأكل سوى نصف الأكل الذي أعطتها إياه. اقتربت إليها ثم لمستها بلمسة خفيفة مما أيقظها ثم قالت:

«لماذا تنامين هنا؟ هل نسيت بأنني وعدتك أن آخذك إلى بيتي حيث سيكون لديك غرفة وحمام خاص؟».

ولكن كان عليها أن تتوقف عندما لاحظت بأنها كانت تتحدث إلى نفسها، فكانت ماري شاردة الذهن تماماً بينما التف الحزن الشديد حول ملامح وجهها. أخذت كلثوم تتساءل عما إذا كان مازن قد جاء في غيابها وأبلغها خبر موت والدها. جلست ثم سألتها:

«هل جاء أحد في غيابي ليخبرك شيئاً؟».

«لا، يا سيدتي، لم يأت أحد». تنهدت كلثوم ثم قالت:

«لماذا لم تأتي إلي في الخارج كما اتفقنا؟ ألم تسأمي بعد من هذا المكان؟».

لم تعرف ماري كيف ستجيب على سؤالها دون أن تجرح شعور هذه المرأة التي كانت تحاول أن تعاملها بحنان وكأنها ابنتها.

«أردت أن آتي إليك عدة مرات وحتى أني ذهبت نحو الباب مراراً وتكراراً ولكنني وجدت نفسي أعود إلى مكاني مجدداً».

ألقت كلثوم نظرة مستفسرة إليها ثم قالت:

«ولماذا أصبحت متردّدة إلى هذا الحد؟ ما الذي يسبّب كل هذه الحيرة؟» نظرت ماري إليها بنظرة غريبة كأنها كانت تخبرها بعينيها بأنها يجب أن تكون على علم بما يجعلها مترددة. وأخيراً أجابت:

«الرجل الذي ألقي القبض عليّ برفقته هو السبب... لا أستطيع أن أتركه هنا، أنا أحبّه وأفضّل أن أكون مسجونة في المبنى نفسه بدلاً من أن أكون حرة في أجمل قصر في العالم بعيداً عنه».

ما قالته كان يكفي لأن يكون القشة التي قصمت ظهر البعير في نظر كلثوم، فهي قبل أن تصبح أرملة قبل عدة سنوات، كانت امرأة ذات تجربة واسعة وناجحة بالحب، ولم تكن في مزاج مناسب كي تتلقى محاضرة عن الحب من فتاة ساذجة تسببت في موت أبيها بسبب سلوكها الأناني.

«كنت قد نسيت أمره وأظن بأنه عليك أن تنسيه أيضاً نظراً إلى كم الأضرار التي ألحقها بحياتك». غضبت ماري جداً وفقدت سيطرتها على نفسها.

«انظروا من يتكلم! لم يلحق أحداً أي أضرار على حياتي سوى زميلك الذي يناديني عاهرة. متى أصبح الحب جريمة؟ أجيبيني سيدتي، أريد أن أعرف إجابتك لهذا السؤال». تنهدت كلثوم ثم رمقت ماري بنظرة حادة وقالت:

«متى أصبح الحب جريمة؟ هل قلت بأنك تريدين معرفة الإجابة لهذا السؤال؟» أومأت ماري برأسها موافقة ثم استطردت كلثوم:

«الحب يصبح جريمة عندما يسبّب حبنا الكثير من الحزن للكثير من الأشخاص الذين نحبهم... والحب يصبح جريمة عندما يؤدي إلى موت مفاجئ وغير مبرر.. وبالنسبة إليك بشكل خاص، لقد أصبح الحب جريمة لأن والدك توفي قبل عدة ساعات عندما سمع بأنه تم إلقاء القبض عليك».

á á á

حتى بعد مرور أكثر من ساعة، ظل إسحاق جالساً على الأرض في حالة حزن شديد بينما وقف مازن كساعة بيغ بان فوق رأسه. ومن وسط الدموع، رفع إسحاق رأسه وقال:

«كنت على صواب في كل ما قلته عني، فإنه من الواضح بأنني لست سوى شاب ظالم ومخرّب للبيوت، ولكن هناك نقطة قلتها لا أوافقك عليها»، توقف قليلاً ثم تابع:

«لا أوافقك عندما قلت بأنني سأكون ضيفاً لمدة طويلة هنا»، نهض فيما حاول أن يعبّر عن نفسه بيديه:

«لا أظن بأنني أستحق أن أكون ضيفاً طويلاً في مكان مثل هذا... وما أستحقه هو أن أكون ضيفاً دائماً في مكان أسوأ بكثير من هنا، مكان يشبه حفرة لا ينبغي أن يقبل بها إلا الفئران. هل تفهمني يا سيدي؟».

كان ينظر إلى مازن بحدة وعندما ساد الصمت. استطرد إسحاق:

«أنا مستعد أن أمضي على ورقة اعتراف بأنني المجرم في أي جريمة كبيرة لم يتم العثور على مرتكبها هنا في سوريا، وهكذا سيسهل وضعي في مثل الحفرة التي ذكرتها، والله أنا جاهز يا سيدي».

لم يستطع مازن تصديق أنه نفس الشاب الذي كان يتمتع بالكثير من الثقة بالنفس الآن يقول أشياء مماثلة. ولأول مرة، أحس بالقليل من الإشفاق نحوه، ولكنه عرف في قرارة نفسه بأنه كان من المستحيل أن يلبي ما طلبه إسحاق منه.

«تعال يا إسحاق، دعنا نذهب إلى زنزانتك، سوف يأتي أحداً بالخبز والماء وغداً سنتكلم عن مستقبلك».

فتح باب مكتبه ومشى أمام إسحاق الذي كان يتبعه كعبد مطيع. تابعا مشيهما في ممر طويل ومهجور بينما سمعا خطوات من مسافة بعيدة بعض الشيء. ولما وصلا إلى آخر الممر وكانا على وشك الذهاب إلى اليمين، ظهرت ماري وكلثوم من اليسار في طريقهما إلى المخرج. تجنب إسحاق النظر إلى عيون كلثوم التي كانت تحدّق إليه بغضب وركّز عينيه على ماري ثم سألها:

«هل أنت على علم ب-...».

لم يستطع أن يكمل جملته ولم يكن هناك داع لذلك لأنها أجابته على الفور قائلة:

«نعم علمت بأن والدي قد توفي. قتلناه معاً ولكنك من دبّر وخطّط يا مجرم... هل تتذكر ما فعلته في اليوم الذي أخبرتك بأنني غير قادرة على الهروب وترك والداي؟ تركتني أمشي إلى البيت لوحدي بقلب محطم، لم تحاول أن تمنعني من الرحيل في مثل تلك الحالة»، توقفت بينما تنهدت تنهيدة تنم عن يأس وألم شديدين، ثم تابعت:

«كان من المفترض أن أعرف عندئذ بأنك رجل شرير، كل ما يفعله فقط تنفيذ أوامر الشيطان».

حاولت كلثوم أن توقفها عن الكلام ولكنها رفضت واستطردت:

«كان يجب أن أعرف بأنك كنت تخطط لطردي من مملكة البراءة مثلما مكر الشيطان وطرد حواء من الجنة». استدارت وتابعت مشيها نحو المخرج برفقة كلثوم ولكن إسحاق وقف أمام باب المخرج وقال:

«أنا أعرف حجم غلطتي وأنا مستعد لمواجهة أسوأ عقاب» ثم أشار إلى مازن بيديه فيما ركع أمام ماري وقال:

«قلت ذلك للتو لهذا الضابط في مكتبه»، ثم نظر إلى مازن صارخاً:

«لماذا لا تخبرها ما كنت أقوله لك؟ لماذا أنت صامت هكذا؟ تكلم!» أخذ نفساً طويلاً ثم نظر إلى ماري بعيون مثقلة بالدموع.

«كل ما أريده منك هو مسامحتي قبل أن أواجه عقابي» ولكن ماري أسكتته قائلة:

«انظر إلى نفسك! ألم تسأم بعد من دور الملاك البريء ومن أفعالك السوداء؟ أنا أكرهك إلى الأبد ولن أسامحك طالما حييت».

دفعته من طريقها وخرجت بينما ظهر بعض الضباط وساعدوا مازن أن يحمل إسحاق إلى زنزانته. كانت تلك أول ليلة قضاها إسحاق في الزنزانة، بينما كان ذلك أول يوم أصبحت ماري فيه سجينة لضميرها وضحية لعذابه المدمر.

اليوم التالي

لم تنم سارة إلياس على الإطلاق في الليلة التي توفي فيها زوجها، فهي لم تستطع أن تبعد شكل جثته عن خيالها كما بدت عندما نقلتهما سيارة الإسعاف إلى مستشفى بيروت للعلوم حيث تم وضع جثته، وكانت عاجزة عن نسيان نبرة صوت الطبيب لما أعلن لها بأنه مات نتيجة أزمة قلبية. كان لديها إحساس مسبق بأن ذلك سوف يكون السبب لوفاته لأنه سبق أن عانى من أزمتين قلبيتين قبل عشر سنوات عندما كانت لديهما الكثير من المشاكل المالية بسبب المطعم الذي كان يعمل فيه حين أفلس.

وفي طريق عودتها إلى البيت، أخذ الخوف يسيطر عليها في أن تنام بمفردها في شقتهم وشعرت بالراحة حين شاهدت أمام باب شقتها اثنتين من جاراتها كانتا تنتظرانها لتقضيا الليلة معها. كانت الليلة طويلة جداً لأن الوقت بدا في ذهنها كأنه تجمد تماماً. لم توقف كلتا الجارتين جهودها لتقويتها بأجمل الكلمات، فواحدة منهما كانت مسلمة والثانية كانت مسيحية، ولذا كانت سارة تستمع إلى آيات مختلفة من القرآن ومن الإنجيل لمدة طويلة في تلك الليلة.

والساعة كانت الشيء الآخر الذي لفت انتباه سارة لأنها كانت تصغي إليها بدقة على أمل أن تسمعها تتحرك إلى الخلف وليس إلى الأمام لتشير بأنها قد قررت لزوجها أن يعود قلباً وقالباً كي يتصلح ما انكسر في حياتها. وفي صباح اليوم التالي، كانت سارة متعبة للغاية لأنها لم تنم لأكثر من ساعتين. ولأول مرة اكتشفت بأنه كان ممكناً أن يحس المرء بالتعب وعدم الرغبة في النوم في آن واحد. ودهشت عندما علمت أيضاً بأن عدم رغبتها في النوم كانت تزداد بتعبها.

وقبل ست ساعات تقريباً، تلقت مكالمة من امرأة ذات صوت غريب، قالت بأنها كانت تتصل من سوريا وبأنها ستأتي بابنتها قبل الساعة الثالثة بعد الظهر، وأرادت أن تعطي ماري السماعة كي تتكلم معها ولكنها أقفلت الخط بسرعة، لم ترد أن تسمع صوت ماري، ولولا أنها في حالة مضطربة، لقالت للمرأة بأنها لا تريد أن تراها مجدداً. وعند الساعة السابعة والنصف، زارها أحد سكان المبنى الذي يعمل في الحكومة وطمأنها بأنه سيساعدها للحصول على كافة المستندات المهمة كشهادة الوفاة قبل الساعة الثانية بعد الظهر في اليوم نفسه. شكرته على ذلك في وسط الدموع ولما أخبرته بأنها تنوي نقل جثته للدفن في صور في اليوم نفسه، عرض أيضاً أن يعرّفها على شركة تختص في هذه الأمور. ولما أعطاها فكرة عن التكاليف، دهشت لأنها كانت غالية بعض الشيء، ولكن المال الذي كان موجوداً بالصدفة، أثناء خلع ملابس زوجها، وجدت إحدى الممرضات في المستشفى ظرفاً في جيبه، نفس الظرف الذي استلمه من أبو علي، صاحب المطعم في يوم وفاته، وأعطته لسارة التي كانت محتارة من مصدر هذا الظرف. والآن وبعد حديثها المطوّل مع جارها عن مراسم وتفاصيل دفن جثة زوجها، ارتاحت قليلاً لأن المبلغ كان قادراً على تغطية التكاليف.

وبعد أن رحل ضيفها، قررت أن تبلغ والدتها عما حدث ثم أخبرت أقارب زوجها أيضاً، ولكنها كانت حريصة على عدم البوح لأي كائن بالسبب الحقيقي للأزمة القلبية التي أودت بحياة زوجها لأنها خافت من أن يكون هنالك متطرف من العائلة ويقرر الانتقام من ابنتها أو الشاب الذي هربت معه، وذلك كان من إحدى الأسباب التي جعلتها تقرر بأن لا تأخذ ماري معها إلى صور، فسوف يكون من الصعب جداً لها أن تخفي غضبها الشديد نحو ابنتها عند أهل زوجها.

وفي أثناء تفكيرها، قررت فرح، جارتها، أن تعد لها طعاماً خفيفاً ثم أخذته إلى سريرها وقالت:

«جلبت بعض الطعام لك يا حبيبتي، إنه ليس بكثير لأنني أعرف بأن شهيتك نحو الطعام مسدودة.

من فضلك، حاولي أن تأكلي قليلا منه».

رمقتها سارة بنظرة منكسرة وكأن جارتها كانت تحاول إجبارها على شرب دواء مر، ولكنها استسلمت كي ترضيها ثم قالت:

«كل ما يحدث حالياً يؤلمني جداً، أنا في كابوس يا فرح، وأتمنى أن يأتي أحد ليوقظني منه»، ثم نظرت إليها بعينين متوسلتين وقالت:

«هل بإمكانك أن توقظيني من هذا الكابوس؟».

كانت فرح في منتهى الحيرة لأنها لم تسبق أن وجدت نفسها في مثل هذه المواقف ولم تكن لديها أدنى فكرة عما ينبغي أن تقوله، فهي أصغر من سارة بكثير، أخيراً ابتسمت قبل أن تقول:

«لو أكلت هذا الطعام، أنا متأكدة بأنك ستكونين أحسن».

أحست سارة بخيبة أمل ولكن ذلك لم يمنعها من الأكل كما اقترحت فرح بينما اقتحمتها رغبة في أن يكون أنطوان هو من سيوقظها من الكابوس ليخبرها بأنه كان على وشك اصطحاب ماري إلى المدرسة.

بدأت الذكريات والمشاهد تتسلل إلى ذاكرتها، بدت تلك السنوات لأول مرة كسنوات ذهبية. بعد موت أنطوان، كان من السهل رؤيته الآن كم كان ملاكاً، فهو لم يفعل شيئاً دون أن يفكر أولاً وأخيراً بمصلحتها ومصلحة ابنتها. وإدراكها قيمته الآن جعلها حزينة لدرجة لا تطاق لأنها لم تقدّره حق تقديره عندما كان على قيد الحياة. وأحياناً كانت تعتبره رجلاً أنانياً وحتى إنها كانت تشبّه سلوكه بسلوك جندي في الجيش، وفجأة بدأت تبكي من جديد. ولما حاولت فرح تهدئتها، رمت الأكل والشاي على الأرض وأخذت تصرخ كمن فقدت عقلها.

مرّ الكثير من الوقت قبل أن تصبح حالتها أهدأ وتطلّب ذلك تدخل نرجس، الجارة الثانية التي كانت تمكث معها. وبعد ذلك قالت بأنها تريد أن تنام قليلاً وهكذا تركتاها لوحدها. ولكن سارة لم تنم، فضلت أن تركز تفكيرها على المستقبل. ماذا ستفعل كي تكسب قوتها؟ هل ستبقى في بيروت أو ستنتقل إلى صور للعيش مع والدتها كي تدير مزرعتها؟ وفي وسط كل هذا التفكير، غرقت في نوم عميق.

وعندما أفاقت بعد أقل من نصف ساعة، أخذت تفكر مرة أخرى في مستقبلها وقررت عندئذ أن تسافر إلى الولايات المتحدة برفقة ابنتها كما أراد زوجها المرحوم، ولكنها لن تذهب إلى أطلنطا كما كان يرغب، فهي ستستقر في نيويورك كي تتجنب رؤية صديقه الحميم المقيم في أطلنطا لأن رؤيته ستجعل من الصعب عليها التوقف عن التفكير في زوجها كل ثانية. وفي أثناء كل هذا، طرقت فرح بابها لتعلن بأن فريد، الجار الذي وعد بمساعدتها بالإجراءات كان ينتظرها عند الباب. ارتدت ملابسها وأسرعت إليه مندهشة بأنه جاء أبكر من الموعد المحدد، سلمت عليه ودعته وجلسا في غرفة المعيشة، بدأ فريد الحديث وقال:

«أتمنى أن يساعدك ربنا في تحمل ما حدث يا سيدة إلياس». ابتسمت بصعوبة وأومأت برأسها مقدّرة كلماته.

«صدق من قال بأن الجيران الطيبون أهميتهم لا تقل عن أهمية الأكسجين... أشكرك لطيبتك هذه». ابتسم فيما أخرج بعض المستندات من حقيبته قائلاً:

«هذه كافة الأوراق التي ستحتاجين إليها لدفن زوجك، الإجراءات المبدئية المتعلقة بالورثة»، ثم قال بصيغة مِلؤها التردد:

«ولكن هنالك أمر ما». نظرت إليه سارة بفضول وعصبية ثم سألته:

«ما الأمر؟» تنهّد قبل أن يرد:

«كل ما فعلته كان بإذنك الشفوي فقط ولم يرضي ذلك مديري في المكتب، وأيضاً لم تدفع الحكومة أجر هذه الإجراءات، ولذا أعطاني مديري مهلة حتى نهاية اليوم كي آتي بالنقود وبهذه الرسالة بتوقيعك».

قدّم إليها الرسالة والورقة التي وضّح فيها تكلفة كل الإجراءات قبل أن يضيف:

«أنا أعرف بأنك لست في حالة مناسبة للذهاب إلى البنك وهذا ما يجعلني أشعر بالكثير من الحرج والانزعاج».

قطّبت وجهها ووقّعت على الرسالة وأعطته إياها ثم نظرت إلى الورقة الأخرى قبل أن تقول:

«سوف أعود بعد دقيقة بهذا المبلغ».

أسرعت إلى غرفتها وأخذت النقود من الظرف الذي عثروا عليه في جيب زوجها، وحتى بعد أن سحبت ذلك المبلغ منه، كان ما زال فيه ما سيكفي لنفقات نقل جثته إلى صور ودفنه هناك. رجعت إلى فريد وقالت:

«هذا هو المبلغ المطلوب».

ثم أخذت ورقة وكتبت رسالة إلى الشركة التي ستهتم بنقل جثته بحيث خطت لها الإذن لنقل الجثة لعنوان بيته العائلي في صور قبل أن تقول:

«أرجو منك أن تكلّف الشركة بنقله إلى هذا العنوان فوراً، أنا سأسافر إلى صور الآن وسأدفع للشركة هناك اليوم، شكراً جداً سيد فريد».

قامت لترافقه إلى الباب، كانت مستعجلة لأنها أرادت أن تسافر قبل مجيء ماري. ولكن عندما فتحت الباب لفريد، كانت ماري وكلثوم واقفتين أمامها.

بذل جمال كشوغي كافة جهوده لينام تلك الليلة ولكنه فشل في تحقيق ذلك. كانت هناك الكثير من الأسباب وراء ذلك، فقد يتم استبعاده عن مهنته مثلاً في حال عدم إيجاده حلاً للمصيبة التي سبّبها ماجد. وبالإضافة إلى ذلك، كان يفكر باستمرار بعائلة الفتاة التي هرب معها ابنه ماذا حل بها عندما علمت بالمصيبة؟ حتى لو لم يرزق بالبنات، كانت لديه أخوات بنات ولطالما خاف عليهن، وهذا ما جعله يغلي غيظاً من إسحاق.

عند الساعة الثالثة صباحاً، جلس على السرير. كان يحتاج إلى شخص ليشتكي له ويخفف ما في صدره من هموم، حتى لو كان غريباً. وبدأ عندئذ يشعر بندم مؤلم لأنه سمح لغضبه أن يجعله ينام بعيداً عن زوجته، وهو الآن في أمس الحاجة إلى وجودها قربه كي يمسك بها.

أخيراً نهض ليصلي الليل. ولما بدأ، لم يتوقف وهكذا طارت الساعات حتى صارت الساعة السابعة. خرج ساعتها ليوقظ زوجته ودهش لدى رؤيتها في الصالون مع ابنه وهما يهمسان إلى بعضهما. حدق إليهما قائلاً:

«يبدو كأن النوم أعلن الحرب علينا جميعاً».

كان يحاول أن يتظاهر أمامهم بأنه مرتاح ولكنه كان سهلاً على زوجته أن تقرأ تفاصيل وجهه وتعرف بأنه كان تعيساً للغاية، قامت من كرسيها وذهبت إليه واحتضنته. كان محمود ينظر إليهما مبتسماً لأنه كان قلقاً جداً بالأمس بسبب خلافهما، ولكن عندما طال حضنهما، أحس وكأنه يفترض عليه أن يذكرهما بأمر الرحلة. قام من كرسيه ثم قال:

«يجب علينا أن نبدأ بالتحضيرات لهذا السفر كي نصل إلى دمشق قبل غروب الشمس».

ولأول مرة منذ الأمس، ضحك والداه.

تحوّل بيتهم بعد ذلك إلى مشهد في فيلم رسوم متحركة بحيث أسرع كل منهم بسرعة البرق إلى غرفته ثم ارتدوا ملابسهم وتناولوا الإفطار في لمح البصر، وفعلوا كل ذلك في أقل من عشرين دقيقة. وعند الساعة السابعة والنصف، كانوا في السيارة وبدأ المشوار.

كانت الرحلة طويلة وحزينة، عكس رحلة إسحاق وماري التي لفّها التفاؤل والحيوية. قرّر محمود الذي لطالما تميّز بصوته الجميل أن يتلو القرآن، وتلاه طوال السفر محاولة لتشجيع والديه. وعلى ما يبدو كانت سعاد والدته تحتاج إلى جهود أكثر من والده لأن الدموع ظلت تنهمر على خديها. توقفوا لمرة وحيدة وكانت من أجل تناول الطعام في مطعم في منتصف الطريق وأداء الصلاة أيضاً، ثم واصلوا رحلتهم حتى وصلوا إلى سوريا عند الساعة الرابعة بعد الظهر.

لم يكن من الصعب على الإطلاق لهم أن يعبروا الحدود، وذلك لأن الضباط عند الحدود يحسون بالكثير من الراحة عندما يشاهدون العائلات تعبر، والتقارير والإحصائيات على مدى عدة سنوات أثبتت بأن هذا النوع من المسافرين لا يشكّل أي خطر على سوريا. كان لديهم موعداً مع عماد في بيته عند الساعة الخامسة، ولأنهم كانوا متأخرين، قرّر جمال أن يكلف سائق سيارة أجرة ليأخذهم إلى بيت عماد مباشرة من الحدود. ووصلوا هناك عند الساعة الخامسة والنصف بالضبط. كان هناك الكثير من التوتر لدى كل واحد منهم لأن العرب غير معتادين على مشاركة الناس في مشاكلهم العائلية إلا لو كان ذلك الشخص قريباً لهم، ولم يكن عماد أحد أقاربهم حتى من بعيد. وهكذا اتجهوا إلى باب بيته بالكثير من القلق والتفكير، ولكن قبل أن يطرق جمال الباب، دهش لما فتحه عماد، فهو كان ينظر إليهم من الشباك عندما خرجوا من السيارة.

«أهلا وسهلا جمال، أتمنى بأن الرحلة سارت على ما يرام». صافحه ثم قال:

«نعم، لقد سار كل شيء على ما يرام». ثم قدّم له زوجته وابنه، ابتسم عماد قائلاً:

«تشرفت بمعرفتكما أيضاً. سوف نأكل ثم نخرج سوياً. سآخذكم إلى الفندق».

لم يرغبوا في الأكل ولكنه أصرّ عليهم ولم يترك لهم خيار آخر. شكروه جميعاً وجلسوا يأكلون بسرعة.

ولما انتهوا، سأله جمال السؤال الذي كان في رأسه منذ وقت طويل:

«هل هنالك أي أخبار عن ابني؟».

عرف عماد بأن هذا السؤال سيأتي ولكنه خاف من اللحظة التي يأتي فيها، وذلك لأن الجواب المأساوي الذي كان في جعبته لن يسرهم. وما كان منه إلا أن أومأ برأسه. ولكن بعد أن مرت عدة ثواني قرّر أن يكسر الصمت وقال:

«لقد تم إلقاء القبض على ابنك وماري، الفتاة التي كانت في رفقته عند الحدود لدى دخولهما سوريا. ولكن في الليلة الماضية، أطلق سراح الفتاة و...». قاطعته سعاد عندئذ قائلة:

«ولماذا تم السماح لها بالخروج ولا يزال ابني محبوساً كالكلب؟» تدخّل جمال ساعتها وقال:

«أرجوك أن تعطيه فرصة كي يكمل كلامه، تفضل يا عماد».

«لقد تم السماح للبنت بالخروج لأن لها ظروف استثنائية قليلاً.. فلقد أشفقوا عليها، فهي تبلغ من العمر ثمانية عشرة فقط وثانياً...»، توقف قليلاً قبل أن يتابع كلامه:

«وثانياً قررت إحدى الضابطات أن ترافقها إلى والدتها في بيروت اليوم لأن والدها للأسف مات بعد أن سمع عن حبسها بالأمس».

ساد صمت مطبق بعد أن قال تلك الكلمات. وحتى سعاد لم تستطع أن تدافع عن ابنها على الإطلاق. ولما أصبح الوضع لا يطاق، قرّر جمال أن يخرج قليلاً ليستنشق بعض الهواء. أراد جمال أن يصرخ لكسر الصمت وإيقاظ ما هو فيه، كي يخرج غضبه الشديد، كان يكره ابنه في تلك اللحظة حتى إنه راودته الرغبة في قتله. أخذ يتمشى بلا هدف حتى قرّر الجلوس في سيارته، وشغّل جهاز التكييف واستقر في المقعد الخلفي وعندئذ راودته فكرة أن يترك إسحاق مسجوناً ويرجع بعائلته إلى بيروت على الفور، فإسحاق في نظره يستحق أن يكون في قفص مع نمور وأسود أو ثعابين وعقارب. ظل يفكر هكذا حتى ظهر عماد بجانب السيارة وسأله:

«إذا كنت أنت بهذه الحالة، كيف ستتمكن من أن تساعد بقية أعضاء عائلتك على الصمود؟ فزوجتك تبكي منذ خرجت، تعال كي تهدئ من أعصابها».

أسرع إلى سعاد. ألقى بنفسه في حضنها واعتذر لها لتغيّبه، ثم طمأنها وابنها بأن كل شيء سيكون على ما يرام قبل أن يستدير إلى عماد ليسأله:

«متى يمكنك أن تأخذنا إلى ابني المتهور؟».

لم يكن فريد على علم مسبق بأن ثمة توتر بين سارة وماري ولكنه عندما لاحظ الطريقة التي تميّز نظراتهما لبعضهما البعض، عرف بأن الأمور لم تكن على ما يرام... قرّر أن لا يتدخل في أمر لا يخصه وودّعهما فيما وعد سارة مجدداً بأن جثة زوجها ستصل إلى صور خلال ثلاث ساعات. ولحسن حظ ماري، كانت كلثوم مصممة على عدم التصرف مثل فريد، فهي اتخذت قراراً بالأمس أن لا تترك ماري حتى تتم تسوية الوضع مع والدتها. وهذا ما سهّل عليها تحمّل ظروف الليلة الماضية التي اتسمت بالصعوبة منذ أن تركت مكتبها في منتصف الليل. حتى في السيارة لدى ذهابهما إلى بيتها، لم تتوقف ماري عن البكاء فيما كررت ما قاله إسحاق عن نفسه وأنها تستحق أكبر عذاب لما فعلته.

ولدى عودتها إلى بيتها، أحست كلثوم بالقليل من الراحة عندما اكتشفت بأن ابنتيها كانتا نائمتين، ولو لم يكن كذلك، لكان من الصعب لها أن تشرح لهما حكاية ماري. وكان عدم رغبتها في رؤيتهما أيضاً في الصباح التالي السبب الذي جعلها تقرّر بأنه كان عليهما (هي وماري) الرحيل إلى لبنان عند الساعة الخامسة قبل أن تستفيقا من النوم. تركت لهما رسالة بأنها ستذهب إلى بيروت لأمر يتعلق بالعمل. وفي تلك الليلة لم يسبق لضابطة الجوازات هذه أن عاشت وقتاً مماثلاً من حيث الاضطراب والقلق والإحساس بالذنب الذي شعرت به، لم تنم لأكثر من أربع ساعات متتالية لأن قدميها كانت توجّهاها باستمرار إلى غرفة الضيوف لتتأكد بأن ماري بخير، وبالإضافة إلى ذلك، كانت تتساءل في كل لحظة عما إذا كان والدها سيموت لو كانت هي من اتصلت به.

والآن، بعد الرحلة الطويلة إلى لبنان كانت متسمّرة أمام سارة وقلبها المحطم، ولم تستطع أن تقول شيئاً كأن لسانها قد اختفى. ولكن بعد أن راقبت ماري ووالدتها لبضع دقائق وفي وسط الصمت المميت الذي طافهما، وجدت كلثوم بعض الشجاعة ثم قالت:

«نهارك سعيد يا سيدة إلياس. أرجو أن يعطيك الرب الذي يعبده المسلمون والمسيحيون القوة على تحمّل ما حدث لك، أرجو أن يعطيك أيضاً قدرة الغفران الإلهية لمسامحة هذه الفتاة المسكينة والساذجة للخطأ الكبير الذي ارتكبته في حقك».

ساد الصمت مجدداً فيما ظلت سارة وماري تنظران إلى البعض. أرادت ماري أن تمسك بيد والدتها وتحتضنها ولكن السخط في عيني والدتها هو ما جعلها مترددة وخائفة. استمرت كلثوم بكلامها قائلة:

«أنا أعرف بأن ما أطلبه منك من السهل قوله وفي الوقت نفسه صعب تنفيذه، سأكون غبية لو لم أرَ الأمور كذلك، ولكن بعض الناس تمكنوا من الغفران والتغاضي والتنازل حتى لو كان هؤلاء الناس الاستثنائيون لا يشكلون سوى أقلية مقارنة مع الذين فشلوا في هذه المهمة». أخذت نفساً طويلاً قبل أن تضيف:

«واستناداً لتجربتي لعدة سنوات كضابطة جوازات وتعاملي مع أنواع عديدة من الناس، أشعر عندما أنظر إليك بأن قلبك كبير وسيسهّل لك مسامحة هذه المسكينة».

وبعد ذلك، أحست بأنه ليس هناك داع لقول شيء إضافي. وفي أثناء ذلك، كانتا فرح ونرجس قريبتين وهما تنظران إلى المشهد فيما انهمرت الدموع على خدودهما. وبعد حوالى دقيقتين، حدثت المعجزة التي تمنت كلثوم حدوثها، انسلت سارة بهدوء إلى جانب الباب، تاركة لهما مساحة كافية لدخول الشقة. سبقت كلثوم ماري في الدخول ولكن قبل أن تدخل ماري بشكل كامل، حضنتها والدتها ثم أمسكت بيدها وفي طريقهما إلى الداخل، كانت ماري كقطعة ألماس كبيرة وجدت للتوّ في وسط صحراء جافة وخالية.

«أنا متأكدة من أنكما متعبتان للغاية، والمسافة من سوريا إلى هنا كبيرة جداً».

قررت كلثوم أن ترد عليها لتنتهز الفرصة وتستعمل كلامها لمتابعة جهودها الرامية إلى تسوية الأمر بينهما.

«قد تكون المسافة بين البلدين كبيرة كما قلت، ولكن الحب له قدرة خارقة على تقليل المسافات، ولذا وصلنا إلى هنا في لمح البصر في نظر ابنتك التي تحبك جداً».

بعد أن سمعت كلمات كلثوم، أمسكت بيد ابنتها مجدداً. ثم نظرت إلى كلثوم وسألتها:

«هل بإمكانك أن تخبريني اسمك بالكامل؟».

«اسمي كلثوم الناصر، أنا أرملة مثلك، وأنا أيضاً والدة وفخورة لأن عندي ابنتين جميلتين مثل ابنتك». أثّرت كلماتها على سارة بشكل واضح لأنها جاءت من قلبها، وردّت قائلة:

«لقد سافرت من سوريا برفقة ابنتي والآن ترفعين معنوياتي أيضاً. أنا أؤمن من زمان بأن هنالك أناس خلقوا في أيام خاصة وأنا متأكدة بأنك واحدة منهم يا كلثوم».

نهضت كلثوم عن كرسيها عندئذ وتوجهت إليها ثم جلست بجانبها وقالت:

«أنا معك الآن ولكن ربما لن أكون معك غداً، سأرجع إلى بلدي كي أهتم بعملي وعائلتي ولكن قبل أن أبتعد، هناك شيئ مهم أود أن أقوله، ويجب أن أقوله الآن».

توقفت فيما نظرت إلى فرح ونرجس اللتين فهمتا الرسالة وكانتا على وشك تركهن حتى أوقفتهما سارة وشجّعت كلثوم على متابعة كلامها. أومأت كلثوم برأسها قابلة بوجودهما وأضافت:

«لقد مات زوجك وأنا متأكدة بأنه كان رجلاً طيباً، وأتمنى أن تجتمعا ثانية في الآخرة، ولكن لو ساورتك الرغبة في المستقبل في أن تلقي باللوم على أحد لموته، أرجوك أن تبعدي لومك عن ابنتك لأنها ليست مسؤولة على الإطلاق».

تنهّدت فيما حاولت جاهدة أن توقف دموعها ثم استمرت:

«أنا كنت المسؤولة أولاً، ثم يتحمل زميلي مازن جزءاً من المسؤولية أيضاً»، توقفت ثانيةً فيما أخرجت مجموعة من السجائر من حقيبتها ورمتها أرضاً قبل أن تتابع:

«بسبب إدماني على هذه السجائر اللعينة، أعطيت رقمك لمازن كي يتصل بك لأنني كنت أريد أن أدخن، كم كنت غبية لتلك الدرجة. مع أن الكل يعرف بأن مازن لا يجيد التحدث إلى الناس بسبب لا مبالاته وقسوته. إلقي لومك عليّ إذاً، أنا أستحقه يا مدام إلياس». مرّ بعض الوقت قبل أن ترد سارة لأن كلمات كلثوم هزت كيانها بشكل قوي.

«لن ألوم أحدا من هذه اللحظة، سوف أكتفي بقبول القدر، لا تلومي نفسك». ثم حدّقت إلى ماري بدقة واستطردت قائلة:

«كان والدك يريد لنا حياة جديدة في الولايات المتحدة، ولذا قررت في غيابك أن نهاجر إلى الولايات المتحدة كما أراد... هل لديك أي مانع؟» لم تحتج ماري إلى الوقت للتفكير في سؤالها لأنها لم تعد تبالي بإسحاق، ولقد مات حبها له مع موت والدها. أجابت ماري بنبرة واثقة.

«لا، ليس عندي أي مانع على الإطلاق، أستطيع حتى أن أتبعك إلى غابة مليئة بحيوانات متوحشة». أحست كلثوم بالكثير من الفرح لدى سماع حديثهما وقررت بأن الوقت قد حان لها لرحيلها. نهضت وقالت:

«يجب أن أبدأ مشواري الآن كي أصل إلى سوريا الليلة». عارضتها سارة:

«لا يجوز أن تعودي اليوم وتتعبي نفسك. تعالي معنا إلى صور وبإمكانك الرجوع إلى سوريا من هناك غداً». لم تقتنع كلثوم وقالت.

«شكراً لعرضك السخي وأعدك بأني سأقبله في المستقبل».

قالت ذلك بالرغم من إحساسها القوي بأنها لن ترى أي منهما مجدداً وكانت على صواب. ودّعتاها ثم راقبتاها حتى اختفت سيارتها عند منعطف الحي.

صعدتا إلى الشقة بسرعة، فلم يعد لديهما الوقت لأن الساعة كانت الرابعة بعد الظهر. تحضّرتا لسفرهما في غضون نصف الساعة ثم تناولتا طعاماً أعدّته فرح. ولكن قبل مغادرة البيت، تذكرت سارة شيئاً مهماً للغاية، عليها أن تتصل بسيد وتسون، كي تخبره بأنها سوف تأتي مع ابنتها بعد ثلاثة أيام.

من الخارج، بدا مركز الجوازات حيث سجن إسحاق هناك كأي مبنى شرطة عادي وذلك يرجع لهندسته ولونه الذي يتميز به. ولكنه كان من الواضح بأن المكان يفتقر إلى النظام الذي يوجد في الكثير من مباني الشرطة، لأن معظم الذين يعملون هناك لا يقومون بشيء سوى انتظار الثواني والدقائق والساعات التي ستقرّبهم إلى موعد عودتهم لمنازلهم.

شعر إسحاق بعد مضي بضع ساعات فقط هناك وكأنه أمضى أكثر من قرن، وحتى لو كان من السهل له نسبياً أن يتحمل عدة أشياء سلبية في ذلك المكان كالخبز الجاف والماء الملوّث واضطراره إلى النوم في الزنزانة مع غريبين قذرين، كان من الصعب في الوقت نفسه، وحتى لدرجة شبه مستحيلة أن يتحمل كراهية ماري الجديدة ناحيته، ولم يعرف بعد كيف يتكيف مع خبر وفاة والدها أيضاً. وهذا الأمر جعله يحس كمن تمّ تركه يغرق في بحر بعيد حيث لن يسمع أحد صرخاته.

منذ المرة الأخيرة التي شاهد ماري فيها، أصبح الزمن مثل تمثال في نظره لأنه لا يتحرك، وفي غضون ذلك، بدأ يحس كأنه بات شخصاً بلا وزن أو قيمة، حتى راوده شعور بأن أصغر ريشة لها وزن أكبر منه. والشيء الوحيد الذي فعله بحماس في زنزانته كانت صلواته التي كان يعتبرها الحل للعقدة التي ربطها حول حياته، لم يكن لديه أي خيار سوى البحث عن مسامحة ماري له من خلال الصلاة والدعاء، خصوصاً بعد أن أخبره ضابط قد أشفق على حاله بأن كلثوم ذهبت بماري إلى بيروت. هل كرهته ماري فعلاً؟

سأل نفسه السؤال نفسه مرتين واستنتج بأنها لم تكرهه فقط، بل ستزداد كراهيتها له بمرور الوقت، حتى خطرت بباله تلك اللحظة التي أخبرته فيها بأنه كان هو من دفعها لتخيّب ظن والديها بها، هل فعل ذلك حقاً؟ عندما سأل نفسه ذلك السؤال، خطرت آية قرآنية في باله حيث تفيد بأن الظالمون يلقون اللوم على الشيطان قبل دخولهم النار ولكن الشيطان يدافع عن نفسه قائلاً بأنه ناداهم فعلاً ولكنه لم يجبرهم ليتّبعوا خطواته، ثم أخذ إسحاق يحس كأنه كان الشيطان بنفسه.

وفي أثناء تفكيره، جاء ضابط إليه وأعلمه بوجود ضيوف. كان إسحاق مندهشاً، خصوصاً عندما تذكر بأن مازن قد أخبره بأنه سيقيم عندهم لمدة طويلة ولن يعرف عنه أحد. استبعد وجود أهله على الفور بناء على ذلك لأن مازن على الأرجح لن يخبرهم عن وجوده عنده حتى بعد مرور الكثير من الأيام.

لم يصلا إلى حيث كانا ذاهبين إليه حتى بعد مرور الكثير من الدقائق، وذلك لأن الضابط الذي كان يقوده كان يمشي ببطء شديد. وعند اقترابهما إلى حيث كان ضيوفه موجودين، حدث شيء غريب عند المدخل، قام ضابط آخر بتفتيشه بشكل كامل كأنه كان على وشك مقابلة موظف كبير في الحكومة. هل ينبغي أن يتعرض سجين إلى التفتيش هكذا؟ ظلّ هذا السؤال يشغل بال إسحاق حتى شاهد والدته من الخلف ثم رأى أيضاً أخاه وأباه وغريباً بجانبهم، كانوا يتكلمون إلى بعضهم البعض بهمسات يشوبها قلق واضح، وتسبّب له المشهد بالكثير من الإحساس بالذنب لدرجة أنه أخذ يتراجع دون أن يشعر، لم يودّ أن يروه حتى لاحظ الضابط ما كان يفعله ولفت انتباههم إليه عندما قال له صارخاً:

«تحرّك فقط إلى الأمام يا إسحاق... هيا ولا تتخاذل!».

دهشوا جميعاً لدى سماع اسمه واستداروا ليجدوا أمامهم شاب لم يشبه إسحاق قط. فهو لم يخسر الكثير من الوزن فقط ولكنه خسر أيضاً معظم الأشياء التي كان يتميز بها كجماله المنير وحيويته المتلألئة وراحة باله الفريدة. ولكن أكبر شيء خسره كان براءته، فقد كان أعضاء عائلته يعتبرونه شاباً ظالماً بعد أن سمعوا عن موت والد ماري. مشى جمال نحو ابنه ثم قال:

«أرى بأنك في مكانك الصحيح، حسناَ! كيف حالك يا قليل الأدب؟» رد إسحاق بصوت مرتعش:

«لست بخير على الإطلاق». ثم توجه إلى والدته وطلب منها السماح، كان يتحدث إليها كأنها كانت الوحيدة في المكان مما أغضب والده الذي قاطعه قائلاً:

«لم آتِ إليك كي تتجاهلني هكذا، هل كلامي واضح؟».

رمقه إسحاق بخوف وبدأ يتفوّه بعبارات زادت الوضع سوءاً كما يفعل عادة الناس المندفعون

«سألتني سؤالاً وأجبتك، لو تريد أن تحكم عليّ بالإعدام، تفضّل. لا تحتاج إلى عذر لذلك لأنني أعترف أمام الكل بأنني مجرم لا يستحق حتى أن يدفن بعد إعدامه».

أراد والده أن يجيبه ولكنه تمالك أعصابه، عرف بأنه لو تكلم، سوف يؤدي ذلك إلى المزيد من تدهور الأوضاع. تدخّل عماد عندئذ قائلاً:

«أرجوكم أن تسمحوا للسلام أن يبقى بيننا، دعنا نطبّق المثل الذي يقول بأن ما فات قد مات».

جاء مازن حينها وسمع ما قاله عماد فتدخّل قائلاً:

«مساء الخير جميعاً!» نظر إلى عماد ثم استطرد:

«أنا لا أعرفك ولكنني أوافقك تماماً بما قلته، نحن هنا للحلول وليس للمزيد من المشاكل».

ثم لاحظ بأن الكثير من الضباط كانوا موجودين حولهم كأنهم كانوا يشاهدون فريقاً من السيرك، فصرخ قائلاً:

«ماذا تفعلون هنا؟ هيا إلى مكاتبكم فوراً!».

انصرفوا جميعاً وسط الشكوى. قاد إسحاق وضيوفه إلى غرفة الاجتماعات الصغيرة ثم قدّم نفسه إليهم وطلب منهم أن يفعلوا نفس الشيء بالإضافة إلى الصلة التي تربط كل واحد منهم بإسحاق. بعد ها أخبرهم عن تفاصيل ما حدث منذ الأمس ولكنه لم يخبرهم بأنه كان من اتصل بوالد ماري، ثم نظر إلى جمال بالتحديد وقال:

«سوف يكون من غير العدل لو قررت أن أكون من سيحدد مصير هذا الشاب»، توقف قليلاً ونظر إلى إسحاق واستمر:

«هذا الشاب مذنب بلا شك ولكنه ليس بمجرم في القانون... ولو حاولنا أن ندّعي بأنه مجرم، سنصبح حينها نحن المجرمين».

تنهّد فيما أعطاهم فرصة أن يستوعبوا كلامه ثم نظر إلى جمال وقال:

«كوالد، أحس ما تحسه، خصوصاً لأنني أيضاً، عانيت من الكثير من المشاكل العائلية التي كادت أن تفقدني عقلي يوماً، لو كان لدينا المزيد من الوقت لأخبرتكم عن بعض هذه المشاكل». ثم توقّف للمرة الأخيرة قبل أن ينهي كلامه:

«سيد كشوغي، الكرة في ملعبك، إذا أردت أن ترجع إلى بلادك اليوم مع ابنك، أهلاً وسهلاً ولو أردت أن يبقى هنا معنا لأسبوع كي يتعلم درساً ويتأدّب، ليس عندي مانع».

أحسّت سعاد بالرعب من كلامه وأرادت أن تقول شيئاً ولكن زوجها سبقها قائلاً:

«أريده أن يبقى معكم لأسبوع».

ثم نظر حوله وأشار إلى عدة أركان في الغرفة قائلاً:

«ولكن لا تتركوه يجلس في زنزانته فقط، دعوه ينظف كل ركن في هذا المبنى، يجب أن يعمل عملاً شاقاً جداً، هل بإمكانك أن تنفّذ هذا الطلب؟».

ظهرت ابتسامة شريرة على وجه مازن لأن ما قاله جمال كان ما أراد أن يفعله، ولكنه دهش لركوع سعاد أمامه قائلة:

«أرجوك لا تطيع كلام زوجي، أعطني ابني، حملته في بطني تسعة أشهر وأعرف كيف أصلح سلوكه، حتى أنت ستكون فخوراً به عندما تراه مجدداً».

أغضب ما فعلته زوجها جداً وكان على وشك أن يصفعها ولكن مازن أوقفه قائلاً:

«سأبقيه لثلاثة أيام فقط، الحل الوسط الذي سيرضي الجميع، ثلاثة أيام فقط».

وافق جمال متردداً ثم وافقت سعاد بعد أن رجاها كل فرد هناك ما عدا زوجها وإسحاق وكتب جمال على ورقة عنوانه ورقم التلفون ثم أعطاها لمازن قائلاً:

«كنت غريباً ولكنك الآن صرت أخاً. من فضلك، فلنبق على اتصال».

أومأ مازن موافقاً ثم أعطاه بطاقته. استدار جمال وقال لإسحاق:

«جئت هنا بلا عائلتك وعليك أن ترجع بدونهم أيضاً».

ثم قاد بقية عائلته وعماد إلى الخارج دون أن ينظر إلى الوراء.

كان الصمت المطبق رفيق الطريق إلى صور، وكانت سارة تقل ماري في السيارة نفسها التي كان أنطوان يقلهما بها إلى كل مكان، ولذلك كان من السهل عليهما تخيل وجوده معهما في تلك الرحلة... حتى رائحته التي ملأت السيارة جعلتهما تحسان كمن كاد أن يمسك بشيء جميل وثمين، ولكن قبل بلوغه يختفي ذلك الشيء لأنه لم يكن سوى سراب. قضت ماري أول ساعة تقرأ الإنجيل بخشوع تام كأنها كانت راهبة. ولكن بعد مرور بعض الوقت، أحست برغبة قوية في أن تجري حواراً واختارت الولايات المتحدة كموضوع كي تركّز عليه.

«أين تريدين أن نستقر في الولايات المتحدة يا أمي؟».

لم تكن سارة متحمسة لذلك السؤال،لذا فضّلت أن تبقى صامتة وهي تسترجع الماضي ولكنها عرفت بأنه كان عليها أن تجيب ابنتها كي لا تحس بأنهالم تسامحها بعد، فهي القائدة في عائلتها الآن، ولا يأتي ذلك المنصب إلا بالتضحيات.

«سنعيش في نيويورك، أنشط ولاية في الولايات المتحدة لأنه سيكون من السهل عليّ أن أكسب قوتي هناك بسبب الفرص الكثيرة والذهبية هناك. أظن بأن الفشل في نيويورك أصعب شيء في الدنيا».

تكلمت سارة بكثير من الحزن وأجبرت نفسها أن تبتسم عندما أنهت كلامها، ولكن ماري تحفظت بشأن ما قالته أمها للتو وقررت أن لا تخفيها.

«إنه من الجميل أن تملك نيويورك الكثير من الفرص كما ذكرت ولكنني مترددة بعض الشيء في الذهاب هناك لأنه ليس المكان الذي كان بابا دوماً يحكي عنه... والمكان الذي لطالما كان يتكلم عنه له اسم مختلف».

توقفت قليلاً فيما حاولت أن تتذكر اسم المكان، وصارت ملامحها جادة لدرجة أخذت تشبه عيون الصيادين عند الصيد. أخيراً تذكّرت:

«اسمه أطلنطا... أتساءل الآن عما إذا كان هذا الاسم اسم العاصمة أو اسم الولاية، ولكن لم يكن ذلك الشيء بالمهم عندما كان بابا يتحدّث عن ذلك المكان، كان يركّز على أشجار ذلك المكان، منتزهاته وسكانه... قال بأن الكثير من السكان سود، وقال أيضاً بأن هناك مكان يصدح دوماً بموسيقى جميلة في كل أنحاء أطلنطا... نسيت اسم ذلك النوع من الموسيقى ولكن صديقه كان دائماً يذكر اسمه في رسائله... ألا تتذكرين هذه التفاصيل يا ماما؟» دهشت سارة لاندفاع ماري وإصرارها، ثم قالت:

«أتذكّر كل ما قلته، كيف لي أن أنسى؟ وبالنسبة إلى الموسيقى التي تكلمت عنها، اسمها الجاز. كانت تلك الرسائل دائماً ما تجعلنا نشعر بأننا نعيش في الولايات المتحده ونحن نقرأ سطورها، ولكنني لم أستغرب على الإطلاق بأن صديق والدك كان يستطيع أن يجعلنا نحس بذلك من خلال رسائله».

«ولماذا لم تستغربي؟».

«كنت أعرفه قبل هجرته إلى الولايات المتحدة، هو ووالدك كانا صديقين حميمين منذ الطفولة، ولما قرّر والدك أن يصبح طباخاً، قرّر هو أن يصبح كاتباً. وهاجر إلى الولايات المتحدة قبل خمس سنوات حيث أصبح كاتباً عظيماً، لذلك كان دوماً من السهل عليه جعلنا نتخيل أطلنطا من خلال ما كان يكتبه فقط».

«فهمت، يا لعبقريته الفظيعة!».

قالت ماري تلك الكلمات بكثير من الفضول ولكن قبل أن تتابع حديثها، قاطعتها والدتها:

«وهذا ما كنت أريد أن أقوله لك، النقطة التي أحببت أن أوضحها لك، فسيكون شبه مستحيل أن أعيش بعد والدك لو ذهبت إلى الولاية التي يوجد فيها ذلك الصديق، فهو سيتكلم عنه طوال الوقت ولن أتوقف عن الإحساس بالحزن والتعاسة، حتى مجرد النظر إلى ذلك الرجل سيعيد لي ذكريات ستكون لها عواقب كارثية».

فجأة توقّفت سارة عن الكلام حين لاحظت بأنها كانت تبكي مجدداً، نظرت إليها ماري بخوف قبل أن تقول بصوت مرتجف:

«أنا أفهم موقفك الآن وأقبله بالكامل، لم أختلف معك حتى اللحظة... أنا مستعدة للذهاب معك إلى أي مكان بدون نقاش»، فجأة بدأت تبكي أيضاً قبل أن تضيف:

«أنا متأسفة لكل ما سببته لك من ألم و...» ولكن والدتها منعتها من أن تكمل ما قالته:

«لا تعتذري مجدداً، لقد فعلت ذلك قبل سفرنا هذا». ثم مسحت دموع ابنتها بيدها وقالت:

«وبالإضافة إلى ذلك، كنت معي عندما وعدت كلثوم بأنني لن ألوم أحد على ما حدث وسأراه كشيء حدّده القدر».

كانت جادة بتلك الكلمات، أرادت أن تقلّد زوجها لأنه لم يعرف أبداً معنى الضغينة أو الحقد... فهو مثلاً كان يعتني بكافة حاجات زوجة والده بالرغم من كونها هي من زرعت الكراهية في قلب والده نحوه في الماضي. وكانت سارة متأكدة بأنه لو عاش تجربة هروب ابنتيهما، لرحّب بها لدى رجوعها من سوريا كأنها كانت ترجع من رحلة مدرسية.

وفجأة لاحظت سارة بأنهما كانتا قريبتين جداً من صور، قررت عندئذ أن تفعل شيئاً لطالما كرهت فعله... كان عليها أن تكذب.

«اسمعي يا ماري لأن ما سأقوله لك الآن في منتهى الأهمية. ذكرت لعائلة والدك وحتى أمي بأن والدك كان لديه حالة اضطراب في الآونة الأخيرة نتيجة أزمته السابقة، وكان يشتكي باستمرار ولكنه رفض الذهاب إلى المستشفى حتى نذهب إلى الولايات المتحدة. مرض لبعض الوقت، وقلت لهم بأنني أخفيت ذلك عنك».

توقفت قليلاً وتأملت وجه ابنتها التي كانت تحاول إخفاء حيرتها، ثم بررت ما فعلته قائلة:

«حتى أنا لا أعرف لماذا أحسست بضرورة الكذب، ربما كان نتيجة خوفي عليك، أنت شابة ولست في حاجة إلى أعداء على الإطلاق».

كانت سارة تتكلم بصعوبة كمن تحاول أن ترفع حجراً كبيراً عن صدرها، وكانت ماري تحدّق إليها بينما أومأت برأسها موافقة لما تقوله باستمرار ثم قالت ماري:

«كل ما قلتيه منطقي، وأنا سوف أخبرهم الشيء نفسه لو سألوني».

هكذا أنهت تلك الكلمات حديثهما طوال ما تبقى من الرحلة.

لدى وصولهما إلى صور، توجهت سارة إلى بيت والدتها الذي كان مكتظاً بالناس الذين هرعوا لمواساتها عندما سمعوا الخبر. وعندما رأت والدتها، احتضنتها وانضمت ماري إليهما كالحضن الذي جمعها ووالديها في يوم عيد ميلادها الأخير في مطعم «فلمنجو»، لقد حدث الكثير من الأشياء بعد ذلك اليوم.

لم تلبث أن أخذت سارة تشكر كل الضيوف على حضورهم، كانت تعرف معظمهم لأن المنطقة صغيرة للغاية وكل أهلها يعرفون بعضهم البعض، ولو حصل شيء لعائلة ما، سيكون كأنه حدث للمنطقة كلها، ولذلك انتشر خبر وفاة أنطوان كالبرق، حتى المراسم المتعلّقة بدفنه كانت معروفة للكل. سيكون الدفن في أكبر كنيسة بعد ساعة. أخوه الكبير هو الذي قام بكل الترتيبات ولم تبد سارة أي اعتراض لأنها تحترمه جداً.

ذهبت إلى الكنيسة باكراً برفقة ماري ووالدتها بعد نصف ساعة كي ترحب بالمعزّين. بدأت المراسم بسرعة. وكان على سارة أن تلقي الخطاب الأول بحيث عبّرت عن تقديرها لكافة الحاضرين ثم بدأ القسيس يتكلم عن زوجها، وتعلمت من خطابه الكثير من الأشياء عنه والتي كانت تجهلها، فقد كان فعلاً بطلاً من خلال أخلاقه وأفعاله الخيرية، لم تعرف مثلاً بأنه رغم قلة المال لديه، كان هو من قام بتمويل بعض الإصلاحات التي تم إجراؤها في الكنيسة في الآونة الأخيرة. ثم دفن أنطوان إلياس في وسط دموع غفيرة في بيت عائلته، لم تدم المراسم لأكثر من نصف ساعة وعندما انتهى، تأكدت سارة أخيراً بأن زوجها لن يعود أبداً.

وبعد ذلك، توجهوا إلى المجلس الرئيسي في بيت العائلة حيث تقبّل التعازي. جلست ماري في ركن منعزل بجانب جدتها وهي تقرأ الإنجيل في أغلب الأوقات.

أمضت سارة ساعتين إضافيتين مع إخوان زوجها، أخبرتهم جميعاً عن رغبتها في الذهاب إلى الولايات المتحدة كما أراد زوجها، وقالت بأنها ستذهب إلى القاهرة في اليوم التالي ولو حصلت على التأشيرة، ستهاجر إلى نيويورك فوراً. تمنوا لها كل خير فيما ظلت والدتها صامتة كأنها لم تكن تستمع إليها. ولدى العودة إلى بيت أمها، دهشت سارة مما قالته والدتها:

«عليك أن تنامي الآن لأنك بحاجة إلى الراحة، أنت وابنتك. أما بالنسبة إلي، فلدي عمل كثير». رمقتها سارة في حيرة ثم سألتها:

«أي عمل؟» تنهّدت أمها ثم أجابت:

«هل سنذهب أولاً إلى نيويورك أو إلى القاهرة؟».

23

لم يسبق لإسحاق أن قام بعمل شاق كما فعل أثناء سجنه في مكتب الجوازات، فقد أحس بأنه تحوّل إلى عبدٍ تماماً.بعد صلاة الفجر عند الساعة الخامسة يبدأ عمله بتنظيف كل السيارات الموجودة في المبنى، وكانت قائمة السيارات تشمل أيضاً السيارات التي لم ينبغ أن تتواجد هناك أصلاً، ولكن تم ركنها من قبل بعض الأشخاص الذين لا يعملون لقاء تقديم رشوة إلى بعض الضباط. وبعد ذلك ينتقل إلى الحمامات حيث يقوم بتنظيفها بالكامل، وكان ذلك أصعب بكثير من تنظيف السيارات وجعله يكره نفسه بسبب الذل، خصوصاً عندما يتعرّض إلى النظرات الساخرة التي كان يراها في وجوه الكل.

وأول وجبة تأتيه بعد ذلك، وكان يأكلها كل يوم - الخبز الجاف والماء مع الرائحة التي لا تطاق، لولا جوعه المهلك لما أكل هناك على الإطلاق، وعلى رأي المثل الإنكليزي (المتسول ليس له خيار).

كانوا يتركونه بعدها لمدة ساعة على الأقل فينتهز تلك الفرصة لينام حتى يوقظه رجل يسمى مصطفى تم تعيينه من قبل مازن ليشرف على المرحلة الثانية لهذا البرنامج التأديبي الذي صممه من أجل إسحاق.

ظهور مصطفى يومياً كان دوماً يتميز بطرح مجموعة من الأسئلة المزعجة على إسحاق.

«لماذا لم تنظّف سيارة السيد صالح جيداً؟ لماذا تنظر إليّ هكذا؟ لماذا تتكبّر أمامي؟ ماذا أفسدت في حمام شادي؟ هل تحاول أن تشتمني بعينيك؟».

لم يعرف إسحاق معظم الأشخاص الذين كان يذكر أسماءهم، ولم ينل أبداً فرصة ليجيب، وبمرور الوقت، استنتج بأن إجاباته لم تهمّ مصطفى على الإطلاق، كل ما أراد فعله كان أن يخيفه ويقلقه قبل أن يعطيه واجبات أخرى.

مرّ الكثير من الثواني والدقائق والساعات دون أن يعرف إسحاق ذلك لأنه فقد اهتمامه بالوقت في ذلك المكان، كان يشعر كأنه بات رجلاً ضائعاً في الفضاء وبلا أمل، حتى وهو يعمل، كان يحس كأنه كانت لديه يدان مصنوعتان من الحديد. وعند ذهابه إلى أي مكان، يشعر بأن رجلين من الخشب هما اللتين كانت تحملاه. ولكنه وسط كل التغيّرات، كان هنالك تطوّر غريب، لاحظ فجأة بأن حبه لماري كان يزداد بشكل سريع وعجيب.

لم يدرك إن كان السبب متعلقاً بإحساسه بالذنب، ومهما كان السبب، لم ترضه هذه الحقيقة، خصوصاً عندما يتذكر حجم كراهيتها له ومدى صعوبة كسب قلبها مجدداً. وحتى إنه قال لنفسه يوماً بأنه أسهل للشيطان أن يبني قصراً في الجنة من أن تحبه ماري ثانيةً. وفي مساء الليلة الأخيرة التي قضاها هناك، أيقظه صوت مألوف من نوم عميق، كان مازن مرتدياً جلابية سوداء. فتح باب الزنزانة ثم قال:

«سوف ترحل قريباً، هل لديك أصدقاء جدد هنا؟» نظر إليه إسحاق بارتباك، هزّ كتفيه ثم قال:

«مساء الخير يا سيدي. ليس عندي أصدقاء جدد هنا، والكثير من الناس لا يتحدثون إلي، ولكنني متأكد بأن المنظفين سيشتاقون لي بعد ذهابي».

كان صوته مملوءاً بالمرارة والحقد، فهو لم يسامح مازن بعد، وكان دائماً يتساءل عما إذا كان سيحدث شيء لو سمح هذا الرجل له أن يدخل سوريا مع ماري في تلك الليلة.

«تعال معي، عندك ضيف».

نهض إسحاق ومشى وراءه على طول الممر حتى وصلا إلى غرفة على اليمين، كان عماد في انتظاره في الداخل.

«مساء الخير سيدي!».

لم يعرف إسحاق اسمه ولكنه تذكّر بأنه كان برفقة أعضاء عائلته لدى زيارتهم له قبل عدة أيام.

«كيف حالك إسحاق؟ اسمي عماد».

حثّه عماد أن يجلس على الكرسي الخالي بجانبه ولكنه رفض بهدوء ثم عرض إسحاق الكرسي على مازن ولكنه رفض وتوجّه إلى الباب قائلاً لدى خروجه:

«خذ وقتك معه، إلى اللقاء يا سيدي».

كان على عجل فيما تجنب النظر إلى عيني إسحاق متعمِّدا، ولقد أخبره صوت من داخله عندما عرض عليه إسحاق الكرسي بأنه شاب طيب، ولأول مرة تمنى في قرارة قلبه لو لم يلق القبض عليه في تلك الليلة السوداء. وهذا الإحساس بالذنب هو الذي جعله يرجع إلى البيت مبكراً في نفس الليلة وأن يأتي إلى المكتب متأخراً في اليوم التالي كي لا يكون مضطراً إلى رؤية إسحاق مجدداً قبل مغادرته. وبعد خروجه، جلس إسحاق بجانب عماد. كان محتاراً لأنه لم تكن لديه أدنى فكرة عن السبب وراء الزيارة. ابتسم عماد إليه ثم سأله:

«لم تجب عن سؤالي بعد، كيف تسير أمورك هنا؟».

أراد أن يرد ولكنه لم يستطع، فهو كان يحس وكأن جسمه كان بلا حياة، لاحظ عماد بأن أموره لم تكن على ما يرام ثم استطرد قائلاً:

«اسمع يا شاب، كل إنسان يخطئ، هذا ليس بالمهم، والمهم هو ما نفعله بعد هذه الأخطاء. ولقد أثبت الزمن أن الخطأ أمر لا بد منه وأن يحس المرء بعده بتغيّر للأفضل وتحسّن». شعر فجأة بأن إسحاق كان يشك في كلامه.

«إذا كنت لا تصدقني، انظر إلى الأمور بنفسك، اختر أي رئيس ناجح مثلاً وسوف ترى بنفسك بأنه استطاع أن ينجح فقط بعد أن تعلّم من أخطائه. وهكذا أصبحت الأخطاء تشكّل جزءاً كبيراً في حرب الإنسان من أجل البقاء في عالم متطلب».

توقف عماد فجأة، كانت هناك علامات تشير إلى أن إسحاق كان على وشك قول شيء، تطلّب ذلك أكثر من دقيقة ولكنه أخيراً تفوّه بأمر ما:

«إن تعليقاتك منطقية للغاية يا سيدي ولكن هناك نقطة قد فاتت انتباهك في رأيي، والخطأ الذي قمت به نتجت عنه وفاة، وهذه الحقيقة للأسف غير قابلة للتغيير». تنهّد تنهيدة طويلة ثم استمر:

«هناك والدة وابنة تكافحان الآن لمواجهة واقعهما المر والجديد الذي تجسد في فقدانهما رب بيتهما، وأنا كنت السبب».

رمقه عماد بحدة، عرف بأن إسحاق كان على صواب في كل ما قاله، قرّر عندئذ أن يعالج الموضوع من ناحية أخرى قائلاً:

«وبالنسبة إلى الألم الذي تشعر به البنت ووالدتها، ماذا تنوي أن تعمل لتخفيفه؟» تردد إسحاق كثيراً، فقد طرح على نفسه السؤال عينه مرات لا تحصى، وفي كل مرة كان يحس بأن الإجابة كانت تبتعد عنه أكثر وأكثر.

«لا أعرف سيد عماد. على فكرة سؤالك هذا يجعلك بمثابة من يسأل غريقاً فيما إذا كان يستطيع السباحة وهو يغرق». توقف قليلاً ثم تابع كلامه:

«ولكنني أظن بأن خطوتي الأولى لدى وصولي إلى بيروت غداً ستكون أن أقنع والدتي أن

ترافقني إلى بيت ماري لطلب غفرانها ووالدتها لما بدر مني من تهوّر». أعجبت الفكرة عماد كثيراً وتمنى لدى سماعها لو كان لديه الوقت ليرافقه أيضاً إلى بيت ماري.

«إن هذه الفكرة جيدة، ولو فعلت ذلك، سوف يبدأ الصلح فوراً، ولكن عليك أن تكون صبوراً لأن جروح كهذه تحتاج إلى الوقت لتبرأ، وهناك حاجة إلى جهود مستمرة أيضاً». أحس إسحاق بالفرج إثر كلام عماد الذي كان يتكلم بنبرة وثقة خبيراً في العلوم النفسية، وقرّر أن يعترف له بشيء:

«أنا لا أزال أحب ماري، والغريب في الأمر هو أن درجة حبي لها ازدادت في اليومين الماضيين، وأتمنى أن أتزوّج بها بإذن الله بعد مرور الكثير من الوقت طبعاً».

ذهل عماد من كلامه، وحتى إسحاق دهش بتفاؤله الجديد. ربما كان نتيجة معاملته الطيبة. ظلّ عماد صامتاً لبرهة، لم يرد أن يعلّق على ما قاله لأنه خاف من أن يغضبه، ولكنه تكلّم أخيراً، فهو لطالما يؤمن بالمنطق الذي يقول بأن الحقيقة المرة تفيد أكثر بكثير من الكذب الحلو.

«بالنسبة إلى رغبتك في أن تتزوج بالفتاة، أنصحك أن تلغيها من رأسك لأن الكارثة التي حدثت لن تسمح لكما أن تكوّنا عائلة سعيدة».

كانت كلماته بمثابة قنبلة نووية على رأس إسحاق الذي توقّع منه التشجيع، وكانت خيبة أمله واضحة جداً على وجهه. ونهض صارخاً:

«أمثالكم هم الذين أجبرونا على فعل ما فعلناه، أشعرتمونا بتعليقاتكم السخيفة كأن أحلامنا كانت أمام طريق مسدود، ولذلك قررنا الابتعاد عنكم». كان تنفّسه سريعاً وعالياً ثم أردف قائلاً.

«أشكرك للنصيحة ولكنني لا أحتاج إليها».

حاول عماد أن يهدئ من أعصابه ولكنه لم يعطه فرصة، خرج من الغرفة غاضباً وراكضاً كمن كان يهرب من مجموعة عفاريت.

24

3 ديسمبر 1974

بعد أن أخبرتها والدتها بأنها سترافقها إلى الولايات المتحدة، أحست سارة كمن اكتشفت للتو بأنه لديها قدرات خارقة، وكانت من السهل رؤية ذلك من خلال الطريقة العجيبة التي أخذت ترتب بها أغراض والدتها وبسرعة قياسية. كان منظراً مثيراً للاهتمام جداً لماري التي استفاقت من النوم وظلت تراقبها بقوة وحيوية تفوق قوة رجلين. وفي غضون ذلك، خرجت والدتها لتودع الجيران.

وحوالى الساعة السابعة في مساء اليوم نفسه الذي شهد دفن أنطوان إلياس، أكملت سارة تجهيز والدتها للسفر ونظفت أيضاً بيتها، ثم قررت الإتصال بمنزل السيد وتسون في القاهرة. اجتاحها التوتر المألوف الذي تحس به دوماً عندما تكون على وشك التحدث باللغة الإنكليزية.

«مساء الخير يا سيد وتسون».

بالرغم من أن الخط كان ضعيفاً، عرف صوتها لأنها اتصلت به قبل يوم وكان يتوقع اتصالاً منها.

«كيف حالك وحال ماري؟».

عرف الكثير عن ماري، حتى إنه كان على علم بعمرها واسم مدرستها لأنه وضع كل هذه المعلومات قبل عدة ساعات في استمارتها للتأشيرة مستنداً إلى الرسالة بالتفاصيل التي أرسلها أنطوان إليه صباح يوم وفاته.

«هي بخير يا سيد وتسون ولكن هناك أمراً جديداً».

كان يبذل كافة جهوده الآن ليفهم الإنكليزية الركيكة التي كانت تتكلم بها. وبالرغم من أنه يفهم اللغة العربية جيداً، أرادها أن تعتاد على استعمال اللغة الإنكليزية من الآن.

«أنا آسف يا سيدة إلياس، هل تقصدين بأن هناك تطوراً جديداً؟» تكلم بنبرة عالية وببطء كي تفهمه بسهولة.

«نعم يا سيدي. والدتي تود مرافقتي إلى الولايات المتحدة كي لا أكون لوحدي مع ابنتي هناك بعد وفاة زوجي، هل يمكنك أن تساعدها أيضاً للحصول على تأشيرة؟».

غضب وتسون لدى سماع طلبها لأنه فكر بأنها تحاول استغلال كرمه، ولكن هدّأ من أعصابه حين تذكر بأن المرأة التي على الخط أصبحت أرملة قبل يومين فقط، وردّ عليها قائلاً:

«سوف أساعدك، ولكن لن أقبل بأي تغييرات بعد هذا».

لم تفهم ما قاله بالضبط ولكنها استطاعت أن تستخرج حقيقتين مهمتين وهما أنه وافق على تلبية طلبها وأنه كان غاضباً جداً».

«أنا متأسفة جداً وشكراً لتفهّمك». تنهّد ثم سألها بسرعة:

«ما اسم والدتك وما هو رقم جواز سفرها؟».

أخذت سارة جواز سفر والدتها الذي كان على المائدة بجوارها وفتحته قائلة:

«اسمها نبيلة شحروري ورقم جواز سفرها 21354».

توقفت قليلاً كي تعطيه فرصة ليكتب ما قالته ثم أضافت:

«أنا متأسفة جداً على الإزعاج». تبخّر غضبه عندئذ وقال:

«ولا يهمك، متى ستأتون إلى القاهرة؟».

«سنأتي غداً بعد اليوم... أقصد في اليوم بعد غد».

ضحك وتسون بشدة إثر كلامها مما جعلها تبتسم لأنها أضحكته ثم قال:

«ذلك اليوم سيشهد يومي الأخير في القاهرة وسيشهد يوم حظك الأكبر، إلى اللقاء سيدة إلياس».

هكذا أقفل الخط بهدوء ثم نهضت سارة باحثة عن والدتها وابنتها لتخبرهما بهذه الأخبار المفرحة.

«يا ماما، مبروك! تكلمت للتو مع الرجل الذي يساعدنا بالتأشيرات الأميركية وأكد لي بأنه سيساعدك أيضاً للحصول على تأشيرة».

كانت والدتها محتارة لأنها لم تظن للحظة بأنها ستواجه أي صعوبة في الحصول على تأشيرة.

«هل كان هناك احتمال بأنني لن أحصل عليها من قبل؟».

سألت ابنتها هذا السؤال بسذاجة. لم تجب سارة مباشرة لكنها أمسكت بيدها فيما قادتها إلى الشرفة قبل أن تقول:

«يظهر بأنك لا تعرفين بأن حوالى مليون شخص يريدون الدخول إلى الولايات المتحدة يومياً، حتى إن بعض الناس ينامون خارج السفارة كي لا يصلوا إليها متأخرين عن موعدهم في اليوم التالي». دهشت والدتها وسألت في ارتباك:

«هل يظن هؤلاء الناس بأن الولايات المتحدة بمثابة الجنة؟ لماذا يحبون ذلك البلد هكذا؟».

لم تعرف سارة كيف ترد على سؤالها الصعب ونظرت إلى ماري مستنجدة مما جعلها تتدخل قائلة:

«يا جدتي، الناس يحبون الولايات المتحدة لعدة أسباب، أبرزها كان الدور الذي لعبته في الحرب العالمية الثانية وهي التي أنقذت العالم من هتلر، القائد الألماني المستبد».

توقفت فيما جرت كرسيها إلى كرسي جدتها واستطردت قائلة:

«وبعد نهاية الحرب، هي أيضاً التي ساعدت في إعادة بناء ألمانيا من خلال خطة تخص مارشل بلان Marshall Plan».

بينما كانت سارة فخورة بمدى ثقافة ماري، كانت جدتها محتارة:

«يا حفيدتي، قصتك للأسف ليست منطقية، كيف أنقذت الولايات المتحدة العالم من ألمانيا ثم تعيد بناء البلاد نفسها، من يساعد عدوه؟».

كانت ماري محتارة ولم تعرف الإجابة لأنها تعلمت هذه الأحداث دون أن تسأل عن الأسباب. أنقذتها والدتها حين قالت:

«سؤالك الثاني هو الجواب لسؤالك الأول، لماذا الناس يحبون الولايات المتحدة لهذه الدرجة؟ لأنها البلد التي تعطي كافة الدول، حتى البلدان التي حاربت ضدها مما جعلها أعظم بلد بكل المقاييس».

سكتت والدتها كأنها كانت تحاول أن تتخذ قراراً ثم نهضت فجأة وقالت:

«لو الأمر كذلك، أنا أيضاً أحب الولايات المتحدة، لقد كسبت قلبي... دعونا الآن نذهب لننام لأن برنامجنا غداً سيكون طويلاً ومكثفاً».

استفاقت سارة أولاً حوالى الساعة الرابعة صباحاً واستحمت، وبحلول الساعة الخامسة، كن في طريقهن إلى بيروت ولكنهن أخذن نبيهة، بنت خالة ماري التي تكبرها بسبع سنوات، لأن والدتها قررت أن تجعلها المسؤولة عن بيتها ومزرعتها، وقررت سارة أيضاً أن تسلّمها مفتاح شقتها وسيارتها بعد سفرهن.

وصلن إلى بيروت وضّبن أغراضهن في أقل من ساعة ثم ودّعنا الجيران قبل الذهاب إلى المحطة. وصلن قبل الساعة السادسة، كانت المحطة نفسها التي غادرا إسحاق وماري منها إلى سوريا. أعادت عودة ماري إليها الكثير من الذكريات التي أرادت التخلص منها، فهي كانت لا زالت تكره إسحاق بشدة، ولذلك أحست بالفرج عند انطلاق الأوتوبيس إلى مصر بعد نصف ساعة.

á á á

لو وصلت ماري إلى المحطة قبل ساعة، ربما لقابلت إسحاق الذي رجع من سوريا في ذلك الوقت. ولو حصل ذلك، لكان من الصعب لها أن تعرفه من النظرة الأولى لأنه قد تغيّر كثيراً.

لم يذهب إسحاق إلى البيت مباشرة من المحطة، بل اتصل بوالدته من هاتف عام وأقنعها أن تقابله قريباً من بيت ماري مهدداً بأنها لن تراه مجدداً في حالة رفضها. وافقت تحت الضغط.

لدى رؤيتها، تبادلا التحيات والقبلات ثم توجها إلى شقة ماري، كان يعرف المكان. ولدى وصولهما، أخذ يطرق على الباب من دون جدوى حتى ظهرت نرجس من ورائهما.

«عمن تبحثان؟» رد إسحاق قائلاً:

«نبحث عن ماري إلياس». ولكن قاطعته والدته قائلة:

«هو يقصد بأننا نبحث عن والدتها». ثم قالت نرجس:

«لقد سافرتا إلى مصر». ارتبك إسحاق قائلاً:

«لماذا؟» تدخلت والدته مجدداً قائلة:

«هو يقصد متى سترجعان؟» لم تعجب الأسئلة نرجس التي ردت قائلة:

«لا أعرف، سوف تهاجران من مصر إلى الولايات المتحدة وربما لن ترجعا لعدة سنوات». كانت إجابتها مثل الصخرة التي وقعت على رأس إسحاق. أخذ يتحرّك إلى الوراء بسرعة كأنه فقد عقله دون أن ينظر إلى السلالم وراءه، فسقط ثم ضرب رأسه الرصيف.

25

6 ديسمبر 1974

بدت القاهرة مزدهرة جداً في ذلك الصباح الذي شهد دخول الأوتوبيس الذي كان يقل ماري وسارة والسيدة نبيلة إلى محطتها الكبرى، كأن المدينة كانت ترحب بهن. كانت الساعة السادسة عندئذ وكانت ماري الوحيدة التي لم تكن نائمة.

كان من السهل لهن أن ينمن منذ بداية الرحلة من بيروت إلى القاهرة لأنهن كن مرهقات جداً بعد السفر من صور إلى بيروت في اليوم نفسه، ولكن كابوسين تسببا في استيقاظ ماري مبكراً عند الساعة الثانية بعد منتصف الليل.

في كابوسها الأول، تم طردها ووالدتها من المطار في الولايات المتحدة إلى بيروت في ظروف مماثلة لما حدث لها وإسحاق لدى هروبهما إلى سوريا. وفي كابوسها الثاني، كانت تجلس على كرسي مصنوع من الخشب بجوار سرير والدها في مستشفى ما، وكانت تترجاه أن يسامحها ولكنه رفض طلبها قائلاً «أنا لا أعرفك... لا... أظن بأنه عليك أن ترحلي». وعندما استفاقت، أخذت تبكي بهدوء لأن الكابوسين بديا واقعيين للغاية.

وبعد ذلك وقبل وصولهن إلى القاهرة، كان لدى ماري الكثير من الوقت لتفكر في مستقبلها. كانت تعرف الكثير عن الولايات المتحدة من الكتب التي قرأتها والبرامج التي شاهدتها في التلفاز، ولكن الشيء الذي كان أكثر التصاقاً في رأسها مما عرفته عن الولايات المتحدة كانت الكلمات التي لطالما كانت تستخدمها إحدى مدرساتها في وصف الولايات المتحدة «يا بنات، الولايات المتحدة ليست سوى دولة ينصهر فيها المهاجرون تحت علم واحد، وقدرتهم على الإتحاد بالرغم من أن أعراقهم مختلفة هو ما جعل بلدهم أنجح دولة في العالم». وهي كانت تمزح أيضاً بأنه كان يمكن أن تدعو البلد بالقبائل المتحدة أو البلدان المتحدة.

كانت هناك أشياء كثيرة تقلقها، كانت تتساءل مثلاً عما إذا كانت تأشيرتها ستسمح لها أن تعمل. وكانت تخاف أيضاً من العنصرية، فهي ستكون شابة عربية في بلد يسيطر عليه الناس البيض... هل سيحميها كونها مسيحية ذات بشرة بيضاء اللون من العنصرية؟

حوالى الساعة الرابعة والنصف، لم تكن لديها أي إجابة لكل هذه الأسئلة ولكنها كانت تدرك أين ينبغي أن يبدأ بحثها عن هذه الإجابات - في السفارة الأميركية في القاهرة. ولقد سبق أن قرأت بأن سفارة أي بلد حسب القانون الدولي هي جزء حرفي من البلد الذي تمثله، ولذلك سوف تطلب من السيد وتسون عند مقابلته بعض المجلات والمنشورات المتعلقة بالشؤون الأميركية حالياً على أمل أن تعلّمها تلك الأشياء كيفية التكيّف داخل الولايات المتحدة. ولكن كيف ستستطيع أن تفهم هذه المعلومات التي قد تكون مكتوبة بالإنكليزية؟ سيكون ذلك من السهل لأنها كانت واثقة من أن السفارة تترجم هذه المنشورات للغة العربية كي يفهمها العرب ويتعلمون أكثر عن الولايات المتحدة. أخيراً أحست بالقليل من الفرج لأن هذه المشاكل بدت كأنها كانت تظهر بجانب حلولها.

وبخصوص حياتها الشخصية، كانت لدى ماري فكرة جيدة عن الاتجاه الذي أرادت أن تتجه نحوه، قررت عندئذ أن تجعل حياتها تتسم بالعذاب المستمر كي تطهّر نفسها من ذنبها الذي لا يغفر. لقد ألقت الضربة الأولى على ضميرها بفعلها ذلك والآن قد حان الوقت لضميرها أن يصيبها أيضاً بضربته كي يجعلها سجينة له. ومن ذلك الحين، كانت على استعداد أن تحرم نفسها من السعادة طول عمرها لتستسلم لضميرها الذي انقسم إلى عدة أشباح، كل واحد يمثّل عذاباً لها... الشبح الأول كان يمثّل الإحساس بالذنب، الثاني كان يمثل الكراهية الذاتية، الثالث كان يمثّل الإرادة المستمرة للتطهير

الذاتي، الرابع كان يمثل الشك في كافة الرجال والشبح الخامس والأخير كان يمثل استحالة مسامحة نفسها. وهكذا أبرمت ماري هذا الاتفاق القاسي مع نفسها آملة أن تحصل من خلاله على بعض راحة البال، فهي كانت مصممة على أن تتجاهل كافة احتياجاتها العاطفية.

قام بواب العمارة بنقل إسحاق وهو رجل في الخمسينيات، وسط صرخات والدته التي كانت تدعو بأن لا يكون في حالة سيئة جداً لأنه كان ينزف من رأسه، فهي تحب ابنها كأي أم، وبالإضافة إلى ذلك، كانت تخاف من ردة فعل زوجها الذي لم يكن على علم على الإطلاق بأنها كانت على وشك التواطؤ مع ابنها والتجرؤ على الذهاب لمنزل تلك الفتاة في هذه الأوقات الحرجة.. لقد كذبت في رسالة تركتها له وقالت بأنها ستزور إحدى زوجات جيرانهم.

وعند وصولهما إلى العيادة، فقدت الأمل في المكان لأنه بدا كأنه كان على وشك الانهيار، فقد كان مبنى قديماً وبلا أجهزة تكييف، والمصدر الوحيد لدخول الهواء كان من خلال نافذة متوسطة الحجم وسط العيادة ومفتوحة بالكامل، ودخل من خلالها الكثير من ضجيج من الأطفال الذين كانوا يلعبون كرة القدم في الشارع، وكانت هناك مروحة بالية على السقف بدت كأنها كانت ستسقط على الأرض في أي لحظة. بعد أن حللت هذا المنظر المخيف، أرادت سعاد أن تشتكي للبواب الذي قادهما إلى هذا المكان، لكن ظهور صاحب العيادة المفاجئ جعلها تغيّر رأيها. وبالنظر إليه، كان لديها انطباع بأنه يمتلك كل الإمكانيات التي كانت تنقص العيادة، ومظهره كان يوحي بأنه رجل حيوي ذو ثقة بالنفس وخبرة واسعة. لم يقل بأنه صاحب العيادة ولكنها كانت متأكدة من ذلك وقررت أن تعطيه فرصة وقالت:

«يا دكتور، أنقذ ابني من فضلك، فقد وقع عن السلالم».

كان من السهل لأي شخص ملاحظة كم كانت مصدومة. اقترب الدكتور إلى البواب وساعده على حمل إسحاق فيما قال لسعاد:

«سوف نحاول أن نضع الأمور تحت السيطرة».

لم تصدّق سعاد أذنيها، غضبت جداً لأنه قال بأنه سيحاول، كانت تتوقع منه أن يقول شيئاً مثل «سوف أجد حلاً في لمح البصر». ولكنها حاولت أن تكون أكثر تفاؤلاً فيما نظرت إليه وإلى البواب بارتباك وهما يحملان إسحاق بعيداً عنها. وبعد ذلك، ظهرت ممرضة وقادتها إلى غرفة الانتظار حيث جلست فيما خفق قلبها بشدة. مرت أكثر من أربعين دقيقة قبل أن يظهر الدكتور مجدداً بابتسامة كبيرة علت وجهه.

«لم يكن هناك داع للقلق، فالشاب كان لديه ألم بسيط فقط، لم نجد أي كسور. الحمد لله».

توقّف قليلاً فيما أخرج بعض الأوراق من الملف الذي كان يحمله ثم استطرد قائلاً:

«انظري إلى بعض هذه التحليلات وسوف ترين كل شيء بنفسك». لم تكن سعاد مهتمة بالأوراق وقالت:

«بكل احترام، أنا لا أهتم بهذه الأوراق لأنني لا أفهمها، كل ما يهمني هي حالته الحقيقية وليست هذه الأوراق».

دهش عندما سمع كلامها وظن بأنها كانت تتكلم هكذا لأنها ما زالت قلقة.

«أنا أتفهم موقفك، لا تقلقي، لقد أصبح كل شيء على ما يرام». أخرج إحدى الأوراق من الملف قائلاً:

«هذه النقطة مثلاً تشير إلى أن رجله سليمة و...» قاطعته سعاد صارخة:

«ما هي مشكلتك يا رجل؟ ألا تفهم؟ كل ما أريده هو أن أرى ابني فوراً، هل تفهم ذلك؟».

لفت صوتها العالي انتباه الممرضات وحتى بعض المراجعين حتى ظهر إسحاق من الخلف وهو يمشي بتثاقل ثم قال:

«ماذا حدث يا أمي؟ لقد سمعت صوتك عند آخر الممر».

أحست سعاد بكثير من الخجل لأنه كان من الواضح بأن ردة فعلها تجاه الدكتور كانت مخطئة، ولكنها قررت أن تستعمل ابنها كي تخرج نفسها من الموقف السخيف الذي أوجدت نفسها فيه، اقتربت منه ثم قالت:

«كيف حالك يا إسحاق؟ هل أنت قوي بما يكفي للعودة إلى البيت الآن؟».

بدأ معظم الناس بترك المشهد عندئذ، وطمأنها إسحاق قائلاً:

«أنا في حال أحسن وأنا مستعد للرجوع إلى البيت الآن». حدّق بالدكتور فجأة ثم قال:

«أنا لا أعرف كيف أستطيع أن أعبّر عن شكري لك».

لدى قوله ذلك، استجمعت سعاد شجاعتها واعتذرت للدكتور لأول مرة.

«أنا متأسفة جداً للطريقة التي تحدّثت إليك بها، لم أقصد ذلك، كنت قلقة جداً لأنني كنت أخاف أن يضيع ابني مني». كان الدكتور غاضباً للغاية ولكنه أخفى ذلك قائلاً:

«لا تهتمي يا سيدتي. لو سمحتما، أريدكما أن ترافقاني إلى مكتبي، فهناك بعض الأشياء التي أريد أن أطلعكما عليها».

لم ينتظر ردهما، استدار وتوجه نحو مكتبه فيما مشيا وراءه. ولما وصلوا هناك، لم يجلس إلا بعد أن جلسا ثم نظر إلى سعاد وقال:

«ما حدث لابنك أمر بسيط، هذا ما كنت أريد أن أخبرك إياه. لا يحتاج إلى أكثر من يومين وسوف يمشي بشكل طبيعي». توقف قليلاً ثم قال:

«الحمد لله بأن ما حدث في هذه المرة مرّ دون أن تحصل كارثة، قد يكون الأمر أكثر سوءاً في المستقبل».

شعر كلاً من إسحاق وسعاد بقشعريرة عندما قال ذلك، واستفسرت سعاد عن معنى كلامه.

«كيف يمكن للأمر أن يكون بسيطاً وخطيراً في الوقت نفسه كما تقول الآن؟» تنهّد وردّ قائلاً:

«عندما أخبرني كيف سقط، عرفت بأن السبب لم يكن أمراً طبيعياً، فهو كان بعيداً عن السلالم وأخذ يتحرك إلى الوراء دون أن ينظر. وهذا يعني بأن باله كان مشغولاً بأمر يفوق طاقته. فشيء مماثل قد يجعل الرجل يعبر الشارع دون أن ينظر إليه مما سيكون بدون شك كارثة كما تعرفين». أخذت سعاد نفساً طويلاً ثم سألت:

«ما هو الحل يا دكتور؟» فكّر الدكتور لبرهة ثم أجابها قائلاً:

«نظراً إلى ابنك، إنه من الواضح بأن الشاب يعاني من حالة حزن شديد، وضحايا هذه الحالة في أغلب الأوقات يتعرضون لفقدان القدرة على التفكير السليم نتيجة محنة يعيشونها، وذلك لأنهم في هذه الواقعة لديهم مشكلة ما، ولكنهم يرون أنفسهم مكتوفي الأيدي عند مواجهتها».

توقّف ليعطيهما بعض الوقت كي يستوعبا ما قاله ثم تابع كلامه:

«ولكن هناك مثل يقول بأن الوقاية خير من العلاج، والحل يكمن في هذا المثل».

كتب على ورقة من دفتره شيئاَ ثم قال لإسحاق مباشرة:

«هذه بيانات الدكتور طارق، صديقي الحميم ومتخصص كبير في الطب النفسي، هو يستطيع أن يساعدك في الأزمة التي تواجهها، أتمنى أن تزوره غداً كي يبدأ علاجك النفسي مما سيمنع حدوث أي مصيبة قد تهدد حياتك».

أخذ إسحاق الورقة منه بينما نظرت إليه سعاد مبتسمة قبل أن تقول:

«لن أشكرك لوحدي يا دكتور، بل سوف آتي بعائلتي كلها ونشكرك جميعاً. هذا ما تستحقه».
ابتسم ثم نظر إلى ساعته وقال:

«لقد تأخر الوقت جداً، تشرفت بمقابلتكما».

نهض كلاً من إسحاق وسعاد ولكن قبل وصولهما إلى الباب، استدارت سعاد وسألت:

«كم ينبغي أن ندفع؟ وأين يوجد قسم الحسابات؟» ضحك الدكتور وقال:

«لو أردت أن تدفعي، سيكون دوري أن أمنعك لأن هذه العيادة خيرية يمولها رجل سخي». شكراه وخرجا من العيادة.

27

6 ديسمبر 1974

الحب من النظرة الأولى هو أفضل تعبير لوصف شعور ماري ووالدتها تجاه القاهرة، ولم تكن إقامتهما طويلة بما يكفي للأسف لاكتشاف السبب وراء هذه المشاعر الإيجابية. ولم يلبثن أن وجدن سيارة أجرة عند خروجهن من المحطة. لم تعرف سارة أي فندق في القاهرة ولذا اكتفت بالقول للسائق أن يأخذهن إلى أي فندق مناسب في وسط البلد. وبالرغم من عدم معرفتها بعنوان السفارة الأميركية، كانت متأكدة بأنها لن تكون بعيدة عن وسط البلد.

وفي أقل من خمسة عشرة دقيقة، وصلن إلى فندق الأهرام. بدا كمكان غالي جداً من الخارج مما أقلق سارة لأنها لا تريد أن يبدأ مشوارهن بإنفاق الكثير من المال الذي قد يكنّ في أمس الحاجة إليه في المستقبل القريب. أمسكت بيد والدتها ودخلن جميعاً. كان الفندق خالياً تقريباً لأنه لم يكن هناك أحد سوى عاملة الاستقبال التي بدت كأنها أفاقت للتو من النوم. نظرت إليهن مبتسمة ورحبت بهن قائلة:

«أهلاً وسهلاً بكنّ في قلب مصر في فندق الأهرام، مرحباً بكن!».

دهشت سارة لأنها لم تتوقع بأن هذه المرأة ستعرف على الفور بأنهن أجنبيات، فهي لم تعرف بعد بأنه من السهل للمصريين أن يعرفوا العرب من لبنان وسوريا من خلال النظر فقط.

«صباح الخير! نحن نبحث عن حجرة كبيرة تحوي ثلاث أسرة، ولكنني أولاً أريد أن أعرف الأسعار».

نبرتها عندما قالت الجزء الأخير من الجملة أثار شفقة عاملة الاستقبال التي لاحظت التوتر في صوتها، قررت عندئذ أن تساعدها.

«تتراوح أسعار الحجرات حسب الدور، السعر يبدأ من خمسين دولار لكل ليلة إذا اخترتم غرفة في الطابق السفلي وسيرتفع السعر إلى مائة وعشرين دولار عندما تطلبي حجرة في الطابق الأعلى». كانت سارة محتارة.

«لماذا؟».

«ذلك لأنه سيكون هنالك منظر أجمل بكثير من فوق وبإمكانك أن ترين القاهرة كلها من حجرته». ساد صمت لثوانٍ قبل أن تضيف العاملة:

«نحن في العادة لا نسمح للزبائن الجدد أن يدخلوا غرفهم إلا بعد الظهر، ولكن لو قرّرتنّ البقاء معنا، سوف أسمح لكنّ بدخول الغرفة الآن دون أن أجعلكن تدفعن تكاليف الليلة السابقة كما ينبغي أن أفعل حسب سياسة الفندق». لدى سماعهن ذلك، ابتسمن جميعاً ابتسامات واسعة وعريضة فيما أخذت سارة أوراق الفندق كي تملأ البيانات اللازمة عليها كأنها كانت تخاف من أن تغيّر الموظفة رأيها.

«أشكرك جداً، هل أستطيع أن أدفع بالعملة اللبنانية؟».

لم تجب العاملة على سؤالها بسرعة، بل فتحت الدرج وأخذت مجموعة من الأوراق وبحثت بين الأوراق عن ورقة تتميز بكتابة كلمة لبنان عليها من فوق ثم سلمتها لسارة قائلة:

«ليس هنالك مانع لو وددت الدفع في عملتك ما دام أننا لا نختلف على السعر». لم تنظر سارة إلى الورقة، بل أعادتها إليها وقالت:

«أنا أثق بأن مؤسستكم لن تعطيني إلا أحسن سعر للتحويل لأنها تبدو مؤسسة محترمة. أريد غرفة متواضعة المزايا كما السعر أيضاً من فضلك».

ابتسمت االموظفة وأعطتها حجرة أغلى مما دفعت مع عرض شمل الفطور مجاناً ثم ودعتهن بابتسامة كبيرة.

ولدى دخولهن الحجرة، لم يحتجن لأكثر من ساعة كي يفطرن ويستحممن ويرتدين ملابسهن. وبحلول الساعة الثامنة والنصف استقللن سيارة أجرة من الفندق، وكن في طريقهن إلى السفارة الأميركية.

كان هناك الكثير من الزحام في الطريق، ولكن ذلك لم يعكر مزاجهن بل حافظن على لطفهنّ مع السائق، الذي كان رجلاً حيوياً وطيباً وكان يفهم لهجتهن كأنه لبناني المنشأ. ما إن استقلّين سيارته حتى أخذ يعطيهن محاضرة عن مصر، مشيراً بيديه أحياناً في الوقت نفسه إلى عدة أماكن تاريخية ومهمة «هذا هو مبنى البرلمان، ما أجمله! وما رأيكن بذلك المكان؟ فهو المكان الذي تكلّم فيه رئيسنا البطل جمال عبد الناصر عندما أعلن قرار تأميم قناة السويس». لم يعطهنّ أبداً مجالاً لقول كلمة بسبب حماسه الشديد ولكنهن بالرغم من ذلك، كن سعيدات جداً بوجوده لأنه خفّض درجة توترهن.

وصلن أخيراً إلى السفارة الأميركية عند الساعة التاسعة والنصف، واضطررن للمشي مسافة كبيرة بعض الشيء لأنه ممنوع على السيارات أن تركن قرب السفارة لأسباب أمنية. وما زاد الطين بلة كان المعاملة السخيفة التي تلقينها من الحارس عند الباب، نظر إليهن ثم سألهن صارخاً:

«ألم يخبركن أحداً بأننا لا نفتح أبوابنا قبل الساعة العاشرة إلا لبعض الضيوف الخصوصيين؟».

لم تصدّق السيدة نبيلة بأنه كان بإمكان شاب مثله أن يتكلم كذلك أمام عجوز مثلها، وكانت على وشك شتمه لولا همسات ماري التي كانت تتوسل إليها أن لا تفقد سيطرتها على أعصابها. ردت سارة قائلة:

«نحن ضيوف سيد وتسون. هو الذي أخبرنا أن نأتي إلى هنا في هذا الوقت».

كانت كلماتها بمثابة رقم المرور السري لأنه جعل الحارس يتجمد ثم نظر إلى الدفتر الذي كان يحمله وسأل بتواضع:

«هل أنت السيدة...» لم يكمل جملته مما قصم ظهره فقد قاطعته السيدة نبيلة صارخة:

«هي تدعى السيدة إلياس وأنا والدتها وهذه ابنتها، هل لديك أسئلة أخرى؟».

هزّ الحارس رأسه مرتجفاً ثم أشار إليهن بالدخول عبر مكان مزوّد بأجهزة التفتيش، وبعد عبورهن، أشار إلى باب مصنوع من الفولاذ وقال:

«يمكنكن دخول المبنى من ذلك الباب في آخر الممر لتسألوا عن مضيفكن»، ثم استدار ليواجه السيدة نبيلة بالتحديد وركع أمامها قائلاً:

«أهلاً وسهلاً بك في السفارة الأميركية وأتمنى لك يوماً جميلاً يا سيدتي».

لم تستطع سارة ووالدتها منع نفسيهما من الضحك بسبب شكل الحارس الذي بدا فجأة كمهرّج مسرح بين دقيقة وأخرى يقلب شخصيته فجأة.

هكذا بدأ السير إلى الداخل، شعرت ماري كأنها ممثّلة في فيلم عن الفضاء حيث تنتقل كائنات غريبة بين الكواكب المختلفة في لمح البصر. وكان شعورها هذا ينبع من حقيقة بأنه لو تم حصولهن

على التأشيرات الأميركية، ستكون رحلتهن بمثابة السفر إلى كوكب آخر، فالولايات المتحدة كانت تعتبر حتى في السبعينيات أنجح دولة في العالم لدرجة انتشرت إشاعات قوية بأن التطور في الولايات المتحدة حتى في الثلاثينيات كان أكبر من تطور معظم الدول الأوروبية في السبعينيات.

وصلن إلى المدخل خلال دقيقتين ودخلنه، نهضت امرأة سمينة من كرسيها فقد تم إبلاغها بوجودهن وقالت:

«أهلاً وسهلاً، اسمي أرمندا». وبعد تبادل التحيات، استطردت قائلة:

«لقد خرج السيد وتسون لأن أمراً طارئاً تطلّب تدخله الفوري».

ولما تنبهت إلى خيبة الأمل المرسومة على وجه سارة، أضافت:

«لا تكترثي، ما يستطيع الرجل فعله، بإمكان المرأة أن تفعله أيضاً بشكل أفضل. لقد أخبرني قبل خروجه بأنه سيعود قبل مرور ساعة ويريد أن يرى تأشيرات أميركية على جوازات سفركن لدى عودته».

ابتسمت ماري ووالدتها، ولما ترجمت ماري ما قالته أرمندا لجدتها، أخذت تبتسم أيضاً. ثم قالت أرمندا:

«تعالين معي إذاً كي نلتقط صوركن من أجل تأشيراتكن ثم على كل واحدة منكن أن توقّع على عدة أوراق كنا قد جهزناها لكنّ... هيا بنا».

أحست ماري عندئذ بأنها كانت تشم رائحة الولايات المتحدة.

قبل يوم

دخلت سعاد وحدها البيت بعد أن تركت إسحاق في الخارج، أرادته أن ينتظر لعشرين دقيقة إضافية قبل دخوله كي لا يعرف زوجها بأنها ذهبت إليه عندما عاد من سوريا.أحست بالرعب الشديد عندما رأت زوجها بجانب ابنها الأكبر وهو يحدق إليها بغضب وغيظ. نسيت أن تغلق الباب وراءها من شدة الخوف فيما اقتربت إليهما. تحاشت النظر إلى زوجها ونظرت إلى ابنها وقالت:

«كنت عند الجيران، أتمنى بأن كل شيء يسير على ما يرام».

وعندما لم تتلقَ إجابة من أحدهما، نظرت إلى ساعتها ثم استطردت قائلة:

«الوقت الآن الساعة التاسعة فقط، أو هل أنا مخطئة؟».

تجنب ابنها الكلام كي يعطي زوجها فرصة ليتكلم:

«رجوعك عند الساعة التاسعة ليس جريمة، بل الكذب الذي تكذبينه هو الذي يعتبر جريمة». ارتعشت سعاد فيما دافعت عن نفسها قائلة:

«يا حبيبي، تركت لك رسالة، ألم ترها؟».

نظرت إلى المائدة التي وضعت عليها الرسالة ولكنها لم تكن هناك. في أثناء ذلك، اقترب زوجها منها وأخرج الرسالة قبل أن يقول:

«ذهبت لسؤال كل نسوة جيراننا عنك لكنهن نفين ذهابك إلى إحداهن كما تدعين في الرسالة». أخذ نفساً طويلاً ثم قال:

«إذا لم تخبريني الآن أين كنت، سوف أظن الأسوأ وسيؤدي ذلك إلى نهاية هذا الزواج».

ساد الصمت حتى لفت انتباههم صوت الباب المفتوح عندما دخل إسحاق.

«كانت والدتي معي. لقد رجوتها كي تقابلني في المحطة عندما عدت من سوريا وأقنعتها أن ترافقني بعد ذلك إلى شقة ماري».

ابتعد جمال عن زوجته ومشى قريباً من إسحاق، حيث ألقى عليه نظرة تفور غضباً وقال:

«كان يجب عليكما أن تخبراني عن زيارتكما قبل ذهابكما كي أرافقكما أيضاً، يجب عليّ أن أعتذر لهما كون ابني المتسبب بكل هذا، وعليّ أيضاً مساعدتهما مادياً ومعنوياً كي يرتاح ضميري».

دهشت سعاد عندما سمعت كلماته التي شجعتها لتجلس بجانبه قبل أن تقول:

«ولكن للأسف لقد تأخّرنا فقد سافرت برفقة والدتها إلى القاهرة وسوف تهاجران من هناك إلى الولايات المتحدة».

بدا زوجها كأنه أصيب بخيبة أمل شديدة. نظرت إليه ثم ربّتت على كتفه وقالت:

«كانت صدمة كبيرة لدرجة وقع إسحاق على السلالم في البناية وكان علينا أن ننقله إلى أقرب عيادة حيث استعاد وعيه. أخبرني الدكتور هناك بأنه قد يتعرض إلى انهيار عصبي أكثر خطورة وأعطاني رقم وعنوان أحد زملائه، يدعى الدكتور طارق والذي يختص بمعالجة مثل هذه المشاكل والأزمات النفسية».

ظلّ جمال صامتاً لبرهة وعندما تكلم، خاب أمل زوجته لأنه لم يعلق على الإطلاق على الجزء الثاني مما قالته، لم يبد أي اهتمام سوى ما يختص بشأن ماري وأخذ يسأل ابنه عن معلوماتها مثل عنوان شقتها واسم المطعم حيث كان يعمل والدها، أخذ ورقة وبدأ يكتب. كان مصمماً على العثور على عنوان ماري ووالدتها في الولايات المتحدة كي يرسل أخاه الذي يعيش هناك لزيارتهما، فسيكون داعماً لهما هناك بالنيابة عنه مثلما كان سيكون داعماً لهما هنا لو بقيتا في لبنان بالنيابة عن المرحوم. بعد أن انتهى من أخذ المعلومات الكافية بشأن ماري وعائلتها، أشار إلى محمود، ابنه الأكبر أن يتبعه قائلاً:

«تعال معي يا ابني المثالي، علينا أن نتكلم عن طريقة لإيجاد ماري ووالدتها».

أمسك بيده وصعدا السلالم ولكن زوجته أوقفته عندما سألته:

«ماذا سنفعل بشأن إسحاق والدكتور النفسي؟».

شكّت بأنه سمع سؤالها لأنه لم يجب لبرهة ولكنه ردّ عليها قبل أن تعيد السؤال قائلاً:

«لم يعد إسحاق ابني، ولذلك ما تفعليه له أو معه أو ضده ليس ولن يكون من شأني أبداً».

أحست سعاد بصدمة لدى سماعها تعليقه ودهشت أكثر حين استدار ثانية وحدّق إلى إسحاق قائلاً:

«منذ اليوم، ستقيم في حجرة الضيوف في الخارج. تعرف برنامجي جيداً ولذا أتوقع منك أن تجيد إخفاء نفسك عني كي لا أراك كثيراً» ثم اختفى برفقة محمود.

وبعد مرور بضع دقائق، طلب إسحاق مفتاح حجرة الضيوف من والدته. لم تأت به بسرعة لأنها جهزت له بعض الطعام وأجبرته على أن يأكله ثم رافقته إلى الغرفة ليخلد إلى النوم. كانت الساعة الحادية عشر عندئذ.

á á á

كان اليوم التالي حافلاً في حياة كل فرد في عائلة كشوغي. ذهب جمال إلى العمل مبكراً وتوجه محمود إلى المطعم الذي كان يعمل فيه أنطوان على أمل معرفة عنوان عائلته في الخارج. أما بالنسبة إلى إسحاق وسعاد، فقد استقلا سيارة أجرة وكانا في طريقهما إلى عيادة الدكتور طارق عند الساعة الحادية عشر بعد أن حددت سعاد موعداً معه في ذلك الصباح. كانت تعرف بأن إسحاق ما زال يشعر ببعض الآلام في رأسه ورجله ولكنها كانت مصممة على زيارة الدكتور النفسي في أسرع وقت ممكن.

ارتسم الحزن العميق على وجه إسحاق في السيارة بشكل مخيف جداً لدرجة ظلت سعاد تنظر إلى الباب كي تتأكد بأنه كان مغلقاً مخافة أن يقفز ابنها. هل هذا ما يفعله الحب؟ سألت نفسها في حيرة لماذا يتطلع الكثير من الناس إلى الوقوع في الحب مع علمهم بالكوارث العاطفية التي ترافقه؟ لطالما كانت مؤمنة بكل ما يشجّع الحب بعد الزواج، وزواجها الذي حدث نتيجة قرار من أبيها وأب زوجها كان ناجحاً في نظرها مما أثبت صواب نظريتها، ولكن الزواج نفسه للأسف تعرّض لتهديده الأول بسبب أفعال ابنها الذي يؤمن بنظرية الحب قبل الزواج. وهذا ما جعلها تكره ماري أكثر من قبل، كانت تشعر بنوع من الحقد ناحيتها.

لدى وصولهما إلى العيادة، ذهلت من مدى ترتيبها ونظافتها. فهي لم تر أجمل من ألوان العيادة من الخارج إلا ألوانها من الداخل، وكانت هناك كراسي وطاولات والتي بدا لها بأنها مستوردة من اليابان أو الصين. افترضت على الفور بأن الدكتور طارق درس في تلك المنطقة. وعندما كانا ينتظرانه في غرفة الانتظار، شاهدت البرهان لافتراضها... كانت صورة حفلة تخرجه مكتوب تحتها؛

خريجو جامعة طوكيو للعلوم النفسية العليا، والتاريخ، سنة ألف وتسعمائة وثمانية وخمسين.

بالرغم من حضورهما نصف ساعة قبل الموعد، حتى ظهر الدكتور ليستقبلهما مبكراً بعد أن ألغى مريضاً قبلهما موعده. تعرّف إليهما وتبادلا التحيات، أمر الدكتور إحدى الممرضات أن تفتح ملفاً لإسحاق ثم قادهما إلى مكتبه في الطابق الثاني. وعند دخولهما مكتبه، استفسرت سعاد عن تكاليف العلاج مقدّماً كي تعرف لو كان بإمكانها أن تدفع لوحدها، فقد خافت أن لا يهتم زوجها بالموضوع، وردّ عليها الدكتور قائلاً:

«السؤال الذي تسأليني إياه يجعلك بمثابة من يدخل مطعماً ثم يطلب الفاتورة قبل أن يطلب أي شيء»، توقف ثم استطرد قائلاً:

«لا أعرف طبيعة مشكلته بعد، ولذا لن أستطيع أن أخبرك كم أحتاج لعلاجه ولكنني أعرف بأنه مهما تكن مشكلته، يوجد الحل عندي ما دام يريد ابنك أن يحصل عليه من صميم قلبه»، أخذ نفساً طويلاً ثم تابع كلامه:

«وأعرف أيضاً بأن السعر لن يكون باهظاً لأنني صرت دكتوراً أيضاً لأسباب إنسانية». ابتسمت سعاد فيما حدّق الدكتور إلى إسحاق سائلاً:

«هل يمكنني القول بأن مشكلتك ربما متعلقة بالحب؟».

أومأ إسحاق برأسه علامة بالإيجاب بتردّد. سكت الدكتور لبرهة ثم قال:

«لا أعرف كيف ستكون نهاية قصتك ولكنني أعرف بأنك لو قررت في داخلك أن تصبح قوياً نفسياً مجدداً، سيزداد الاحتمال بأنك ستجد النور في آخر النفق. هل تفهم ما أقصده؟ وهل ستقبل نصيحتي؟» أومأ إسحاق برأسه مرة أخرى ثم قال الدكتور:

«حسناً! أخبرني قصتك من البداية إلى النهاية، فلدينا ساعتان».

مرّت أكثر من خمس دقائق قبل أن ينطق إسحاق بكلمة، ولكن عندما بدأ بسرد قصته، كان من الصعب أن يتوقف.

رجع السيد وتسون حوالى الساعة الثانية بعد الظهر بعد أن حصلن على تأشيراتهن منذ عدة ساعات. كانت من التأشيرات التي تدوم لمدة سنتين وتمنح أصحابها إمكانية الدخول الولايات المتحدة مراراً وتكراراً أثناء هذه المدة. وبالرغم من عدم فهمهن كل هذه التفاصيل، لم تكن لديهن الرغبة في الاستفسار عنها في ذلك الحين، وكان ترددهن هذا بمثابة الخوف الذي يحسه من تلقى هدية كبيرة من شخص ما ويخشى أن يسأل عن تفاصيل الهدية كي لا يخيب أمله فيها.

أثناء انتظارهن الطويل، تم نقلهن إلى غرفة الانتظار حيث الكثير من الصور عن أماكن تاريخية في الولايات المتحدة. وفجأة دخل رجل أسود اللون وجلس بجانبهن، سلمن عليه بالإنكليزية بسرعة ثم دخلن مجدداً في نقاش ساخن دار بين سارة وماري عن المكان المناسب لهن للاستقرار فيه... وبعد أن شاهدت ماري صورة جميلة للبيت الأبيض في واشنطن، عاصمة الولايات المتحدة، كانت تحاول أن تقنع والدتها بأنه ينبغي أن يذهبن للعيش في واشنطن بدلاً من نيويورك، ولما أحست بيأس حول هذا الموضوع، ألقت نظرة مستنجدة على جدتها فيما قالت:

«لا تجلسي هكذا دون أن تقولي شيئاً يا جدتي، نحن في حاجة إلى حكمتك في هذا الموضوع»، ثم أضافت بأكثر جدية:

«فلنستعمل بيروت كمثال، لا يوجد مكان أفضل منه في لبنان من حيث الفرص للعمل وكسب القوت، لماذا؟ لأنها عاصمة لبنان... هكذا هو الأمر أيضاً بالنسبة إلى واشنطن، لن يوجد مكان أكثر راحة للعيش فيه في الولايات المتحدة لأنه أيضاً العاصمة هناك مثل بيروت في لبنان».

لو ذكرت ماري مدى كراهية جدتها لبيروت لما استعملته لتقوية موقفها. رمقتها جدتها كأنها ارتكبت جريمة ثم ردت عليها قائلة:

«لو تريدين دعم موقفك من خلال إثبات بأن واشنطن ستكون مثل بيروت لأنهما عاصمتين، لن أتحمل العيش في واشنطن إذاً. لا أريد أن أعيش في مكان يشبه بيروت حتى من بعيد بسبب التلوث الموجود هناك والزحمة في تلك المدينة بالإضافة إلى نمط حياة معظم سكانها الذي لا يمكن أن يقال عنه بأنه نمط حياة مريح... هيا بنا إلى نيويورك إذاً لأنه على الأرجح أشبه بصور حيث توجد راحة البال».

انفجرت سارة ضاحكة وأدركت ماري بأنها قد خسرت المسابقة. قرّر السيد وتسون أن يتدخل عندئذ مستعملاً اللهجة الأردنية التي يتفوق فيها لأنه عمل في الأردن لخمس سنوات قبل انتقاله إلى القاهرة... اختار هذه اللهجة لأنها تشبه اللهجة اللبنانية جداً.

«يا سيداتي، هل يمكنني أن أدخل في حواركن؟».

دهشن جميعاً بكلامه العربي وكان انطباعهن الأول عنه أنه من السودان ولكن بدأت سارة تشك في ذلك لما قال المزيد لأنه لم يكن يتكلم باللهجة السودانية على الإطلاق. لم يخطر في بالها بأنه السيد وتسون لأنها لم تظن بأنه أسود اللون، ولم تعرف أيضاً بأنه يفهم اللغة العربية.

«أولاً، لا أعرف المكان الذي تتكلم جدتنا عنه ولكنني أعرف بأن نيويورك تشبه بيروت أكثر من واشنطن، فهي كانت عاصمة الولايات المتحدة في الماضي ولكن ذلك تغيّر عندما قررت الحكومة الأميركية بأنه لم يعد من المناسب من الناحية الأمنية لرئيس الولايات المتحدة بصفته الرجل صاحب النفوذ الأعلى هناك أن يدير حكومته من ولاية مزدحمة مثل نيويورك». نظر إلى السيدة نبيلة وأنهى كلامه.

«لو أردت أن تعيشي في مكانٍ يعزز راحة البال، يستحسن لو تختاري واشنطن إذاً». ثم مشى نحو دولاب وأخرج منه كتاباً ضخماً وبعض الصور وقدّمها كدليل على تصريحاته».

أرادت ماري أن تصرخ من الفرح بينما ذهلت سارة بمدى علمه لدرجة عجزت عن منع نفسها من أن تسأله مجموعة من الأسئلة.

«أنت من أين؟ وكيف تعرف كل هذه الأشياء؟» ضحك ثم قال مبتسماً:

«ألم أعرفكن إلي؟ أين ذهبت أخلاقي؟» أخذ نفساً طويلاً ثم أضاف:

«أنا وتسون، ولكن الأصحاب القريبون ينادوني باري».

نهضن جميعاً من كراسيهن احتراماً له على الفور. واقتربت سارة إليه ثم تكلمت بالنيابة عن ماري وجدّتها:

«يؤسفني جداً بأننا لم نعرفك منذ البداية، صوتك يبدو مختلفاً تماماً عبر الهاتف، وبالإضافة إلى ذلك، لم يخبرني زوجي بأنك ماهر في اللغة العربية لهذه الدرجة».

ابتسم وقرّر أن لا يقول شيئاً حتى يصلوا إلى مكتبه. قادهن إلى الطابق الثالث وتطلّب المشي بعض الوقت، أدخلهن مكتباً واسعاً وطلب بعض القهوة لهن ثم بدأ يتكلم:

«أولاً، فليرحم الرب زوجك يا سيدتي، فقد كان رجلاً طيباً ولطيفاً، لم أعرفه لمدة طويلة ولكنها كانت تكفي أن أرى هذه الصفات بشكل واضح».

ساد الصمت لبرهة حتى أخذ مضيفهن نفساً طويلاً ثم استطرد:

«التأشيرات في حوزتكن تسمح لكنّ بالدخول والخروج من الولايات المتحدة مرات لا تحصى لسنتين من اليوم ولكنها لن تسمح لكنّ بالعمل، ولكن عندي حلاً لذلك. من ضمن معارفي يوجد قسيس يدعى أندرو، هو يدير كنيسة كبيرة في نيويورك ويتبعه أشخاص من ذوي النفوذ في المجتمع. سوف يساعدكن في الحصول على وظائف بشكل غير رسمي حتى يتغير وضعكن القانوني ويسمح لكنّ بالعمل بشكل رسمي».

كانت سارة تستمع إليه بدقة كي تفهمه قبل أن تقول:

«وهل سيصعب تغيير وضعنا يا سيدي؟» ابتسم لأنه توقع سؤالها وردّ قائلاً:

«لو سألتيني ذلك السؤال قبل سنة لقلت نعم، لكن لم يتم الموافقة عليه من قبل الحكومة الأميركية لأن بلادكن كانت تتمتع عندئذ بنوع من الاستقرار السياسي، ولكن الظروف تغيّرت الآن والأجواء غير المستقرة بين المسلمين والمسيحيين للأسف هي ما ستساعدكن في الحصول على لجوء سياسي الآن، وسيستطيع أندرو قبل مرور ستة أشهر التواصل مع محامي جيد بإمكانه أن يهتم بهذا الموضوع مقابل القليل من المال».

وبعد أن أنهى كلامه هذا، شعرن كأنهن يعشن في حلم، أردن أن يعرفن لماذا كان يقدم لهنّ كل هذا العون ولكن الخجل منعهن من طرح السؤال، أخيراً استجمعت سارة شجاعتها وقالت:

«كلماتك تجعلني أحس كأن العالم صار حلماً، لماذا تفعل كل هذا لنا بالرغم من كونك مجرّد صديق بعيد لزوجي؟».

عندما طرحت هذا السؤال، لم تعرف بعد بأنه سبق أن فعل الشيء نفسه مع عدد كبير من العائلات. تنهّد السيد وتسون ثم قال:

«ولدت يتيماً لأن والدتي توفيت عند ولادتي وكانت كل المعلومات التي قدمتها للمستشفى غير صحيحة مما جعله مستحيلاً أن يتم العثور على والدي أو أقاربي. تم نقلي بعد ذلك إلى ملجأ حيث أمضيت سبع سنوات حتى جاء ثنائي طيب يوماً ما وأخذاني إلى بيتهما حيث تربيت على مبادئ كثيرة رائعة من أهمها مساعدة الناس وإعطائهم الأمل فيما أستطيع... الأمل هو هديتي إليكن وأتمنى أن تقبلنه».

ترقرقت الدموع في عيونهن وقررت السيدة نبيلة أن تتكلم باسمهنّ، وبذلت مجهوداً كبيراً عندما تكلّمت بالإنكليزية احتراماً له:

«شكراً سيد واسووووووون».

انفجروا جميعاً ضاحكين لأنها غيّرت اسمه ثم قررت ماري أن تتكلم ولكنها فضلت استعمال اللغة العربية كي يفهم كل ما ستقوله.

«لم أذهب إلى الولايات المتحدة بعد، ولكنني متأكدة من مدى روعتها وجمالها ما دام فيها رجل عظيم مثلك».

شكرها لكلماتها ثم طلبت منه بعض الكتب عن الولايات المتحدة وأعطاها أكثر مما توقعت، فكانت مكتوبة باللغة العربية كما تمنّت. وبعد ذلك قضوا عشرين دقيقة في حديث عن تفاصيل سفرهن والسكن الذي سيوفر لهنّ المال في حوزتهن. خطّط السيد وتسون لكل شيء، حتى أنه أخذ من سارة مالاً وأرسل سكرتيرته كي تشتري تذاكرهن، ووعدهن بأنه سينقل كل معلوماتهن إلى السيد أندرو كي يجهز كل شيء قبل حضورهن. ولدى خروجهن من مكتبه، أخذت كل من ماري وسارة تتمنيان لو كان أنطوان معهما.

دامت المقابلة مع الدكتور طارق لحوالى ثلاث ساعات ولدى نهايتها، كان الدكتور الشخص الوحيد الذي لم يكن يبكي. كاد أيضاً أن يستسلم للدموع مثل إسحاق ووالدته ولكنه منع نفسه لأن البكاء أمام المريض أمر ممنوع في مهنته. ظلّ يراقبهما في صمت كي يخرجا الألم تدريجياً، وهذا يعتبر أيضاً جزءاً مهماً من العلاج.

وكان الحديث مع الدكتور الفرصة الأولى الحقيقية لإسحاق ليعبّر عن المرارة التي ظلت محبوسة في داخله كل هذه المدة، ولأول مرة بعد كل ما حدث، شعر بأنه كان بعيداً عن أي بيئة عدوانية ولذا كان مصمماً على البوح بكل شيء بدون خوف وتردّد.

وعند الاستماع إليه، انتاب سعاد شعور بالإحباط. كانت عاجزة عن مسامحة نفسها لما اعتبرته إهمالاً منها تجاه ابنها. ولو لم تكن تهمله، كيف لا يكون لديها أدنى فكرة إذاً بأنه كان متورطاً في مثل هذه العلاقة الغرامية العميقة على الرغم من كون حياته دوماً ككتاب مفتوح أمام الكل؟ أحست بأنها والدة فاشلة وكانت تبكي في ذلك اليوم لنفسها أيضاً، وليس فقط لابنها.

لقد سبق للدكتور أن تعامل مع عدة أشخاص ذوي حالات متشابهة، ولكن كانت هناك نقطة جعلت أمر إسحاق مختلفاً وهي وفاة أنطوان. فهذا الموت له أثر سلبي غير قابل للتخفيف، وهذه الحقيقة هي ما جعلت معضلته أكثر تعقيداً. كان الدكتور يدرك مسبقاً بأن هذا الموت سيضع العراقيل في طريقه إلى الشفاء، وهذا قد يفقده الأمل تماماً. وكان الدكتور مصراً على الكفاح مع إسحاق حتى النهاية.

والتحدي الثاني الذي سيكون على طارق مواجهته في علاج إسحاق هو غياب ماري، فهي أهم عامل في هذه القضية. واستناداً إلى تجربته الواسعة، كان على يقين بأنها كانت أيضاً تحتاج إلى مساعدة الطبيب النفسي وتمنّى لو كانت على علم بذلك أينما تكون حالياً. لو كانت مع إسحاق في عيادته، لكان أكثر تفاؤلاً تجاه هذه المهمة الصعبة التي لم يعتقد بأن احتمال نجاحها فاق العشرة في المئة.

وبالرغم من تأكده من الخبرة التي سيكتسبها من حالة إسحاق، لم يكن متحمساً لهذا المشروع بسبب الجهود المكثّفة التي سيكون مضطراً إلى بذلها، وأمثال إسحاق كان لهم لقب خاص بين صفوف الأطباء النفسيين وهو الأموات الأحياء، ومعالجتهم كانت تتطلب الكثير من الوقت والاجتهاد والصبر لذا كانت تكاليفها عالية جداً، فقد كان أصدقاؤه الأطباء يمازحونه فيقولون بأنه لا بد من قدرات خارقة لدى الطبيب النفسي كي يستطيع معالجة مثل هذه الحالات، ولكنه بغضّ النظر عن كل هذه العوامل السلبية، قرّر أن يقوم بهذا الأمر بمزيد من التفاؤل.

بعد أن منح كلاً منهما بعض الوقت ليسيطر على أعصابه، دخل في الموضوع بصوت تلفه الحيوية كي يرفع روحهما المعنوية.

«أنا مرتاح الآن لأنني لدى رؤيتك يا إسحاق، كنت أظن بأن السبب وراء وجودك هنا كان أخطر بكثير، ولكنه يظهر بأن مخاوفي لم تكن في محلها على الإطلاق».

كان يكذب بشكل محترف عندما قال ذلك، وسرعان ما قرّر أن ينفّذ خطته الوحيدة في ظل عدم وجود ماري، محاولاً أن يزرع في عقل إسحاق بأن لديه فرصة كي يكسب قلبها مجدداً كي يصبح أقوى نفسياً، وسيجعله ذلك يرى النور في نهاية النفق من خلال ما سيحثه للمشي نحوه مهما بدا بعيداً عنه. وعندما تتحسن حالته، سيبلغة تدريجياً وبشكل غير مباشر بأن ماري قد لا ترجع إليه مجدداً، وسيكون قوياً بما يكفي عندئذ لاستيعاب الصدمة والمضيّ قدماً بحياته. أفاق الدكتور من

حديث الروح وألقى نظرة حادة إلى إسحاق قائلا:

«هل تعرف بأن قلوب الرجال أقوى من قلوب النساء؟ هو كذلك، ولذلك عليك أن تعرف بأنني لو طلبت منك أن تكون قوياً، ليس طلبي من أجلك فقط، بل من أجل ماري أيضاً، وأنا أدرك بأنك لا تريد أن تخيّب ظنها عندما تراك مجدداً».

استغرب إسحاق كلامه فيما ظهرت ابتسامة صغيرة على وجهه. أما بالنسبة إلى والدته، فقد أخذت تقطب وجهها لأنها شعرت بغضب لدى سماع اسم ماري. لم يطمئن الدكتور عندما تنبّه إلى ذلك وقرّر أن يفعل شيئاً قبل أن يفوت الأوان. نظر إلى إسحاق وقال:

«أظن بأنه عليك الذهاب إلى الحمام لتغسل وجهك قبل أن نكمل».

نفّذ إسحاق اقتراحه. ولما غاب عن نظريهما، التفت إلى والدته وقال:

«لاحظت بأنه لم يعجبك أنني ذكرت اسم ماري، ولحسن حظنا، لم ينتبه ابنك إلى غضبك لأن ملاحظته لذلك كانت سترجعنا إلى الوراء مرة تلو الأخرى. أريدك أن تفهمي بأن تلك الفتاة تعدّ مصدر أملنا الوحيد لنعيد مياه حياته إلى مجاريها ولو ضاعت هذه الفرصة، لن تعوّض. أرجوك أن تثقي بقراري هذا لأن هذا تخصصي».

لم يجد لديه الوقت كي يسمع ردّها لأن صوت خطوات إسحاق قاطعتهما. ولكن عندما تحدثت إلى ابنها بعد أن جلس مجدداً، عرف الدكتور بأنها وافقته الرأي.

«إسحاق يا حبيبي، أرجو منك أن تشد حيلك كي تفكر أيضاً مثل والدك بطريقة للعثور على ماري. لا تقلق لأن كل شيء سيكون على ما يرام. وهذا وعد مني».

ابتسم إسحاق ابتسامة عريضة، تصرّف لم يفعله منذ رحلته إلى سوريا وشعر بالكثير من الفرج نتيجة الدور المميز الذي كانت تلعبه والدته. تأمّلها بإعجاب ثم قال:

«بصراحة لا أعتقد بأن هناك أي ابن على وجه الأرض يستحق والدة مثلك، فمعاملتك لي بالرغم من أخطائي الكثيرة تعتبر شيئاً عجيباً، وأشكرك من كل قلبي».

كان المشهد جميلاً لدرجة قرّر الدكتور الاستفادة منه بشكل فوري من أجل تقوية إسحاق في مناطق أخرى.

«ماذا تريد أن تفعل بحياتك؟» تنهد إسحاق ثم قال:

«لن أكمل دروسي في الجامعة لأنني أرغب في مواصلة دروسي في معهد اللغات الأجنبية حيث أتطلّع إلى أن أدرس اللغة الإنكليزية جدًّيا».

دهش كلاً من د. طارق ووالدته من كلامه. لم يزعج كلامه الدكتور على الإطلاق لأنه كان مرتاحاً لأن الشاب قد أشار على الأقل من خلال تعليقه إلى إرادته ليمضي قدماً بحياته، ويعدّ ذلك شيئاً إيجابياً جداً، ولكن سعاد لم ترض بما قاله وعارضته بتهذيب قائلة:

«يا حبيبي، لماذا تريد أن تتخلى عن دراسة الحقوق؟ لم يتبق سوى سنتين على تخرّجك. في نظري، سيكون في مصلحتك لو أكملت دراستك هذه أولاً، وبعد ذلك، يمكنك أن تتعلّم اللغة الإنكليزية في المعهد كما تشاء».

كان بادياً على وجه ابنها بأنه لم يقتنع بكلامها، وقبل أن يتفوه بكلمة أخذ نفساً طويلاً ثم قال:

«تذكّرت ماري لما سألني الدكتور ذلك السؤال لأنها سبق أن سألتني سؤالاً مماثلاً عندما كنا مسافرين إلى سوريا؛ استفسرت عندئذ عما سأفعله لكسب القوت هناك وقلت لها بأنني سأدرّس اللغة

الإنكليزية». توقف قليلا ثم استطرد:

«لست مديوناً لنفسي أن أكمل دروسي في الحقوق ولكني مديوناً لها لأنني دمرت حياتها، ولذا يجب أن تتغيّر مسيرة حياتي كما غيّرت مسيرة حياتها... لن أتخلى عن هذا القرار». ذهلا من العزم في كلماته ثم تدخّل الدكتور قائلاً:

«ما دام هذا هو قرارك، عندك تأييدي إذاً. أتمنى لك كل التوفيق»، قرّر أن ينهي المقابلة على هذا الأساس.

«أريد أن أراك في الأسبوع المقبل وأود أن تكون قد بدأت ببرنامجك الدراسي الجديد قبل ذلك. يمكنك أن تتصل بسكرتيرتي لتحديد موعد».

شكره كلاً من إسحاق وسعاد ثم كتب المبلغ المستحق على إسحاق في ملفه وطلب منه أن يسلّمه لسكرتيرته.

لاحظت سعاد بأن المبلغ كان أقل بكثير مما توقعت، ظهرت ابتسامة واسعة على محياها ولم تفارقها لوقت طويل بعد أن غادرا العيادة.

بعد أن غادرن السفارة الأميركية، رجعت سارة برفقة والدتها وابنتها إلى الفندق وظللن هناك لبقية اليوم مع أن الساعة كانت لم تتخط الخامسة مساءً عندئذ.

جلسن جميعاً في غرفة الجلوس حيث تفرجن على التلفاز قليلاً وتكلمن كثيراً عن الولايات المتحدة ثم قرأت ماري بصوت عالٍ بعض المعلومات من المقالة السياسية التي ترجمتها السفاره الأميركية إلى اللغة العربية:

«بعد أن اكتشف الرئيس بأنه لم يعد لديه العدد الكافي من النواب في صفه كي يكمل السنتين المتبقيتين في ولايته، قرّر ريتشارد نيكسون، الرئيس السابع والثلاثين في الولايات المتحدة أن يقدم استقالته في الساعة الثانية عشر بعد الظهر في اليوم التاسع من أغسطس من السنة ألف وتسعمائة وأربع وسبعين.

وبالنظر إلى الرئيس، كان من الواضح بأن فضيحة ووترغيت قد أثّرت على مزاجه بشكل كبير في السنتين الماضيتين ولكنه يستحق المديح لأنه بالرغم من ذلك، كانت لديه الشجاعة كي يقول بأنه يتمنى بأن الدولة من خلال استقالته، ستحظى برئيس أحق وأفضل وهذا فقط ما دفعه للاستقالة».

توقفت ماري عن القراءة ثم أخبرتهما بأن المقالة كتبت قبل حوالى ثلاث أشهر مما جعل جدتها تحس بالكثير من الحماس لأنهن كن على وشك الذهاب إلى دولة واعدة وديموقراطية. لم تفهم شيئاً عن فضيحة ووترغيت ولم تكن لديها الرغبة في معرفة تفاصيل الموضوع، ولكنها علّقت على المقالة وقالت:

«يظهر بأننا ذاهبات إلى الولايات المتحدة في الوقت الصحيح، ما قرأتيه حدث قبل أكثر من ثلاثة أشهر ولذا أعتقد بأن تلك الدولة ستكون قد شفيت تماماً الآن». ضحكت سارة ثم قالت:

«هل تظنين بأن الدول مثل الناس؟ فالدول تحتاج إلى سنوات قبل أن تشفى» ما قالته لم يعجب والدتها على الإطلاق، فقالت:

«لو الأمر كذلك، لماذا نضيّع وقتنا إذن؟ يستحسن لو رجعنا إلى لبنان فوراً».

ندمت ماري لأنها قرأت لهن ذلك المقال بالذات، وبحثت فوراً في بعض المقالات الأخرى عن حقائق جديدة تمكّنها من إنقاذ الموقف. وبعد عدة دقائق، قالت مبتسمة:

«على فكرة الولايات المتحدة كانت في حاجة إلى الشفاء السياسي أيضاً بسبب ما حدث لذلك الرئيس الذي استقال، ولكنها دولة سليمة في المجالات الأخرى لدرجة أنها هي التي تساعد معظم دول العالم على التطور والازدهار، خصوصاً بعد أن وافق رئيسها الجديد على بند قانوني جديد ينص على تقديم العون للدول الأجنبية التي تعاني من الفقر المدقع».

فهمت سارة ما قرأته ماري للتو بسهولة ثم اقتربت من والدتها لتشرح لها التفاصيل قائلة:

«هي تقصد بأن هذا البند الجديد يجعله أمراً ضرورياً للولايات المتحدة أن تساعد الكثير من البلدان على النهوض باقتصادها لأنها دولة قوية للغاية». نظرت والدتها إليها بوجه خال من التعابير ثم هزّت كتفيها قائلة لماري:

«من اليوم وصاعداً لا تخبريني بمثل هذه المواضيع. فكما ترين ليست لدى امرأة عجوز مثلي قدرة على فهمها ولذا لا يجوز أن تضيّعي وقتك على الإطلاق».

أضحكتهما كلماتها. بحثت سارة عن أخبار عن لبنان في كل القنوات ولكنها لم تر سوى بعض

الأخبار المحلية عن مصر.

دخلت سارة إلى غرفة النوم بهدوء وطلبت الرز والجمبري كعشاء وعادت إلى غرفة الجلوس عندما أذهلتها أمها حين قالت:

«أنا جائعة، ألا تحسين بالجوع؟».

صارت سارة خائفة من أن تشم أمها رائحة المفاجأة التي كانت تجهزها لها ثم قالت بسرعة:

«طبعاً أحس بالجوع. نستطيع أن ننزل لنبحث عن مطعم بعد مرور عشرين دقيقة».

فرحت ماري والسيدة نبيلة عندما سمعتا ذلك لأنهما كانتا تتضوران من الجوع.

ولكن بعد مرور أقل من خمس دقائق، أدهشهن جميعاً طرقة على الباب، ذهبت سارة لتفتحه دون أن تسأل من كان في الخارج لأنها كانت واثقة بأنه كان الطعام الذي طلبته. فرحت والدتها جداً لدى رؤيته ولكن وصلت سعادتها إلى القمة حين شاهدت بأن الطعام كان أكلها المفضل. رمت ماري نفسها في حضن والدتها.

بعد أن أنهين الأكل، شكرت كل من السيدة نبيلة وماري سارة كثيراً ثم قررن الذهاب إلى الفراش مبكراً بعد الوجبة اللذيذة.

في اليوم التالي، قضين الكثير من الوقت في كنيسة بعيدة عن فندقهن. كانت سارة غاضبة جداً في طريقهن إليها لأنها أخبرت السائق أن يقودهن إلى أقرب كنيسة ولكنها أحست بأنه كان يقودهن إلى أبعد كنيسة متعمداً كي يكسب المزيد من المال منهن. أرادت أن تخبره أن يعود إلى الفندق عند منتصف الطريق ولكن والدتها منعتها من ذلك.

ولدى وصولهن، اكتشفن بأن الكنيسة كانت خالية تقريباً. لم يكن ذلك مفاجأة لأن زيارتهن لم تكن في يوم الأحد. ظهر قسيس عجوز يدعى إلياس ورحّب بهن، وفرح جداً عند اكتشافه بأنهن من لبنان لأنه كان لديه الكثير من المخاوف حول حالة المسيحيين هناك ورغب في الاستفسار منهن عن الحال.

سأل سارة عدداً من الأسئلة الغريبة حول هذا الأمر وأقنعته بأن معظم الأخبار التي يسمعها المسيحيون خارج لبنان عن أقرانهم داخله ليس لها صلة بالواقع.

وبعد ذلك، طلبت السيدة نبيلة منه أن يقوم بالدعاء لهن كي يسافرن إلى الولايات المتحدة بسلام وأن تسير أمورهن هناك على ما يرام. استجاب لطلبها ودعا لهن دعاءً دام لأكثر من ساعتين ونصف.

ثم عرّفهن إلى ابنه، شاب يدعى بطرس وكلّفه أن يقلّهنّ بسيارته حول أهم الأماكن في القاهرة قبل العودة إلى الفندق. شكرنه جميعاً فيما وعدته سارة بأنهن سيزرنه حالما يرجعن إلى القاهرة في المستقبل. كانت الساعة السادسة في المساء عندما غادرن الكنيسة.

استمتعن جداً بوجود بطرس لأنه شاب مهذب وحيوي. قادهن إلى الأهرامات ثم إلى عدة أماكن مهمة مثل منطقة اسمها عتبة حيث تباع أكثر وأفضل الكتب في القاهرة، بعدها عدن إلى الفندق حوالى الساعة العاشرة مساءً وهن مرهقات.

اتصلت سارة لدى عودتهن بالقسيس الذي قال السيد وتسون بأنه سيساعدهن في العثور على العمل والسكن في الولايات المتحدة، فالتوقيت في الولايات المتحدة يسبق التوقيت في مصر بخمس ساعات، ولذا كان الوقت مناسباً لتلك المكالمة. تحدثت إليه وأخبرته بأنهن سيسافرن إلى الولايات المتحدة في اليوم التالي وسيصلن هناك في اليوم الذي يليه عند الساعة الثامنة صباحاً. طمأنها بأنه

سيكون في انتظارهن لدى الوصول إلى المطار.

استفقن مبكراً جداً في اليوم التالي ووصلن المطار في الساعة السابعة صباحاً، أربع ساعات قبل رحلتهن. كان الحماس واضحاً على وجوههن لأنه لم تسبق أن استقلت إحداهن طائرة.

كان هناك موظف في المطار قد لاحظ بأنهن كنّ تائهات وليس لديهن أي خبرة في السفر عبر المطار وقرر أن يساعدهن. قام بكل الترتيبات ثم قادهن إلى بوابة طائرتهن. أحست سارة عندئذ بأن زوجها المرحوم هو الذي أرسل ذلك الرجل ليسهّل لهن الطريق وشكرته جداً لعونه.

اجتاح كل من سارة وماري اشتياق شديد لأنطوان. أخذتا تتمنيان لو كان معهما، نفس الشعور الذي خالجهما لدى مغادرتهما السفارة الأميركية قبل يومين.

32

9 ديسمبر 1974

كان اليوم الذي شهد وصولهن إلى الولايات المتحدة بارداً جداً. دخلن مطار جون. ف. كيندي، أكبر مطار في نيويورك مرتجفات وقلقات. وربما هذا ما سهّل لهن الطريق للدخول لأن مسؤولو الأمن أحسوا بالإشفاق لدى رؤية السيدة نبيلة مرتعشة، هكذا تم السماح لهن بالمرور بسرعة.

ولكن الجزء الثاني من مرحلة وصولهن كان أصعب بكثير لأنهن اضطررن إلى الانتظار لمدة ساعتين للحصول على الحقائب. كان انتظاراً طويلاً لدرجة أصبحن آخر من غادر المطار من ضمن ركاب الطائرة.

وبعد ذلك توجهن نحو مخرج المطار للانطلاق نحو التفاح الكبير، اللقب المشهور الذي يستعمله محبّو نيويورك. وأول شيء لفت انتباه سارة كان رجلاً أبيضاً وعجوزاً سميناً يمسك لافتة كتب عليها اسمها. ذهبت إليه على الفور وقدمت نفسها وبقية عائلتها إليه قائلة:

«أنا سارة إلياس وهذه ابنتي ماري وأمي السيدة نبيلة». ابتسم ثم قال:

«وأنا سيد أندرو، تشرفت برؤيتكن أخيراً، هيا بنا، علينا الهروب من هذا البرد القاتل».

ثم سلّم عليهن جميعاً وقادهن إلى سيارته الفورد الزرقاء التي استغرق المشي إليها خمس عشرة دقيقة ولدى وصولهم، قال السيد أندرو نكتة لم يفهمها سوى ماري بسبب قراءتها المكثفة للّغة الإنكليزية أثناء الرحلة الطويلة، قال لهن:

«بالنظر إلى هذا الطقس الفظيع، لكان أحسن وأذكى لو جئتن قبل أو بعد ستة أشهر من السنة ». انفجرت ماري ضاحكة ثم شرحت لأمها وجدّتها ماكان يقصده من النكتة وابتسمتا بدورهما أيضاً. ثم أصبح صوت مضيفهنّ أكثر جدية حين قال:

«بصراحة وددت لو أعرف رأيكن عن هذه البلاد العظيمة». سارة التي قد بدأت تعتاد على كلامه السريع ردت قائلة:

«كل ما رأيته لغاية الآن يعجبني ما عدا تجربتنا السيئة لدى استلامنا حقائبنا في المطار، أظن بأنه يجب على حكومتكم أن تحسّن خدماتها في المطار». سكت السيد أندرو لبرهة فيما فكّر بما قالته ثم سألها:

«ما اسم الخطوط الجوية التي سافرتنّ على متنها؟» ردت ماري بالنيابة عن والدتها:

«جئنا من خلال الخطوط البريطانية وتوقفنا في لندن لأكثر من ساعة». ابتسم ثم قال لسارة:

«المشكلة التي كانت لديكن ترجع إلى أن الخطوط الجوية يا مدام هي التي تهتم بأي موضوع متعلّق بالحقائب، لو كانت خطوط جوية أميركية، لما تمكنت من الدفاع عن بلدي، أشكر ربي بأنك لم تختاري شركة أميركية». انفجروا جميعاً ضاحكين ما عدا السيدة نبيلة التي لم تحاول حتى للحظة أن تفهم ما كان يقوله.

وبعد ذلك خيّم سكون تام فيما قاد سيارته عبر منطقة مشهورة جداً قرب المطار تدعى كوينس في طريقهم إلى بروكلين حيث سكنهم الجديد. كن يتأملن الولايات المتحدة بتمعّن لأنهن لم يسبق أن رأين مثل جمالها الساحر. والمدهش في الأمر هو أن الجمال الذي كن يشاهدنه لم يكن فقط من خلال المباني الملفتة للنظر، ولكن من خلال الحرية التي يتميز بها سلوك الناس في الشوارع وسياراتهم. كان لديهم نوع من الاستقلال يشبه الحرية التي تطير بها الطيور. كانت ماري مذهولة جداً بالبلد

لدرجة لم تعرف كيف خرجت كلمة ممتاز من فمها. كلهم سمعوها ولكن كان السيد أندرو هو من قرّر أن يعلّق:

«عما كنت تتكلمين عندما قلت ممتاز يا ابنتي؟» كانت ماري خجلة حين أجابت:

«كنت أتكلم عن كل ما أراه حولي، كل ما رأيته لغاية الآن ممتاز، ولن أستغرب لو لم توافقني الرأي لأنك تربيت هنا وأنت معتاد على كل هذه المشاهد التي قد تبدو عادية جداً في نظرك». ضحك ضحكة طويلة قبل أن يقول:

«أعرف بأنه سيصعب لك التصديق لو أخبرتك بأنني ما زلت قادراً على رؤية جمال بلدي، ولا يمر يوم لا أشكر فيه ربي لأنني ولدت في الولايات المتحدة». وبعد ذلك ساد الصمت أوساطهم بقية الرحلة والتي استغرقت ساعتين بسبب الزحمة.

وصلوا أخيراً إلى منطقتهن الجديدة، مكان يدعى بروكلين هايتس. لم يحببن المكان في البداية لأنهن وعند اقترابهن إلى مبناهن، شاهدن رجلاً متشرداً مستلقياً على بعد حوالى مترين من المبنى. ولدى خروجهن من السيارة، تنبّه السيد أندرو إلى انزعاجهن من الطريقة التي كن ينظرن بها إلى بعضهن البعض ثم قال:

«أنا أعرف ما يدور في بالكن - لماذا تترك الولايات المتحدة مواطنيها في الشوارع بالرغم من ثروتها؟ الحكاية ليست سهلة، كل ما في الأمر هو أن معظم هؤلاء المتشردين مدمنون للمخدرات، باختصار، هم الذين جنوا على أنفسهم. فالولايات المتحدة قد تأخذك إلى البحر ولكنها لن تجبرك أن تشرب منه».

كانت سارة مطمئنة أكثر من كلامه ولكنه ما زال هناك أمر يشغل بالها:

«هل تظن بأننا في أمان ما دام يوجد رجل مثله قريباً منا؟» تفهّم موقفها وقال على الفور:

«الناس مثله لا يستطيعون أن يؤذوا أحداً، كل ما سيطلبونه منك في العادة هو أن تعطيهم أصغر قطعة نقدية نسميها هنا ديم dime»، ثم أخرج نسخة للقطعة النقدية من جيبه وقدمها إليهن قائلاً:

«هذه هي، لا أعرف إذا كان صغرها سيسمح لكنّ برؤيتها بسهولة». أضحكتهن كلماته ثم ساعدهن بحمل حقائبهن وصعدوا إلى الطابق الثاني حيث شقتهن.

لدى دخولهم تعلمت سارة شيئاً مهماً عن الأميركيين هو أنهم يكسبون مالهم من عرق جبينهم ولذلك لا يلعبون به. بينما أخذ كل من والدتها وابنتها بتأمل الشقة الجديدة، حثها السيد أندرو أن تجلس بجانبه ثم قال:

«لقد تحدث إليّ السيد وتسون وأعطاني فكرة عن ميزانيتك واستناداً إلى ذلك، دفعت ألف ومائتين دولاراً بدل ايجار لهذه الشقة لمدة ثلاثة أشهر بالنيابة عنك، أريدك أن تعطيني هذا المبلغ الآن، فهذه المستندات تثبت أقوالي». لم تعرف سارة لماذا كان مستعجلاً لهذا الحد، لم يعطها حتى فرصة لتستريح، ولكنها أخفت خيبة أملها فيما نهضت وتوجهت إلى حقيبة يدها التي كانت على طاولة قريبة منها، ولحسن حظها، كان السيد وتسون قد أرسل سكرتيرته كي تبدّل مالها إلى الدولار ولذا لدى حضورهن إلى الولايات المتحدة، كان في حوزتها ثلاثة آلاف دولار. أخذت المال بينما شكرت ربّها لأن الباقيتين لم تكونان موجودتين لرؤية المشهد الغريب. استلم السيد أندرو المال منها وأحصاه بجدية حتى تأكد بأنه كان كاملاً. ابتسم عندئذ ثم طلب منها أن تنادي ماري كي تستمع إلى شيء مهم.

«ما هو الحلم الأميركي؟ هو الهدف النبيل الذي تعطي الولايات المتحدة كل من يأتي إليها الحق بتحقيقه من خلال العمل المجتهد المبني على أسس القيم والمبادئ. وهل يمكن إذاً أن يحقق أحد

الحلم الأميركي دون العمل؟ فالإجابة لا طبعاً»، توقف لبرهة ثم استطرد قائلاً:

«ولذا قد وجدت العمل لكما بعون ربنا من خلال بعض أعضاء الكنيسة»، ثم توجّه بنظره إلى سارة، وقال:

«بإمكانك أن تكسبي تسعمائة دولار شهرياً كمساعدة لمدير مطعم في الفرع الجديد في مطعم يملكه رجل محترم يدعى شون كنتلو»، توقّف مجدداً ثم نظر إلى ماري واستمر:

«أما بالنسبة إليك يا أميرة، هنالك عمل لك إذا أحببت كمساعدة في التدريب لإحدى المستشارات في منظمة خيرية تهدف إلى إعادة أطفال تتراوح أعمارهم بين ست وعشر سنوات إلى المدارس الابتدائية، ومرتبك ستمائة دولار شهرياً». فرحت سارة لدى سماعها هذا الخبر لأن دخليهما سيضمنا لهن معيشة بدون مشاكل مالية على ما يبدو، ولكنها شكت في إمكانية تحمّل ماري مسؤولية منصبها ثم قالت:

«أشكرك جداً على هذين العرضين الذهبيين وأتمنى أن يعوّضك ربنا، بل هل تظن بأن ماري قادرة على القيام بمثل هذه الوظيفة نظراً إلى سنها؟» اندهش من سؤالها لأنه ظن بأن ماري كانت تبلغ على الأقل ثلاثة وعشرين سنة ثم ألقى إليها نظرة مستفسرة وقال:

«كم عمرك يا ابنتي؟» ولما أخبرته بأن عمرها كان ثمان عشرة سنة فقط، قال:

«علينا أن نبحث إذاً عن وظيفة جديدة». ولكنها عارضته لأنها كانت تعتبر تلك الوظيفة كهدية من السماء كي ترضي ضميرها. رجته قائلة:

«من فضلك، لا تبحث عن عمل جديد لأني في حاجة إلى تلك الوظيفة أكثر مما تتخيل، أرجوك... أرجوك». نظر إليها في ارتباك بينما ظلت والدتها صامتة. وبعد برهة ردّ عليها قائلاً:

«سوف نترك ذلك القرار لصاحبي المنظمة لأنه يجب علي أن أخبرهما سنك الحقيقية، السيد والسيدة كيسنجر عضوان بارزان في الكنيسة ولا أريد تخييب أملهما أبداً». ابتسم وربّت على كتفها ثم نهض للرحيل وقال:

«أهلاً وسهلاً بكن في الولايات المتحدة مجدداً». ولكن قبل أن يتوجه نحو الباب، سألته سارة عن سعر الأثاث الذي يوجد في الشقة. ابتسم ثانية وقال:

«تكاليف الأثاث تشكّل جزءاً من الإيجار يا سيدتي، وبالمناسبة، من المتوقع أن تبدآ بوظيفتكما بعد أسبوع بالضبط». استدار وخرج من الشقة بعد أن شكرتاه مراراً وتكراراً على المساعدة.

10 ديسمبر 1974

انتسب إسحاق الى المعهد الإنكليزي كما وعد بأنه سيفعل. فذلك المعهد في نظره لم يكن مجرد كلية، ولكنه كان الوسيلة المتاحة له كي يفي بوعده لماري.

أراد أكثر أن يتفوق في اللغة الإنكليزية بعد أن سمع بأن ماري قد هاجرت إلى الولايات المتحدة فإجادته لها ستمكّنه من التحدث بها معها عندما يراها مجدداً. كان متأكداً بأنها قد تكون تتكلم الإنكليزية أفضل من العربية وسيرغب في إدهاشها بلغته الإنكليزية الممتازة.

وقرر أيضاً أن يتقرّب من الله من خلال دينه الإسلام، لأنه ما زال يؤمن بأنه لن يراها مجدداً إلا بعون الله، ولذا كان غرضه الأهم هو أن يثبت لرب العالمين بأنه يستحق الغفران وفرصة أخرى لمقابلتها مجدداً.

بدأ يمضي المزيد من الوقت في المسجد القريب من بيته، وقابل عدداً من الأفراد أصحاب أفكار مختلفة عنه، كانوا متطرفين ولم يكرهوا المسيحيين فقط، بل كانوا ينتظرون أقرب فرصة للهجوم عليهم وقتلهم، كان إسحاق مندهشاً يوماً ما عندما اكتشف بأن مصطفى، أحد أصدقائه المقرّبين قد انضم إليهم.

في ذلك اليوم، كانا يسيران إلى البيت معاً بعد صلاة الجمعة حين قال مصطفى:

«أنا أنتظر بداية الحرب الأهلية التي يتنبأ بها الجميع على نار لأن هناك رجلاً مسيحياً أرغب في قتله». حدّق إسحاق إليه بذهول ثم قال:

«كيف تتكلم عن الانتقام من خلال الحروب وأنت تعرف جيداً بأن الرسول لم يلجأ إلى الحرب إلا من أجل الدفاع عن النفس؟» نظر إليه مصطفى بحدّة قبل أن يرد عليه:

«لا ألومك لأنك لا تعرف القصة بالكامل». تنهّد إسحاق ثم قال:

«سيستغرق مشينا على الأقل عشرين دقيقة، يمكنك إذاً أن تخبرني القصة».

قطّب مصطفى وجهه لأنه يحس بحقد كلما تذكّر الموضوع:

«إن جاري مسيحي، تربّينا سوياً وكنا صديقان حميمان بالرغم من الفروق الدينية. فجأة بدأ يبدي اهتماماً في الإسلام وأخذ يستفسر مني عن أشياء كثيرة عن ديننا يومياً. وصلت الأمور إلى درجة أنه أعطاني انطباعاً بأنه كان على وشك اعتناق دين الإسلام».

توقّف قليلاً، رفع حجراً من الأرض ورماه بعيداً قبل أن يستطرد قائلاً:

«ولكن ذات يوم جاء جاري هذا إلى بيتي مبكراً في الصباح وترك لي حقيبة مع أختي ثم رحل دون أن ينتظر خروجي من الحمام، هل تعرف ما كان في داخل الحقيبة؟ كل الكتب الخاصة بالإسلام التي أعطيته إياها، أرجعها لي مع رسالة قصيرة قال فيها بأنه ولد مسيحياً وسيموت مسيحياً. والآن لا يسلّم عليّ عندما يراني بالصدفة». تنهّد وأنهى كلامه قائلاً:

«عندما تبدأ الحرب، سيكون جاري الشخص الأول الذي سأقتله».

سكت إسحاق لبرهة كي يهدّىء أعصاب صديقه، وبعد خمس دقائق رد عليه:

«هل تتذكر الآية في القرآن حيث قال الله فيها بأنه لا إكراه في الدين؟» حدّق مصطفى إليه في

حيرة فيما قال:

«نعم، أعرف هذه الآية، ولكنني لا أظن بأنها لها أي صلة بحديثنا». هزّ إسحاق رأسه ثم أضاف:

«لا يا صديقي، فحديثنا متعلّق بهذه الآية تماماً. أنت غاضب من هذا الشاب لأنه أبدى استعداداً للدخول في الإسلام ولكنه غيّر رأيه في الآونة الأخيرة. عليك أن تفهم بأنه ليس لديك الحق أن تغضب منه أو تكون مصرًّا على إسلامه لأن الله حرّمك من ذلك من خلال آيته)لاَ إِكْرَاهَ في الدِّين...(».

لم يصدّق مصطفى ما كان يسمعه ثم طرح على إسحاق سؤالاً:

«هل تريد أن تدّعي بأنك لست على علم بأن ربنا يريدنا أن نرى أهل الكتاب، أي المسيحيين واليهود كالأعداء؟».

لم يصدّق إسحاق أيضاً ما كان يسمعه لأنه لم يتوقع أبداً بأن مثل تلك الكلمات الممتلئة بالحقد والكراهية تخرج من فم شاب لطيف وودود مثل مصطفى، ولكن بالرغم من ذلك، تمكّن من السيطرة على أعصابه فيما أجابه بسؤال آخر:

«هل بإمكانك أن تأكل في بيت عدوك؟» استغرب مصطفى السؤال وأجابه بتردّد قائلاً:

«لا، إلا في حال عدم وجود خيار آخر، لماذا سألت ذلك السؤال؟» تنهّد إسحاق ثم قال:

«سألته لأنه لو ينبغي أن نرى المسيحيين كالأعداء كما تقول، لحرّمنا الله من أكل اللحم الذي يبيعونه، وأنت تعرف جيداً مدى أهمية الطعام في ديننا».

حدّق مصطفى إليه بغيظ وقرّر أن يبتعد عنه، ولكنه أحسّ بضرورة إخباره شيئاً مهمًّا قبل ذلك:

«أنت تذكّرني بالمنافقين الذين لطالما كانوا يشكّلون أكبر عقبات في طريق رسولنا الكريم في المدينة المنورة. أنت مثلهم بسلوكك الدبلوماسي هذا الذي يجعلك دائماً مع كلا الجانبين دون أن تنضمّ إلى صفوف أي جهة. أكرهك وأكره كل المنافقين». ثم أسرع خطاه حتى اختفى عن نظر إسحاق.

أفسد النقاش مزاج إسحاق تماماً فيما أخذ يفكر في مصير بلده. لقد حدث الكثير من التطورات المخيفة مؤخراً. في ذلك اليوم، لم يبق سوى أربعة أشهر قبل اندلاع الحرب الأهلية في لبنان وكانت إشارات اقترابها واضحة جداً.

كان هناك ازدياد كبير في عدد الفلسطينيين في لبنان لدرجة أصبحوا يعدّون عشرة في المائة من سكان لبنان، وبدأ عدد منهم بشن هجمات على إسرائيل من أراضي لبنانية بعون بعض المسلمين. لم يؤيد الكثير من المسيحيين اللبنانيين هذا الموقف لأنهم فضّلوا إبعاد بلادهم عن ذلك الخلاف.

وكان الاقتصاد اللبناني يمر بحالة مضطربة جداً وما جعل الوضع أكثر تعقيداً كان العدد المتزايد من الناس الذين كانوا يتركون الريف ليستقروا في بيروت دون أن يجدوا العمل. كان من السهل أن يتم إغراء الكثير من هؤلاء الأشخاص بالانضمام إلى الجماعات الإسلامية والمسيحية. هكذا أصبح شبه مستحيل أن لا تحدث مواجهة بين هذه الجماعات.

ظل إسحاق حزيناً في طريقه إلى البيت ولكنه قرر أن لا يفقد الأمل في أن يعيد مصطفى وأمثاله إلى الصراط المستقيم، سوف يبذل المزيد من الجهد حتى يسمعهم صوت المنطق والعقل. وعندما وصل إلى البيت، أخذ يشكر ربه لأن ماري كانت بعيدة عن البلد في هذا الزمن.

16 ديسمبر 1974 - ديسمبر 1978

مرت الأربع سنوات الأولى في الولايات المتحدة بسرعة لدرجة كان من الصعب التصديق بأن كل هذه السنوات قد ولّت. أصبحت ماري ووالدتها وجدتها مواطنات أميركيات في هذه المدة التي بدت كبضعة أشهر فقط.

الحدث الأكبر في هذه المدة كان وفاة السيدة نبيلة. كانت المرأة العجوز تتمتع بصحة جيدة ولكن أخباراً مقلقة عن الحرب الأهلية في لبنان أثّرت عليها بشكل سلبي جداً. في البداية، كان من السهل عليها أن تتحمل بعض الظروف الساخنة في وطنها لأنها كانت قادرة على التحدث مع الناس في صور عبر التلفون، وكانت تفعل ذلك يومياً مما كلفهن كثيراً. ولكن بعد تدهور الأمور أكثر في لبنان، انقطعت الخطوط الهاتفية مما جعل من المستحيل عليها أن تعرف المستجدات هناك. أخذت تشعر منذ تلك الحين وكأنها شجرة ضربتها صاعقة.

كانت تحس بالوحدة في أيامها الأخيرة حتى قررت أن تشترك في جماعة مكونة من أفراد في سنها في الكنيسة. كانت هناك اجتماعات يومية ما عدا يومي السبت والأحد. وعند هذه اللقاءات، كان الجميع يتلون الإنجيل مع بعض وسط مناقشات حول مواضيع دينية واجتماعية.

ولكن في صباح يوم ما في عام ألف تسعمائة وثمانية وسبعين، سقطت السيدة نبيلة على سلالم المبنى في طريقها إلى الكنيسة وماتت على الفور.

تمّ نقلها إلى أقرب مستشفى وحين وصلت ابنتها وحفيدتها أخبرهما الطبيب بأنها كانت ميتة قبل وصولها. ثم قال بأنه كان على استعداد ليجري بعض الفحوصات لتشخيص السبب الحقيقي الذي أدّى إلى موتها، ولكن سارة رفضت هذا الاقتراح لأنها تذكرت غضب والدتها حين أبلغتها بأنه تمّ فعل شيء مماثل لزوجها بعد موته. كانت ماري محطمة ولكنها بذلت كافة جهودها كي تبدو قوية لتدعم والدتها التي كانت تبلغ من العمر خمسة وأربعين عاماً عندئذ.

تم دفنها في مقبرة عامة في بركلين في جنازة حضرها الكثير من أعضاء الكنيسة، كانوا يعرفون تلك المرأة العربية العجوز التي قضت أكثر وقت في الكنيسة من أي مكان آخر وكانوا يحبونها جداً.

أما بالنسبة إلى ماري من الفترة سنة 1974 إلى سنة 1978، فكانت مشغولة للغاية بعملها الجديد كمساعدة لإحدى المستشارات في منظمة خيرية تدعى Kids Back On Track. تأسست تلك الهيئة لمساعدة الحكومة في نيويورك لإعادة الأطفال الصغار الذين تركوا المدرسة إليها.

تمكّنت ماري من إقناع أصحاب المنظمة، السيد والسيدة كيسنجر بأنها قادرة على القيام بما يتطلب منها منصبها بالرغم من صغر عمرها. كانت صعبة في البداية بسبب التحديات التي واجهتها باللغة الإنكليزية، ولذا استغرقت مدّة التدريب ستة أشهر بدلاً من ثلاثة أشهر.

ولكن كان هناك عدد من الصفات تميّز بها سلوكها واكسبها مكاناً في قلوب أصحاب المنظمة، ومن ضمنها حماسها الواضح تجاه العمل، فهي كانت تأتي إلى المكتب قبل الموظفين وتغادره بعدهم يومياً، واهتمامها باللغة الإنكليزية كان أيضاً شيئاً أثار الكثير من الإعجاب لدى أصحاب المنظمة وزملائها فيها، فهي كانت تغادر المكتب كل مساء إلى فصول تعلّم اللغة الإنكليزية وتفوّقت فيها قبل مرور خمس أشهر فقط.

تم تعيينها تحت إشراف امرأة تدعى أولغا تكبرها بسبع سنوات،كانتا مختلفتين جداً عن بعضهما، في المظهر مثلاً، كانت أولغا بشعة بينما كانت ماري جميلة جداً. وحتى في التعليم، كانت أولغا

خريجة الجامعة باختصاص العلوم النفسية بينما لم تكمل ماري حتى الثانوية. وشيء آخر كان يميّزهما عن بعضهما، كون ماري مسيحية بينما أولغا لا تؤمن بالله على الإطلاق.

ولكن بالرغم من عدم وجود الكثير من الصفات المشتركة بينهما، أصبحت أولغا في غضون مدة وجيزة القدوة والمثل الأعلى في حياة ماري بسبب امتيازاتها المهنية، فهي كانت موهوبة بشكل استثنائي في عملها كمستشارة. وكانت مهتمة بماري جداً وبذلت قصارى جهدها كي تعلّمها كل ما كانت تعرفه عن المهنة، واستفادت ماري منها بطرق لا تحصى لدرجة أنها كانت مقتنعة بأن أولغا هي من تستحق المديح لكل إنجازاتها في العمل.

بعد أن أكملت ماري تدريبها، قررت أولغا أن تسمح لها بالإشتراك في مهمة صعبة بخصوص ولد ذكي لديه ثمانية أعوام يدعى لروي أندسون. فقد تغيّب هذا الولد عن مدرسته الإبتدائية منذ عشرة أيام ولم يستطيع موظفو المدرسة أن يحصلوا على أي معلومات عنه. تم إرسال ملّفه مع صورته إلى السيدة كيسنجر، المديرة في منظمة ماري كي تجد حلاً لهذه المعضلة وكلّفت أولغا على الفور بمتابعة الأمر.

«عليك أن تتحركي بسرعة لحل هذا الموضوع. يستحسن لو رافقك شوك آمنوي لأنه يتمتع بخبرة أكثر في هذا الميدان، وبالإضافة إلى ذلك، عضلاته قد تخيف أي رجل يحاول الاعتداء عليك في تلك المنطقة الخطيرة».

قطّبت أولغا وجهها لأنها لا تتحمل التواجد في أي مكان مع شوك فهو يعتبر نفسه في نظرها هدية من السماء لكل نساء العالم.

«لا أظن بأن هناك داع للذهاب معه، لن يحدث لي شيء، أفضّل أن ترافقني ماري». ذهلت السيدة كيسنجر ثم قالت:

«هل تعين ما تقولينه؟ تلك الفتاة لن تنفعك الآن في مثل هذه المهمة المعقدة. هي لا تجيد اللغة الإنكليزية ولا أظن بأنها مؤهلة بعد. على فكرة سيعتبر إرسالها هناك بمثابة محاولة لتعليم رجل أعمى كيفية استعمال المسدس». تنهّدت أولغا ولكنها لم تستسلم بعد:

«أنا لا أعرف لماذا أرى القوة في تلك الفتاة. أنا متأكدة بأنها تستطيع أن ترفع جبلاً لو نعطيها الفرصة فقط، صدّقيني!».

كانت السيدة كيسنجر مندهشة من مدى حماسها، تنهدت ثم قالت مستسلمة:

«ناديها كي أتحدث إليها قبل أن أتخذ قراراً حول طلبك».

ركضت أولغا مسرعة كي تبحث عن ماري، ثم رجعتا معاً إلى مكتب المديرة التي قالت لدى رؤيتهما:

«بدلاً من أن تذهب أولغا إلى برنكس مع رجل، تريد أن تذهب إلى هناك معك في عملية إنقاذ. أنا أخاف من أن تكونا أنتما من ستحتاجان إلى الإنقاذ لدى وصولكما هناك». ضحكن جميعاً ثم قالت ماري:

«لا أظن بأنه سيكون هناك أي خطر ما دام أنا وهي جنباً إلى جنب. وبالإضافة إلى ذلك الإحصائيات الموجودة عندي تفيد بأن معظم الجرائم التي ترتكب في تلك المنطقة تحصل بين الساعة الرابعة بعد الظهر والساعة الثانية بعد منتصف الليل».

توقفت قليلاً ونظرت إلى ساعتها قبل أن تكمل.

«الساعة ما زالت العاشرة صباحاً، ولذلك سوف نكون في أمان».

كانت المديرة مندهشة من عزمها وتمنت لو كان زوجها موجوداً لمشاهدة تحسّنها اللغوي لأنه كان أكثر تشاؤماً من احتمال نجاح ماري في المنظمة.

«برافو عليك يا ماري، أرى تقدماً واضحاً. أصبحت تتكلّمين الإنكليزية مثلنا بالضبط لدرجة أصبحت تحلّلين الإحصائيات أيضاً». توقفت لبرهة قبل أن تضيف:

«عليكما أن تذهبا الآن قبل أن يصبح الوقت متأخراً وأغيّر رأيي وأمنعكما من الذهاب». قفزتا من كرسيهما فيما أسرعتا بوجه يعلوه فرح عارم.

كانت تلك مهمتها الأولى، وكانت ماري مصمّمة على أن تثبت بأن لديها القدرة على النجاح.

قبل مغادرة المبنى، أخذتا حقيبتيهما وعشرة دولار من محاسب المنظمة لتغطية تكاليف نقلهما والأكل في حال إحساسهما بالجوع في الطريق. ولكن على بعد بضعة مترات من المكتب، سمعتا صوت شوك آمنوي قائلاً:

«انتظراني لأني سآتي معكما».

توجه نحوهما وهو يتنفس بسرعة ولكن قاطعته أولغا قبل أن ينطق بكلمة اخرى:

«جئت متأخراً يا رجل، المديرة كلفتني أن أقوم بهذه المهمة بمرافقة ماري فقط». تنهد ثم قال:

«هذا غير معقول لأنها من اتصلت بي وأخبرتني أن آتي إلى العمل اليوم بالرغم من أني في إجازة». قطّبت أولغا وجهها ثم قالت:

«لو لم تصدقني، فلنذهب إليها ونسألها مباشرة».

لم يرد شوك أن يفعل ذلك على الإطلاق لأنه أحس بأن المديرة ستخبره أن لا يرافقهما. رد عليها قائلاً:

«عندي فكرة أفضل، فلنرمي قطعة نقدية ولو خسرت، سوف أترككما».

غضبت ماري لدى قوله ذلك لأن كلامه ذكّرها بإسحاق حين اقترح بأنه ينبغي أن تقرر القطعة النقدية عما إذا كان زواجهما سيكون في كنيسة أو مسجد، نظرت إلى أولغا بسرعة وتدخلت لتنهي الأمر:

«دعيه يأتي معنا، قد نحتاج إليه».

هزت أولغا كتفيها ثم استدارت لمتابعة المشي فيما تركت شوك في حيرة. بدأ يمشي وراءهما ساكتاً كشبح.

ساد الصمت في الجزء الأول من الرحلة. لطالما كان هناك توتر ملموس في علاقة أولغا وشوك. كانت تحبّه عندما توظّف في المنظمة ولكن تحوّل ذلك الحب بمرور الوقت إلى نوع من الحقد نتيجة إهماله لمشاعرها، حتى عندما دعته يوماً للعشاء في شقتها وطبخت له أكله المفضل، لم يأت ولم يعتذر بعد ذلك لعدم حضوره.

أما بالنسبة إلى شوك، فكان فرحاً عندما استقل القطار معهما. كان يريد أن يتقرب إلى ماري منذ مدة وحاول أن يفعل ذلك مراراً وتكراراً ولكنها تجاهلته، نفس تصرّفه مع أولغا ولكنه فكّر بأنها كانت تتصرف كذلك لأنهما كانا في المكتب، أبى أن يصدق بأنها غير مهتمة به لأنه لطالما كان يدخل قلوب النساء بسهولة بسبب وسامته وشخصيته المثيرة وخفة دمه.

حاول أن يفتح حواراً ثم اختار موضوعاً وقال:

«أنا أعيش في منطقة قريبة من البرنكس، أعرف ذلك المكان جيداً مما يجعل من مرافقتي لكما أمراً إيجابياً».

لم يتلق ردًّا منهما وقرر أن يقول شيئاً كي يلفت انتباههما:

«يا جماعة، أنا في الورطة، احتاج إلى نصيحتكما وللأسف، ليس الوقت في صفي».

قال تلك الكلمات بنبرة حزينة وجادة. وردّت أولغا قائلة:

«الناس لبعضها، تكلّم وسنساعدك لو كنا نملك حلاً». شكرها ثم قال:

«تخرجت أختي الوحيدة من الجامعة قبل بضع سنوات وبحثت عن عمل لمدة طويلة، ولكنها لم تحصل على وظيفة سوى الأسبوع الفائت عندما تم منحها عملاً في شركة سياحية». ركّز عينيه على ماري ثم استمر:

«سوف تضطر إلى الانتقال إلى باريس لتعمل هناك وهنا تكمن المشكلة. لديها خطيب عصبي هددها بفسخ الخطوبة في حال قبولها الوظيفة لأنه يقول بأنه لا يستطيع أن يعيش معها خارج الولايات المتحدة»، توقف قليلاً ثم استطرد:

«هذه ليست المرة الأولى التي يتركها فيها، فهو يفعل ذلك كثيراً في لحظات الجنون المؤقتة ثم يعود ويعتذر، ولذلك ترغب أختي في أن تقبل هذه الوظيفة، فهي تظن بأنه سيرجع آجلاً أو عاجلاً، ولكنها ليست متأكدة تماماً من ذلك وتريدني أن أساعدها في اتخاذ القرار السليم». تنهّد ثم أنهى كلامه:

«ليست عندي أدنى فكرة بشأن القرار الصحيح وهي محتاجة إلى رأيي غداً». ثم ارتسمت نظرة قلق على وجهه.

أحست ماري وأولغا بالكثير من الإشفاق نحوه، لم تعرفا بأن أغلب القصة كان كذباً. لقد حصلت أخته على الوظيفة فعلاً ولكنها لم تواجه أي اعتراض من خطيبها الذي كان متحمساً أكثر منها وكان يحاول أن يقنعها أن يتم زواجهما في باريس بدلاً من الولايات المتحدة. اخترع شوك كل تلك التفاصيل ليلفت بها انتباه ماري التي فكّرت طويلاً، ثم قالت:

«أظن بأن أختك تمتلك الحق أن تختار مسيرة حياتها بنفسها، ولا يجوز أن تربط مصيرها برجل عصبي يريد أن يهيمن عليها بسبب عدم ثقته بنفسه».

تفوهت بتلك الكلمات ثم أخذت تنظر خارج الشباك دون أن تنتظر ردًّا منه كأنه لم يعد بجانبها.

شكرها شوك للنصيحة ولكنه إندهش بأنها انشغلت فجأة عنه كأنه لم يستحق اهتمامها لثانية إضافية. شهدت تلك اللحظة لحظة وقوعه العميق في غرامها. وكان ذلك واضحاً من نظراته إليها التي عبّرت عن إعجابه الكبير تجاهها وفضوله الواضح بكل ما يخصها.

لاحظت أولغا حبه لماري وأحست بالغضب نحوه لأنه لم يحبها كما كانت تحبه، بينما شعرت بالامتنان نحو ماري لعدم اهتمامها به ثم قالت:

«لقد حلت مشكلتك، نتمنى أن تسمح للهدوء أن يسيطر على بقية الرحلة».

لم يرد عليها، اكتفى بالنظر إليها في صمت قبل أن يبدأ بقراءة مجلة حتى وصلوا إلى البرنكس.

كانت ماري خائفة منذ أن خرجوا من القطار، فهي لم تسبق أن شاهدت صورة عن تلك المنطقة بالرغم من أنها قرأت كثيراً عنها. لم تعرف مثلاً بأنه ستكون هناك كتابات وشتائم عنصرية كثيرة على بعض جدرانها. ولم تعرف أيضاً بأنه يوجد عدد كبير من المدمنين نيام على الأرض.

وكان ذلك اليوم المرة الأولى التي سمعت الكلمة المشهورة joint والتي تعني المخدرات. سمعتها من رجل طلبوا منه المساعدة للوصول إلى عنوان لروي أندرسون. بعد أن أعطاهم التفاصيل، سألهم لو كانوا يريدون شراء الـ joint لأنه كان يظن بأنهم كانوا يبحثون عن مروّج للمخدرات، صرخ شوك وحذّره بشدة.

لم يكن منزل لروي بعيداً عن المحطة. كانوا مصدومين جداً لدى وصولهم إليه لأنهم لم يسبقوا أن شاهدوا مثل التلوّث الذي كان يتّسم به منزله. وبالإضافة إلى ذلك كان المصعد معطلا مما أجبرهم على الصعود عبر السلالم إلى الطابق الخامس حيث شقته. كان من المحزن تخيّل ذلك الطفل الصغير وهو يقوم بمثل هذا المجهود يومياً للذهاب إلى المدرسة والرجوع منها.

لدى بلوغهم الشقة، طرقوا الباب لوقت طويل حتى فتحت امرأة سوداء. كانت غاضبة عند رؤيتهم لأنهم أفاقوها من نومها العميق. لم تقل شيئاً لبرهة فيما أخذت تنظر إليهم بتمعّن ثم قطّبت وجهها وصرخت:

«أنتم في المكان الخاطئ، اغربوا عن وجهي فوراً».

أبريل 1975

بدأت الحرب في لبنان في أبريل 1975 بعد الكثير من التطورات المتراكمة التي أدت إليها. وبالرغم من وجود أسباب حقيقية والتي يمكن أن نشير إليها كعوامل تسببت في اندلاع هذه الحرب الكارثية، لا يمكن أن ننكر بأنه لولا وجود أطراف خارجية كانت تعتقد بأن لديها مصلحة في استمرار هذه الحرب والتي امتدت لخمس عشرة سنة، وذلك لأن الشعب اللبناني لطالما أجاد العيش بسلام لعقود بغضّ النظر عن الفروق الدينية والطائفية.

مثلما يحدث عندما نحلّل الأسباب وراء معظم الحروب، إنه من الصعب أن نحدّد حدثاً كعامل رئيسي للحرب الأهلية في لبنان، ولكن الكثير يؤمنون بأن المجزرة التي حصلت عندما قتل بعض المسيحيين الذين ينتمون إلى جماعات متطرفة ست وعشرين فلسطينياً انتقاماً لأربعة مسيحيين تمَّ قتلهم من قبل جماعة إسلامية متطرفة. مهما كان المحرّك الأساسي، بدأت الأمور تتدهور بعد هاتين المجزرتين حتى أصبح من المستحيل على أحد إيقافها، واستمر التدهور في الوصول إلى القمة مع إعدام الناس في الشوارع من قبل بعض الجماعات التي تمثّل مسلمين ومسيحيين.

وفي غضون ذلك، أخذ الناس يحاولون عدم الخروج إلا للضرورة ويقضون المزيد من الوقت في بيوتهم، خائفين من الموت. كان إسحاق مثلاً في البيت دائماً وعندما يخرج، لا يذهب إلاّ إلى المعهد الإنكليزي أو إلى بيت الدكتور طارق.

وحتى المعهد الإنكليزي، لم تتعدَّ زياراته إليه سوى مرتين شهرياً، والأمر كذلك بالنسبة إلى الدكتور طارق الذي كان يستقبله وكل مرضاه الآخرين فقط في البيت بعد أن تجنب الذهاب العيادة خوفاً على حياته كونها تقع على المعبر الفاصل بين المنطقتين.

وبمرور الوقت توطّدت العلاقة بين اسحاق ود. طارق الذي كان يرى إسحاق كابنه وتوقف عن أخذ النقود منه. وحتى إنه في بعض المناسبات، كان يوصله إلى البيت شخصياً بعد الجلسة، وانتهز تلك الفرصة ليتعرّف إلى والده وأخيه الأكبر ويتحدث إليهما عن عدة مواضيع متعلقة بالبلاد، فهو أصبح تدريجياً جزءاً من عائلتهم الصغيرة.

قرّر إسحاق بعزم من بداية الحرب أن لا يشترك فيها على الإطلاق لأنه لم يرَ فيها أي خير. وقرّبه موقفه هذا قليلاً إلى والده الذي كان يوافقه الرأي، وهو كان مقتنعاً بأن الحرب ليس لها أي داعٍ أو تبرير ووصفها يوماً كشيءٍ خطط له ونفّذه بعض المتربّصين.

ولكن كانت لدى محمود، ابنه الأكبر أفكار مختلفة، فهو لم يفعل شيء سوى مدح بعض أعضاء الجماعات الإسلامية المتطرفة. وكان يقول دائماً إنه كان سيصبح عضواً في هذه الجماعات لو كان يعرف كيفية الانضمام لصفوفهم. وبالرغم من تأكد أعضاء عائلته عن صدق حبه لتلك الحركات، كانوا واثقين في الوقت نفسه من عدم امتلاكه الشجاعة المطلوبة ليكون عضواً فيها لأنه كان جباناً يخاف حتى من ظله؛ أصبح ذلك واضحاً يوماً حين أسرع إلى غرفته وأغلق على نفسه فيها بعد أن سمع صوت الرصاص في آخر الشارع.

وبالنسبة إلى البحث عن عائلة أنطوان إلياس، ظل جمال كشوغي مصمماً على أن يجد ماري ووالدتها، لذلك أرسل محمود ابنه خمس مرات إلى المطعم حيث عمل أنطوان قبل وفاته ولكنه لم يحصل على أية معلومات لأن أبا علي، صاحب المطعم كان غائباً وأبى كافة الموظفين أن يقدّموا أي معلومات في غيابه.

ولكنه رآه أخيراً أثناء زيارته الخامسة وكان الاجتماع قصيراً للغاية. خاب أمل محمود في ذلك اليوم حين سأله أبو علي:

«كيف تتوقّع مني أن أعرف أين توجد عائلة أنطوان إلياس في الولايات المتحدة إذا لم أعرف بأنه توفي أصلاً؟».

رجع محمود إلى المنزل وأخبر والده الذي لم يفقد الأمل ما حصل. اتصل بأخيه الأصغر الذي يسكن في الولايات المتحدة منذ عدة سنوات وأخبره القصة كلها، ثم أعطاه اسم ماري ووالدتها بالكامل كي يفتّش عنهما بأي وسيلة.

تحرّك أخوه بسرعة معتمداً على عدة طرق، ولكنه سرعان ما وصل أمام طريق مسدود لأن رقم التلفون في الشقة التي تعيش فيها ماري ووالدتها لم يكن مسجَّلا باسم إحداهما، فقد كان مسجلاً باسم والدة سارة، السيدة نبيلة شحروري وكان دفتر الأرقام التلفونية أسهل وسيلة للعثور عليهما.

لم يبقَ أمام جمال كشوغي سوى خيار أخير، عليه أن يبحث عنهما من خلال أسرة أنطوان في صور. ولكنه لم يحب هذه الفكرة لأنها كانت تتّسم بالخطر. كان يخاف من أن يكون أعضاء أسرته على علم بكل التفاصيل وراء موته وقد ينوون الانتقام منه أو من ابنه. في هذه الحال، سيكون الذهاب إليهم بمثابة الركض إلى النار متعمِّدا وبعيون مفتوحة. قرّر أن يفكر أكثر قبل أن يتخذ ذلك القرار، ولكنه للأسف كان لديه بعض المشاكل الأخرى.

قدّم استقالته من الشركة المعمارية التي عمل فيها لسنوات كثيرة قبل أسبوع لأن المشكلة التي كانت بينه وبين المدير العام كبرت جداً. وذلك لأنه فشل في العثور على المهندس ماجد، زميله الذي وضع الشركة في ورطة مع الحكومة قبل سفره للعيش في المملكة المتحدة.

أخذ جمال كشوغي شركته القديمة إلى المحكمة مستعملاً تقريراً من اللجنة التي أبعدت ونفت كل التهم الموجّهة إليه كي لا يتم سجنه، وعندما اتضح له بأن الشركة كانت مصرّة على جعله كبش الفداء في هذا الأمر قرّر أن يستقيل.

بعد أن ترك عمله، كانت الظروف صعبة جداً لعائلته، والشيء الوحيد الذي أنقذهم مادياً كان المال الذي كان أخوه يرسله إليه من الولايات المتحدة كل شهرين. لم تعجبه فكرة الاعتماد على أحد ولكنه لم يمتلك حلاً آخر، وعندما لاحظ أخوه عدم راحته تجاه مساعدته، طمأنه لما ذكره بأنه هو من كان قد موّل سفره إلى الولايات المتحدة، وحثّه أن يعتبر مساعدته المالية كتسديد دين قديم.

كان إسحاق يراقب كل هذه الأمور بمرارة وكانت لديه رغبة قوية في أن يساهم بمساعدة عائلته ولكن كانت تنقصه الخبرة العملية أو الموهبة ذات القيمة المالية. وحتى لو كانت لديه هذه الميزات، كيف ستفيده في دولة تخوض حرباً أهلية؟

في هذه الأوقات، كانت هناك فقط ثلاث فئات تستفيد من الوضع في البلاد. أولاً، الجماعة التي ينتم إليها المتطرفون والتي تتمتّع بالتمويل الخارجي. ثانياً، الجماعة التي تشمل القادة الدينيين الذين كانوا يتمتعون بعدد أكبر من الأتباع بسبب مشاكل لا تطاق لدى الجمهور، وشعبية وأهمية هذه الجماعة كانت تزداد بتدهور الظروف. وثالثاً، كانت جماعة مكوّنة من تجار الأسلحة والمخدرات.

كان من السهل جداً أن يفقد إسحاق الأمل في الحياة نظراً إلى كل هذه الأحداث، خصوصاً لأنه لم ينتم إلى أي من هذه الجماعات، ولغلبه اليأس لولا وجود أمر يقوّيه وهو حبه لماري.

وهذا الحب لم يفعل شيئاً سوى الكبر في قلب اسحاق مما كان يدهشه يومياً. عندما كان محبطاً أو مكتئباً، كل ما احتاج إلى فعله هو أن يفكر بها، فتنير حياته من جديد. لم يذكر هذا الأمر لأحد غير الدكتور طارق لأنه رأى فيه الشخص الوحيد الذي لن يسخر منه ويجعله يرى نفسه كمن يعيش في

حلم غير واقعي.

اضطر إلى البوح بهذا الحب العظيم عندما أحسّ بأنه قد أصبح أكبر من قلبه، وكان عليه أن يشارك أحد في حمله. كان على صواب عندما قرّر بأن الدكتور كان الشخص الصحيح للاعتراف بما في قلبه، ولكنه سيكتشف بمرور الوقت بأن الحل الذي يراه الدكتور حلاً مناسباً لقصته مع ماري لن يكون حلاً يرضيه.

بعد أن سمع كل من شوك وماري وأولغا قول المرأة حين صرخت «اغربوا عن وجهي فوراً»، لم يتمكن أحد منهم أن يقول شيئاً لبرهة حتى قرّر شوك أن يكسر الصمت قائلاً:

«كيف أمكنك أن تقولي بأننا جئنا إلى العنوان الخطأ وأنت لا تعرفيننا حتى؟ نحن هنا من أجل لروي أندرسون».

وعند سماعها اسم ابنها، أخذت تصرخ كأنها فقدت عقلها تماماً:

«مَن أنتم؟ من الشرطة؟ اسمعوا جيداً، لم يتجاوز ابني الثماني سنوات، وذلك يعني بأنه لا يستطيع أن يرتكب أي جريمة. لماذا لا تتركوننا في سلام؟».

ظلت تكرّر تلك الكلمات كمن تمَّت برمجته على تكرار ذلك مسبّبة ضجيجاً عالياً. حاول الكل تهدئتها ولكن جهودهم لم تسفر عن أي نتيجة. كانوا مستغربين لأنه لم يخرج أحد من جيرانها ليستفسر عما كان يحدث، فهم لا يعرفون بأن هناك شيئاً متفقاً عليه من قِبَل سكان ذلك المبنى، وهو أن التدخل في شؤون بعضهم البعض ممنوع. ظلت الأمور على هذه الحالة المضطربة حتى ظهر طفل بهدوء من وراء المرأة وقال:

«هل كل شيء على ما يرام يا ماما؟».

لدى رؤيته، أخذ شوك الملف من يد أولغا ونظر فيه كي يتأكد بأن الولد في الصورة يشبه الطفل الذي كان واقفاً أمامه. فرح عندما اكتشف بأنه نفس الشخص، ولكن قبل أن يحصل على فرصة قول أي شيء، حملته المرأة وحاولت أن تقفل الباب بسرعة، ولكن شوك كان أسرع وأقوى منها، استطاع أن يمنعها من ذلك فيما فتح الباب غصباً ودخل الشقة على الفور. لم تذهل تصرفاته المرأة فقط، بل أدهشت زميلتيه أيضاً. وعندما أصبح من الصعب على المرأة أن تتحمل، زمجرت قائلة:

«هل أنت مجنون؟كيف تتجرأ أن تفعل ما تقوم به؟».

تنهّد شوك ثم قال:

«أنا مجنون فعلاً ولكنك مجنونة أيضاً لأنك تريدين أن تدمّري مستقبل هذا الطفل الجميل. كيف تتجرئين على فعل ذلك؟».

كان التوتر يرتفع ويتصاعد بسرعة ولكن أولغا تدخلت لحسن الحظ لتنقذ الموقف بخبرتها الواسعة في التعامل مع الناس. عرفت بأنها إذا كانت تريد تقدُّما سريعاً في هذا الأمر، عليها أن تمثل بأنها تعارض سلوك شوك كي تكسب ثقة المرأة لأنها جاءت برفقته. غمزت له بطريقة أرسلت من خلالها رسالة عن الخطوة التي كانت على وشك اتخاذها كي لا يغضب لاحقاً ثم وبخّته قائلة:

«كيف تتصرّف بمثل هذه الوحشية أمام النساء يا أحمق؟». توقفت ثم ألقت نظرة اعتذار إلى المرأة وقالت:

«أنا آسفة يا سيدتي، ولكن هذا ما يحدث، عندما يظن رجل ضعيف مثله بأنه يمتلك قدرات خارقة».

طمأنت كلماتها المرأة بعض الشيء وكان ذلك واضحاً من تنفسها الذي عاد الى طبيعته، ولكنها سرعان ما غضبت من جديد وقالت بكل وقاحة:

«لا أعرف أي ريح وحشية جلبتكم إلى هنا، ولكني كنت نائمة قبل ظهوركم وأتمنّى أن أتخلص منكم بسرعة».

قرّرت ماري بأن الوقت قد حان لها كي تفعل شيئاَ لتثبت لزملائها على الأقل بأن التدريب الذي نالته في المكتب كان له فائدة. لم تقل شيئاً في البداية، اكتفت بالمشي نحو الولد ثم أمسكت بيده ورافقته إلى أقرب كرسي ثم أجلسته بجانبها فيما نظرت إليه بحب وحنان ساحرين لدرجة أن شوك حملق فيها محاولاً فهم كيف تحوّلت ماري من الفتاة الباردة في القطار إلى هذه الفتاة الطيبة والحنونة بهذه السهولة والسرعة.

أراد عندئذ أكثر من أي وقت مضى أن يتملّك قلبها وأخذ يتخيّل فجأة اللحظة التي ستعامله فيها بمثل هذا القدر من الاهتمام والعناية. ألقت ماري نظرة متوسلة على والدة لروي ثم قالت:

«نحن موجودون هنا لنقنعك لتسمحي لهذا الملاك الصغير أن يرجع إلى المدرسة ونظراً إلى درجاته العالية، فلديه مستقبل عظيم ولديه أيضاً الحق كبقية الأطفال أن ينال فرصة لينجح في حياته».

وبعد تلك الكلمات، ساد صمت قاتل داخل الشقة لدرجة أخذت ماري تظن بأنهم لم يفهموا ما قالته بسبب لكنتها العربية، ولكن قبل أن تعيد كلامها تحركت المرأة تجاه الولد وأخذته من ماري كأنها كانت تحتاج إلى وجوده قربها كي تتمكّن من أن ترد على ماري. أخيراً قالت:

«أنا أريد له الأفضل في الحياة ولكن يجب عليّ أن أحميه من والده الذي يريد أن يأخذه مني. فنحن منفصلان ولكني ربحت القضية التي أعطتني الحق الكامل برعاية الولد. ولكن والده لا يريد أن يقبل بهذا الفوز ويسخر مني ويخبرني دائماً بأن المحاكم تنفع فقط للأغنياء الذين يعيشون في مانهاتن».

توقفت قليلاً فيما انهمرت الدموع على خديها ثم استطردت:

«ولذلك قرّرت أن أتركه في البيت قبل ذهابي إلى العمل يومياً. أعطيه ما يكفي من الطعام وأترك له جهاز الكمبيوتر كي يتسلّى به ثم أقفل باب البيت حتى أرجع، هكذا سيكون دائماً في أمان حتى يتاح لي خيار آخر».

اقترب شوك إلى كرسيٍّ قريب منها، جلس عليه ثم سألها:

«لماذا كنتِ تعتقدين بأننا كنا من الشرطة لدى حضورنا؟». هزّت كتفيها قائلة:

«طليقي من عائلة تحوي الكثير من الفاشلين والمدمنين، والشخص الوحيد الذي يعاونهم على ذلك هو مسؤول في تلك الأسرة اللعينة هو ابن عمه ويعمل كشرطي، وظننتكم من طرفه».

أومأ شوك برأسه مندهشاً من كلامها ثم ساد الصمت من جديد، فيما أخذت أولغا تفكر بسرعة عن خطة سليمة لحل هذه القضية، ووجدتها قبل مرور ثلاث دقائق وقالت:

«إذاً نحن في المركب نفسه. نريد الأفضل للولد، لن نختلف. هل تعرفين بأنه أمر خطير أن تتركي هذا الولد الصغير وحده هنا في المنزل أثناء غيابك؟ ماذا سيفعل في حال وقوع حريق في إحدى الشقق القريبة ووصل الحريق إلى هنا مثلاً؟ وحتى لو قرّر أن يقفز من النافذة، هل سيعيش بعد السقوط من الطابق الخامس؟».

بعث سؤالها الأخير رعباً كبيراً في المرأة التي حضنت ابنها على الفور، لم تتوقف عن الإمساك به بشدة. عرفت أولغا مباشرة بأن بقية عملها سيكون سهلاً للغاية. تابعت كلامها قائلة:

«أحسن طريقة كي تكوني مطمئنة على سلامته أثناء ساعات عملك هو أن يذهب إلى المدرسة في تلك الأثناء. هل يمكنني أن أرى المستندات التي تؤكد حكم المحكمة حيث تمَّ منحك الحق برعاية الولد؟».

كان عليها أن تسأل هذا السؤال لأن منظمتها ستكون معرّضة لمشاكل قانونية لو أيّدت تلك المرأة ثم أثبت بأنه ليس لديها الحق في رعاية الطفل. لم تجبها المرأة، وضعت لروي على الكرسي ليجلس وحده ثم ذهبت إلى غرفتها ورجعت بورقة صغيرة تحملها وكأنها كانت تحمل صندوق كنوز. أخذت أولغا الورقة منها وابتسمت لما قرأت محتوياتها ثم قالت:

«الآن قد تمَّ إيجاد حل لمشكلتك، سوف يرجع الولد إلى المدرسة، ولكن علينا القيام ببعض الخطوات الاحتياطية. أولاً سوف نحصل على حكم من المحكمة حيث سيتم إنذار والده بشكل رسمي أن يبتعد عنكما». ألقت أولغا نظرة مشجعة على المرأة التي بدت خائفة ثم قالت:

«لا تقلقي، تعاملنا مع حالات أخطر من حالتك وسارت الأمور على ما يرام. بإمكانك أن تذهبي إلى عملك غداً وسنهتم بالموضوع. كل ما نحتاج إليه هو أن تعطينا الرسالة التي تمكننا من اتخاذ الخطوات اللازمة، ونحتاج أيضاً إلى نسخة من هذه الورقة ونسخة من هويتك».

فكرت كثيراً قبل أن ترد، مرّت أكثر من خمس دقائق وعندما ابتسمت قبل أن ترد، عرفوا جميعاً بأنها كانت موافقة وقالت:

«سأجرِّب حظي معكم ولكن لا أملك نسخاً للأشياء التي طلبتها مني».

أخذ منها شوك المستندات لتصويرها وعاد بعد سبع دقائق فقط. لم يحب ذلك المكان وكان يرغب في الرحيل في أسرع وقت ممكن. وقبل عودته، كتبت الرسالة بحيث قدّمت لمنظمتهم الضوء الأخضر للمضي قدماً بتلك الإجراءات.

بعد التحيات، تركوا المرأة التي أخبرتهم بأنها تدعى كمبرلي ثم توجهوا إلى المحطة للعودة إلى المكتب. كانت الساعة الواحدة بعد الظهر عندئذ.

كانت رحلتهم إلى المكتب أفضل من رحلتهم إلى البرنكس لأن الابتهاج ساد في القطار. وكانت أولغا وماري سعيدتين لأن شوك رافقهما، وهو أيضاً كان فرحاً أيضا لذلك.

منذ بداية الرحلة، كان يقاوم رغبته الشديدة في التحدث إلى ماري، ولكنه خاف من أن يفعل ذلك لأنها عادت إلى أسلوبها المنعزل ثانية وأصبحت بالضبط مثلما كانت في طريقهم إلى البرنكس.

قرّر عندئذ أن يستعمل حيلة تعلّمها منذ مدة، فيظهر اهتمامه بأولغا بالرغم من عدم امتلاكها الصفات التي تعجبه في المرأة كي يجعل ماري غيورة. كان يظن بأنه لو فعل ذلك، سينزلها من ذلك البرج العالي الذي وضعت نفسها به. نهض ثم انتقل إلى كرسي بجوار أولغا وقال:

«لقد قمتِ بعمل عظيم هناك، فقد قمتِ بإنجاز عظيم. هل يمكنني أن أعرف إلى أين ترجع أصولك فأنت تتحلّين بالحنكة والحكمة؟».

اندهشت تماماً من موجة اهتمامه الجديدة وغير المتوقعة وابتسمت ابتسامة عريضة ثم قالت:

«والداي من بولندا ولكنني ولدت هنا في الولايات المتحدة». ابتسم أيضاً ثم قال:

«وهل معنى اسمك أولغا سوبر وومن في بولندا؟».

انفجرت ضاحكة ولم تجب عن سؤاله بالرغم من تقديرها له. ألقت ماري فجأة نظرة حيوية عليه مما جعل قلبه يخفق بسرعة، كانت فرحة لأنه كان لطيفاً مع أولغا، وأرادت أن تعبّر عن ذلك من خلال نظراتها، ولكنه لم يفهم معناها الحقيقي، واعتقد بأنها كانت ترسل إليه رسالة حب. كانت نيّته أن يتجاهل أولغا من جديد منذ تلك اللحظة ويتحدث إلى ماري مباشرة ولكنه سيطر على نفسه وغيّر موضوع نقاشه مع أولغا لأمر آخر:

«نحن محظوظون بأن لدينا مثل هذا العمل حيث يمكننا أن نصلح حال بعض المنكوبين. لا نكسب مالاً كثيراً، ولكن لا يهمنا المال لأن مهمتنا أكبر وأهم منه».

ابتسمت أولغا ثانية لأنها لم تصدّق ما كانت تسمعه، وهذا جانب جديد في هذا الرجل الذي لطالما اعتبرته إنساناً متعجرفاً. نظرت إليه في دهشة ثم قالت:

«عندك حق، نحن نحاول جاهدين أن نصلح فعلاً. انظروا إلى الأمل الذي جئنا به لحياة لروي أندرسون اليوم. ربما سيصبح هذا الولد رئيس بلدية نيويورك يوماً ما، أو ربما سيكون أول رئيس أميركي أسود اللون في تاريخ الولايات المتحدة في المستقبل».

ابتسموا جميعاً فخورين بأنفسهم ثم ساد الصمت لبقية الرحلة.

á á á

سوف تشهد السنوات المقبلة تجارب مماثلة ولكن ماري لن تواجهها مع شوك، ستكون دائماً مع أولغا في فريق مكوّن منهما فقط. توطدت صداقتهما خصوصاً بعد أن فشل شوك في أن ينال إعجاب ماري. أصبحت أولغا تحبها أكثر لموقفها هذا بينما كرهت شوك جداً في غضون ذلك.

أما بالنسبة إلى سارة، والدة ماري، فظلت محطّمة بعد وفاة والدتها لمدة طويلة ولكنه أصبح أسهل لها أن تتحمّل الحدث عندما صارت أغلب وقتها في عمل متواصل ونشيط في المطعم وشهدت سنتها الرابعة في ذلك المكان ترقيتها إلى منصب المدير عندما ترك المدير السابق عمله بعد أن حصل على عرض أفضل في مطعم كبير في مانهاتن.

ولكن بمرور الوقت، بدأت تقلق كثيراً على مصير ماري. بالرغم من نجاح ابنتها في عملها وتفوّقها في دراستها في العلوم السياسية في جامعة قريبة من بيتهما تدعى سانت فرانسيس، لم تبد أي اهتمام بالزواج. كات سارة دوماً تسأل نفسها سؤالين: هل كانت لا تزال تحب إسحاق؟ أو هل كانت تعذّب نفسها لموت والدها؟

تناقشت مع ماري بخصوص هذه المخاوف عدة مرات ولكنها لم تبد مهتمة بالأمر. وظلت هكذا حتى اقترحت سارة يوماً لها أن تزور دكتوراً نفسياً ولكنها رفضت بشدة وكأن والدتها طلبت منها أن ترقص عارية في الشارع.

كان هناك شيء لم تخبره سارة لابنتها وهو زيارة شوك لها يوماً في المطعم. كان محبطاً تماماً لأنه حاول أن يتقرّب إلى ماري لأربع سنوات بدون جدوى وأخذ يشتكي كأنه كان على وشك الانهيار.

كانت سارة معجبة بشخصيته من النظرة الأولى وتمنّت أن يكون زوجاً لابنتها، خصوصاً عندما أخبرها بأنه أيضاً من عائلة مسيحية متديّنة. والشيء الآخر الذي شجّعها لهذا الأمر كان عمر ماري عندئذ، فقد كان عمرها اثنين وعشرين سنة، نفس عمرها عندما تمّت خطبتها لأنطوان إلياس – والدها -. وعدت شوك أن تفعل كل ما في وسعها لمساعدته في التقرب إلى ابنتها ثم رحل مبتسماً.

وبخصوص الحلم الأميركي الذي تكلم عنه القسيس أندرو في أول يوم لحضورهما، تمكّنت ماري وسارة من تذوّق الحلم قبل نهاية سنتهما الرابعة في الولايات المتحدة. فهما كانتا تكسبان معاً أربعة آلاف دولار شهرياً. ولأنهما بقيتا في الشقة نفسها، ولم يرتفع إيجارها لأكثر من مائة دولار في هذه المدة بسبب قانون جديد في نيويورك يمنع أصحاب الشقق والبيوت من رفع الإيجار بشكل حاد وعشوائي. ولذلك كان لديهما الكثير من المدخرات مما جعلهما تخططان لشراء بيت في مكان هادئ يدعى لونغ أيلاند قبل مرور الخمس سنوات.

كانت هذه السنوات الأربع سعيدة وإيجابية ولم تكن هناك أي أزمة سوى وفاة السيدة نبيلة. فكل شيء سار أحسن من توقعاتهما، ولكن بالنسبة إلى روح ماري، كانت لا تزال في الزنزانة التي

وضعها فيها ضميرها.

إسحاق1976-1979

استفاق إسحاق فجأة يوماً ما بعد منتصف الليل حوالى الساعة الثانية والنصف بعد أن نام لساعتين فقط في تلك الليلة الباردة في مارس، عام ألف وتسعمائة ستة وسبعين. عرف بأنه كان من المستحيل أن يعود إلى النوم لأنه كان لا يزال مرتعباً نتيجة ما شاهده في حلمه.

كان كابوساً مريعاً حيث خُطف وسُجن في غرفة داخل مبنى مهجور من قبل بعض المسيحيين الذين اشتبهوا فيه بأنه كان على وشك القيام بعملية انتحارية في حفلة زفاف بسبب لحيته الطويلة والجلابية التي كان يرتديها. لم يعلم هؤلاء الأشخاص عندما أخرجوه من الصالة بأنه كان يقوم بعمله كمترجم للغة الإنكليزية هناك.

اعتقلوه في مكان صغير ووضعوا في الحجرة نفسها نمراً ربطوه بطاولة قريبة منه وبحبل ضعيف للغاية. كان النمر يحاول أن يتخلص من الحبل كي يهجم عليه وكان يشدّ على الحبل مما جعله يضعف تدريجياً.

ولكن لحسن حظ إسحاق، استيقظ من النوم قبل أن يتحرّر النمر وينقضّ عليه. نهض من السرير على الفور مرتجفاً ثم نزل إلى الأسفل ليأخذ بعض الماء من الثلاّجة. وخاب ظنه عندما وجدها فارغة، حتى إنها كانت خاليه من الطعام.

فلقد أصبحت ظروفهم المادية أكثر سوءاً مؤخراً لأن عمه الذي كان يرسل إليهم النقود من الولايات المتحدة كل شهرين فَقَدَ وظيفته وكان يبحث في الوقت الراهن عن عمل جديد.

جلس في غرفة الجلوس وقرأ القرآن لثلاث ساعات ثم قرّر أن يصلّي صلاة الفجر في المسجد القريب من المنزل على أمل أن يجد شيئاً يشربه أو يأكله هناك. فالإمام كان رجلاً كريماً يوزّع الطعام والشاي أحياناً للزائرين، ولكن اقتحمه رعب شديد عندما تذكّر بأنه كان عليه أن يذهب ويرجع بسرعة قبل أن تستيقظ والدته لأنها منعته من الخروج في الصباح الباكر بسبب بعض الاشتباكات العنيفة التي وقعت مؤخراً قرب منزلهم.

كان المشي إلى المسجد أطول من العادة لأنه كان يجرّ رجليه بالفعل. أخذ يلوم نفسه عندئذ لنهوضه من السرير لأنه تنبّه فجأة إلى كونه مرهقاً للغاية. ظل يتمشى ببطء حتى شاهد نوراً من المسجد عندما اقترب منه، بدأ يسرع إليه مبتسماً فيما قرّر أن يستفسر عن معنى ذلك الكابوس من الإمام . سمع الآذان لدى دخوله المسجد وتوضأ بسرعة.

دامت صلاة الفجر لأكثر من عشرين دقيقة في ذلك الصباح لأن الإمام كان يتلو آيات طويلة. ولما انتهت الصلاة، أخذ إسحاق ينظر حوله إلى الأماكن التي يتم وضع الطعام فيها بالعادة ولكنه لم يرَ شيئاً. خاب أمله مجدداً وأراد أن يعود إلى البيت فوراً ولكنه اقترب من الإمام كي يسلّم عليه قبل المغادرة قائلاً له:

«السلام عليكم ورحمة الله يا مولانا».

حدّق الرجل العجوز إليه لبرهة ثم أومأ برأسه دون أن يتكلم لأنه كان لا يزال يتلو بعض الأدعية والأذكار. أخيراً ردَّ عليه قائلاً:

«وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته يا شيخ الشباب». توقف قليلاً قبل أن يضيف:

«انظر حولك وسوف ترى بأنك الشاب الوحيد الذي جاء إلى المسجد مبكراً اليوم، لن أتفاجأ إذا

قلت لي بأنك تستيقظ في منتصف كل ليلة لتدعو لبلادنا».

اجتاحت إسحاق موجة من الإحساس بالذنب لأن الإمام كان مخطئاً تماماً في ذلك الصباح. فهو قد توقف عن الاستيقاظ مبكراً لصلاة الفجر مؤخراً، وبالإضافة إلى ذلك، لولا الجوع لما جاء إلى المسجد في ذلك الصباح على الإطلاق. وعد نفسه بأنه سيستفيق لصلاة الفجر ابتداءً من ذلك اليوم ثم قال رداً على تعليق الإمام:

«لا أستحق حتى القليل من مدحك يا مولانا. أنا مقتنع تماماً بأن أدعية أمثالك أنت هي التي ستحلّ مشاكلنا المتزايدة كل يوم لأنها صادقة ونابعة من إحساس عميق بالثقة بالله».

قام ليرحل بعد أن تفوّه بتلك الكلمات ولكن الشيخ الذي فرح من كلامه أوقفه قائلاً:

«رسول الله صلى الله عليه وسلم شجّعنا ألاّ نأكل وحدنا، تعال معي إذاً كي تفطر في منزلي فمنزلي قريب جداً يقع خلف المسجد مباشرة، هيا بنا».

كانت السعادة مرتسمة على وجه إسحاق بشكل واضح ونهض ليمشي وراء مضيفه إلى بيت صغير وراء المسجد. ولدى دخولهما، قفزت فتاة جميلة من كرسيها وركضت إلى داخل إحدى الحجرات لتتجنّب نظرة إسحاق إليها وكأنه سيسرق بصرها عندما ينظر إليها. تصرّف الإمام وكأن شيئاً لم يكن ثم أشار بإصبعه إلى بعض الطعام في آخر ركن في غرفة الجلوس وقال:

«أتمنى من كل قلبي أن تشرّفني بأن تأكل معي».

ابتسم إسحاق وأومأ برأسه موافقاً فيما قال في داخله الشيخ لو عرف مدى جوعه، لما ترجّاه أن يأكل معه. جلسا وأكلا الطعام دون أن ينطق أي منهما بكلمة، فإن معظم العلماء يظنون بأنه مكروه للإنسان أن يأكل ويتكلم في نفس الوقت.

وبعد الوجبة اللذيذة، تنبّه إسحاق إلى أن مزاج مضيفه كان جيداً للغاية وانتهز الفرصة ليذكر له حلمه. بينما كان يحكي، نظر إليه الشيخ بتمعّن واستمع إليه بعناية حتى أنهى كلامه. في البداية لم يقل شيئاً لأنه كان يحلّل الحلم، ثم دخل غرفته وخرج بكتاب ضخم عن تفسير الأحلام. بحث عن النمور فيه ثم قرأ ما كُتب عن رؤية النمر في الحلم. بعد ذلك، صمت للمزيد من التفكير قبل أن يعلق مبتسماً:

«ذلك النمر يمثّل القوة السلبية التي تريد أن تبعدك عن أحلامك وأهدافك في الحياة، ولكنك استيقظت من النوم قبل أن ينال الفرصة ليهاجمك مما يعني بأنه سيتمّ إنقاذك من الفشل في حياتك ما دامت أهدافك تتّسم بنوايا صالحة». أعطاه وقتاً ليستوعب كلامه قبل أن يضيف:

«هل أنت راضٍ عن هذا التفسير؟». ابتسم إسحاق ثم قال:

«إذا لم أكن راضياً بمثل هذا التفسير الجميل، ماذا سيرضيني؟ أشكرك جداً يا مولانا».

ابتسم الشيخ واستمر حديثهما لساعتين إضافيتين عن حالة البلاد. استمتع إسحاق كثيراً في ذلك الصباح ووعده أن يزوره دائماً ولكنه فاتحه أيضاً عن تحفّظات والدته تجاه خروجه أحياناً كي لا يقلق الإمام عندما لا يراه أحياناً.

كانت تلك السنة والسنوات الثلاث التي تلتها سنوات دموية في التاريخ اللبناني. وما زالت بيروت مقسّمة بين المتطرفين المسلمين في الجنوب والمتطرفين المسيحيين في الشمال، وكان يتم قتل المدنيين بشكل عشوائي ومتصاعد.

اضطر إسحاق لأن يقضي المزيد من الوقت في البيت بسبب هذه الأحداث المخيفة وقلّل من زياراته إلى الدكتور طارق والمعهد الإنكليزي لمرة واحدة فقط في الشهرين. حتى الحصول على

المال للخروج أصبح تحدياَ كبيراَ له... كانت فعلاً أوقاتاَ صعبة للغاية.

38

1981-1987

في عام ألف وتسعمائة وواحد وثمانين، أصبح رونالد ريغان، الممثل السابق والحاكم الثالث والثلاثين في ولاية كاليفورنيا الرئيس في الولايات المتحدة. ولكن هذا الرئيس الجديد من الحزب الجمهوري لم يلفت انتباه ماري أو والدتها إلاّ بعد سنتين من حكمه عندما أرسل الجنود الأميركيين إلى لبنان من أجل إنهاء الحرب الأهلية هناك. قدّرتا فعله هذا كثيراً حتى بعد أن سحب أولئك الجنود من لبنان بعد مدة قصيرة بسبب هجوم كبير على القيادة الأميركية من قبل بعض عناصر العدو مما أدى إلى قتل أكثر من مائتين جندي أميركي.

أصبحت ماري ووالدتها من ضمن المؤيدين لهذا القائد المحافظ أيضاً بسبب سياساته الاقتصادية التي كانت تبشّر بنتائج إيجابية جداً. تمكّن الرئيس من إنقاذ الاقتصاد الأميركي من أكبر أزمة واجهتها منذ الأزمة الاقتصادية في الثلاثينيات من خلال تخفيض الضرائب بشكل واضح وكبير وهذا ما ساعد على إنعاش الاقتصاد. استفادتا من الازدهار الاقتصادي الجديد وتمكّنتا من شراء بيت في لونغ أيلاند الذي لطالما كانتا تحلمان به، وبالإضافة إلى ذلك اشترت سارة سيارة لنقلهما إلى عملهما من بيتهما الجديد.

بعد أن تخرّجت ماري من الجامعة، عُرض عليها الكثير من الوظائف المغرية للعمل في عدة منظمات أكبر وأهم من Kids Back On Track، ولكنها رفضت أن تترك وظيفتها هناك لأنها كانت متعلقة بما كانت تقوم به. كانت لا تزال تعتبر عملها في تلك المنظمة أنسب طريقة لإصلاح أخطائها السابقة لأنها تقدّم الأمل والهداية للأطفال الصغار. وتمّت ترقيتها إلى نفس مستوى أولغا، تقديراً لجهودها ونجاحها، وأصبحت أقرب من مؤسسات المنظمة لدرجة كانوا يعتبرونها جزءاً من عائلتهم المحافظة.

وبمرور السنوات، كان هناك ضغط كبير عليها من والدتها كي تتزوج بشوك. فلقد كثرت زياراته إلى المطعم حيث تعمل سارة لأنه أصبح أكثر إحباطاً من فشله في الوصول إلى قلب ابنتها. كان يخبر سارة مراراً وتكراراً بأن مهمته الأساسية في الحياة من الآن وصاعداً هي أن ينقذ ماري من الأزمة التي تخفيها عنه. واستناداً إلى تجربته مع النساء، كان من السهل للغاية أن يدرك بأنه هناك سراً كبيراً يلقي بظلامه على حياة ماري.

وبعد أكثر من سنة منذ زيارته الأولى إلى مطعمها، قررت سارة أن تتحدث إلى ماري عن شوك يوماً عندما كانتا تشاهدان التلفاز. كانتا تشاهدان برنامجاً حيث كان بعض الناس ينتقدون الحكومة الأميركية لترددها في اتخاذ موقف حاسم ضد الحكومة العنصرية في جنوب أفريقيا بعد أن فقدت تلك الحكومة معظم شعبيتها حول العالم. قالت ماري بلكنة بدت أميركية بالضبط:

«لا أستطيع أن أفهم لماذا لا نتحرك بسرعة ضد تلك الحكومة في جنوب أفريقيا، فنحن قادة العالم».

لم تهتم سارة بذلك الموضوع لأنه كان هناك أمر أكثر أهمية في نظرها في تلك الليلة. حدّقت إلى ابنتها بنظرة حادة ثم تكلمت باللغة العربية كما تفعل عندما يكون لديها شيء مهم لتقوله:

«علينا أن نتحدث عن أمر له أهمية أكثر في حياتك وبشكل مباشر». تنهدت ثم أضافت:

«يا ابنتي، أكبر في السن كل يوم وحلمي هو أن أرى أحفادي قبل الممات».

ابتسمت ماري بالرغم من قلقها عندئذ لأنها كانت تعلم بأن الحديث عن ذلك الموضوع سيؤدي

إلى خلاف كبير. لجأت إلى الكذب لتفادي ذلك.

«أنا أتفهم موقفك يا أغلى أم في العالم ولكنه ليس ذنبي، فكل الشباب الذين أقابلهم لا يرون سوى شكلي الخارجي، ولا تهمهم أفكاري على الإطلاق، وبصراحة معظمهم لا يحترمون لبنان ويسخرون مني».

على الرغم من أن ما قالته كان عذراً ذكياً لثني أمها عن فكرة الزواج ولو مؤقتاً، إلا أن الواقع كان يقول غير ذلك حيث إن عدداً كبيراً من المعجبين الحقيقيين بها كانوا مسحورين بذكائها وبديهتها وشخصيتها المثيرة للاهتمام، ولم يكن جمالها فقط ما جذب انتباههم كما كانت تدّعي في تلك الليلة وهي كانت على علم بذلك، فقد وصلت شهرتها في الجامعة إلى أبعد الحدود لدرجة كان بعض الرجال يلقبونها بمارلين مونرو العربية. ولكن عندما تأملت عيني والدتها، عرفت بأنها لم تصدّقها. تنهّدت سارة ثم قالت:

«امرأة جميلة وذكية مثلك لا بد أن تتعلم كيف تختار كذباتها جيداً ولا بد أن تعرف كيف تدافع عنها وتجعلها مقنعة ومقبولة. وهل شوك موجود في قائمة الرجال الذين لا يرون سوى جمالك؟ هل تعرفين بأنه لا يحبك فقط، بل أصبح يحب لبنان بسببك ويريد أن يتعلم اللغة العربية أيضاً احتراماً لك».

اختفت الابتسامة التي كانت على وجه ماري تماماً، فمعرفتها بأن والدتها عرفت بأمر شوك كانت مفاجأة كبيرة للغاية وأخذت تسأل نفسها سلسلة من الأسئلة؛كيف تمكّن من الوصول إليها؟ هل ذلك الرجل مجنون؟ هل حصل على معلوماتها من ملفها في المنظمة؟ قرّرت عندئذ أن تلقّنه درساً لن ينساه طيلة عمره.

وبعد مراقبة ابنتها وردة فعلها بتمعّن، كانت لدى والدتها فكرة جيدة عما كان يدور في بالها وبعد أن مرّت عدة ثوانٍ، قالت:

«سترين غضبي الشديد إذا أخبرته بأنني تحدثت إليك عنه لأنني وعدته أن لا أفعل ذلك. ولكني كنت عاجزة عن منع نفسي، فالشاب نيّته سليمة وكان في أمسّ الحاجة إليّ كي يفضفض لأحد واختارني لأني والدتك».

لم تتأثر ابنتها بتلك الكلمات التي رفعت درجة غضبها نحو شوك، وكان ذلك واضحاً من السخرية التي لفّت ردها:

«وهل يظن السيد آمنوي الغبي بأن والدتي الغالية جاءت إلى نيويورك كي تشاهد ابنتها الوحيدة وهي تلعب دور جولييت في مسرحية روميو وجولييت؟».

صدمت تلك الكلمات والدتها للغاية لأنها كانت تضج بالحقد. مرّت دقيقة تقريباً قبل أن ترد:

«لماذا أنت غاضبة إلى هذا الحد؟ هل ارتكب جريمة؟ يودّ الرجل أن يأتي إلى بيتك من الباب، من خلال والدتك مما يجعله أحسن من معظم الرجال الذين يقتحمون بيوت النساء من خلال الشبابيك. والآن تسخرين منه بكل وقاحة».

لم يعجب ماري التوتر الذي حصل بينهما والذي كان يتصاعد، ودافعت عن نفسها بكذبة أخرى،

«أرجوك لا تنفعلي يا أمي، كل ما في الأمر بالنسبة إلى شوك هو أن زميلتي أولغا تحبّه منذ مدة طويلة وقبل أن آتي إلى المنظمة حتى، أظن بأنها تستحقه أكثر مني لأنها وجدته قبلي. وبالإضافة إلى ذلك، هي التي درّبتني على كل ما أعرفه في المكتب مما يجعله مستحيل عليّ أن أخونها».

رمقتها والدتها في حيرة ثم قالت بمرارة وغضب:

«كذبة أخرى؟ متى ستملّين من الأكاذيب؟ لو كانت تحبه كما تدّعين، لماذا أصبحت مخطوبة لرجل آخر الأسبوع الفائت؟».

ذهلت ماري مجدداً ولم تستطع أن تردّ لبرهة، أخيراً قالت:

«أخبرك ذلك أيضاً؟ هذا الرجل بمثابة ثعبان، هل يظن بأنه سيستفيد شيء من تقديم الأخبار عن كل ما يحصل عندنا في المكتب؟ هل يجهل كونك إنسانة مشغولة ومحترمة؟». قاطعتها والدتها قائلة:

«على الأقل لا يكذب مثلك وموقفه واضح أمام الكل».

ساد الصمت لمدة طويلة، كانت ماري تفكر جيداً كي لا تسخن الأمور أكثر، أخيراً قالت الحق:

«لا أحبه وأنا متأكدة بأنني لن أحبه في المستقبل أيضاً».

بالرغم من عدم رضاها بردّ وكلام ابنتها، كانت سارة سعيدة لأن نبرتها تجرّدت من عنادها السابق مما أعطاها انطباعاً بأنها تستطيع أن تقنعها بقبول فكرة الزواج بشوك لو تابعت جهودها. اقتربت إليها ثم أمسكت بيدها وقالت:

«أنا أحبك أكثر من كل شيء في العالم وهذا ما جعله سهلاً عليّ أن أسامحك لغلطتك في لبنان. لا أنوي استعمال الماضي ضدك، لا تفهميني غلط. كل ما في الأمر هو أنه قد حان الوقت لأن أطلب منك أمراً أيضاً، بأن تفتحي قلبك قليلاً لهذا الرجل».

لم تعرف بأن طلبها كان أكثر تعقيداً بكثير مما تخيّلت، فابنتها لم يكن لديها الاستقلال الكافي لتتخذ قراراتها لوحدها، فهي كانت رهينة لقوة أقوى منها. أومأت ماري برأسها ثم قالت:

«سأحاول مع أني واثقة من أنني سأفشل».

ولدى سماعها تشاؤم ابنتها في كلامها، طرحت عليها والدتها سؤالاً لم تتوقعه:

«هل لا تزالين تحبين إسحاق؟».

كانت المرة الأولى التي تذكر فيها اسم إسحاق منذ بضع سنوات. تصرّفت ماري كأنها لم تسمع السؤال مما جعل والدتها تكرّره بنبرة أكثر وضوحاً وجدية، أخيراً ردت:

«لا، طبعاً». ولأنها لم تكن واثقة في ما قالته، مدحت شوك لأول مرة لتقنع والدتها بأنها لا تحب إسحاق مضيفة:

«كيف أستطيع أن أحبه وقد قابلت رجالاً أجمل وأذكى منه كشوك مثلاً؟ أفضّل شوك بلا شك، خصوصاً لأنه مسيحي مثلي».

راقبتها والدتها لبعض الوقت ثم ابتسمت لأنها صدقتها، حضنتها ثم غيّرت الموضوع لأنها كانت مقتنعة بأن ماري بمرور الوقت ستعطي شوك فرصة لدخول قلبها.

بعد ذلك الحديث الطويل مع والدتها في ذلك اليوم، غيّرت ماري أسلوب تعاملها مع شوك، فهي فعلاً أرادت أن تعطيه فرصة ولكنها سرعان ما اكتشفت بأن تحقيق ذلك كان مستحيلاً.

ولكن بالرغم من ذلك، احترمت وعدها لوالدتها وتابعت جهودها في إدخاله لقلبها من خلال التركيز على صفاته الإيجابية مثل شطارته في عمله ووسامته مقترنة بعضلاته، ولكنها ظلت عاجزة عن الوقوع في غرامه، فكل ما كانت تحسّ به تجاهه بمرور الوقت لم يكن سوى الإشفاق القاتل.

أما بالنسبة إلى شوك، كانت ردة فعله مختلفة تجاه تصرفاتها والعكس تماماً، فهو لم يتوقف للحظة عن الوقوع أكثر في حفرة حبه لها، وذلك كان بسبب عدد من الأسباب، وأبرزها فقدانه لثقته

بالنفس بسبب انتقاداتها الخفيفة من حين إلى آخر مما جعله يسعى دائماً إلى استحلاب مجاملة منها كي ترتفع معنوياته. وما جعل هذا الأمر أكثر تعقيداً هو أن هذه الانتقادات كانت حول أشياء تافهة مثل طريقة كلامه السريعة أو عدم نظره إلى الناس عند التحدث معهم. ولم يغضب منها أبداً لأنه اعتبر نفسه محظوظاً بأنها كانت تسمح له بالاتصال بها في أي وقت أراد به سماع صوتها وظل احتمال ارتباطهما مفتوحاً.

ولكن تطوراً جديداً لم تتوقعه ماري في أول سبع سنوات في الثمانينيات وهو ظهور إسحاق فجأة في أفكارها وبشكل مستمر. وبالرغم من أنها لم تنسه تماماً منذ انفصالهما، لم يكن دائماً في بالها مثل ما كان الآن حيث بدأ يسيطر ويهيمن على عقلها، والسبب وراء هذا التطور الغريب يرجع إلى عاملين:

أولاً،كانت أضرار الحرب الأهلية في بلادها تزداد حجماً وسوءاً مما جعلها قلقة على إسحاق وأفراد عائلته، فهي ما زالت تتذكّر أسماءهم وكل ما أخبرها عنهم. هل ما زالوا على قيد الحياة؟ فليس بإمكان ماري أن تحصي عدد المرات التي سألت نفسها ذلك السؤال، وكان قلقها هذا هو ما كان يرسم الحزن على وجهها مراراً وتكراراً في البيت والمكتب.

السبب الثاني، كان ضغط والدتها عليها كي تقبل بحب شوك وتفتح له قلبها أيضاً، فماري لطالما اعتبرت قلب المرأة بمثابة البيت بحيث يستحيل لصاحب البيت أن يعطي مفاتيحه لمستأجر جديد دون أن يتأكد بأن المستأجر القديم قد غادر المكان. وبناءً عليه، كان على ماري أن تسأل نفسها إذا كانت لا تزال تحب إسحاق أو لا. ولكنه كان من الصعب لها أن تجد الإجابة لهذا السؤال لأنه كلما يخطر الموضوع في بالها، ترافقه صورة والدها الميت مما يجعلها تغضب من إسحاق مجدَّدا ثم تتجنّب التفكير في الموضوع، ولكنها اعترفت لنفسها يوماً بأنها لا تزال تحبه. هكذا ظلت الأمور كحلقة مفرغة.

أول مرة زار شوك بيتها كانت بمثابة مشهد لفيلم كوميدي لأنه كان يمثّل بأنه كان يقابل والدتها لأول مرة. فتحت الباب سارة وبادرها قائلاً:

«أتمنّى بأنني في المكان الصحيح، هل هذا منزل عائلة إلياس؟».

اضطرت ماري إلى الإسراع إلى غرفتها كي لا يسمع ضحكاتها وظلت هناك لفترة قبل أن تسيطر على نفسها تماماً. ولما خرجت ورأته، تكلمت قبله قائلة:

«آه، أنت هنا يا سيد آمنوي، أهلاً وسهلاً، يشرّفني أن أقدم إليك والدتي، السيدة سارة إلياس».

كانت نبرتها رسمية بشكل مبالغ فيه لدرجة أصبح شوك محتاراً، فلم يعرف إن كانت تعرف بأنه يعرف والدتها من قبل ولم يتجرأ أن يستفسر عن ذلك. أمضوا جميعاً يوماً جميلاً مما شجعه أن يأتي مراراً وتكراراً إلى بيتهما. تعدّدت زياراته على مدى الأيام والشهور التالية لدرجة أصبح كأنه عضو في عائلتهما بحلول سنة ألف وتسعمائة وسبعة وثمانين. كان عمر ماري عندئذ واحد وثلاثين عام وقد بلغت والدتها سنها التاسع والخمسين، وكانت تلك السنة التي طلب فيها يدها.

شهدت تلك السنة أيضاً توقف سارة عن العمل، فهي لم تعد قوية كالسابق مما وفّر لها المزيد من الوقت لتضغط على ماري أكثر من قبل كي تقبل عرض شوك للزواج. أصبحت ماري أضعف وأضعف وبعدما وافقت في النهاية، حدث شيء قلب حياتها وحياة والدتها رأساً على عقب.

إسحاق 1981-1987

تغيّر وجه الحرب الأهلية اللبنانية في السنوات السبع الأولى من الثمانينيات، فالمعركة بين الجيش الإسرائيلي ومنظمة التحرير الفلسطينية امتدت إلى الأراضي اللبنانية يوم فجّرت فيه القوات الإسرائيلية مقرّ منظمة التحرير الفلسطينية.

حدث آخر تمثّل بدخول القوات الإسرائيلية إلى الأراضي اللبنانية بحثاً عن الفلسطينيين المطلوبين لقتلهم. وفي نهاية هذه العملية، فَقَدَ الكثير من المدنيين حياتهم.

في 14 سبتمبر 1982، قرّر إسحاق أن يذهب إلى بيت الدكتور طارق مبكراً في الصباح. وكان هناك عندما سمع باغتيال بشير الجميّل، الرئيس المنتخب في لبنان. سادت الفوضى منزل الدكتور طارق بسبب تدفق جيرانه إلى بيته لمناقشة الحدث، والتنبؤ بعواقب مختلفة.

بعد أكثر من ساعتين على هذه الحال، أمسك الدكتور يد إسحاق وقاده إلى غرفة الضيوف، فهو يعرف مدى الجهود التي بذلها إسحاق ليأتي إليه ولم يرد أن يضيعّ وقته أكثر من ذلك. لما وصلا إلى الحجرة، جلسا على السرير ثم قال الدكتور:

«نحن الآن في مكان أكثر هدوءاً وعلى انفراد. كيف حالك يا بطل؟».

أسعد لحظات يمضيها إسحاق كانت مع هذا الرجل الذي يعرف كيفية تخفيف أي ألم، ابتسم على الفور ثم قال:

«أنا بطل فقط عندما آتي إلى هنا. وعندما أخرج من هنا، أتحوّل إلى رجل محطّم من جديد».

بدا إسحاق سعيداً ولكن رغم ذلك، لم يتعجب الدكتور من نبرته على الإطلاق. قرّر أن يحثه على الكلام من خلال الأسلوب غير المباشر، الطريقة التي ساعدته كثيراً عبر السنوات الكثيرة ليجعل مرضاه يتكلمون بسهولة. نظر إلى إسحاق ثم قال:

«كلنا نعاني في هذه البلاد بسبب الظروف الراهنة. أحياناً أتمنّى لو لم أكن طبيباً كي أخرج كل مشاكلي من داخلي وأشاركها مع أحد آخر. هل أستطيع أن أعتمد عليك اليوم؟ يعني أنا المريض اليوم وأنت الطبيب».

ابتسم إسحاق مندهشاً، فهو لم يتوقع أبداً بأنه سيسمع ذلك من مضيفه. كان متحمساً للفكرة وقبلها قائلاً:

«طبعاً، لم يخلق بعد مَن سيرفض لك طلب».

تنهّد الدكتور كأنه كان قلقاً بأن إسحاق سيرفض أن يلعب ذلك الدور ثم قال:

«اتفقنا إذاً، ولكن قبل أن أسرد قصتي الطويلة والمملة، أريد أن أعرف ما الذي يجعلك حزيناً إلى هذه الدرجة المخيفة». أخذ إسحاق نفساً طويلاً ثم تكلّم بكل راحة وصراحة:

«نظراً إلى التفاقم المتزايد في الأزمة اللبنانية، أشك بأنني سأكون على قيد الحياة في نهاية هذه الحرب مما سيجعله مستحيلاً عليّ أن أرى ماري من جديد وأطلب يدها».

خاب أمل الدكتور جداً، فقد كان ينوي أن يبدأ بحملته الجديدة الرامية إلى إفهام إسحاق بأنه لا يوجد أي احتمال لأن تكون ماري من نصيبه منذ سنتين، كان يريد أن يبدأ بجملته هذه قبل ذلك بكثير ولكنه أوقف نفسه عندما أخبره إسحاق عن كابوسه في تلك الليلة. فكان إسحاق متأكداً بأن تفسير

الشيخ يشير إلى أن زواجه بماري هي الواقعة التي ستحدث. والدكتور لم يوافقه الرأي لأنه كان واثقاً من أن ذلك الكابوس حصل نتيجة قلقه حول الحرب وليس لأي سبب آخر، ولكنه أبقى رأيه لنفسه ولم يبح له كي لا يفقد ثقة إسحاق.

«هل تعرف ما الذي يعجبني بك كثيراً يا إسحاق؟ قلبك الكبير. أنت متمسك بهذه المرأة لأنك تظن بأنك مدين لها بسبب ما حدث لوالدها وهذا شيء جميل. ولكن عليك أن تكون أكثر واقعية لأنها قد تكون متزوجة الآن ولديها أطفال أيضاً».

ولكن عندما لاحظ الغضب على وجه إسحاق، عدّل كلامه قليلاً وقال:

« وقد تكون غير متزوجة أيضاً. في هذه الدنيا، يتعيّن علينا أن نتوقع كل الاحتمالات». هدأت أعصاب إسحاق عندما قال ذلك ثم قال:

«حتى لو كانت متزوجة، هناك حل لذلك على رأي المثل القائل (لكل عقدة حلال)». استغرب الدكتور واستفسر عن قصده قائلاً:

«لا أرى علاقة لذلك المثل بنقاشنا». ضحك إسحاق ثم قال:

«ما أقصده هو أنني على استعداد لطرد زوجها إذا كانت متزوجة، وحتى إذا كان عندها أطفال، سأعتني بهم لأنني أحبها أكثر مما تتخيل».

كانت خيبة أمل طارق في إسحاق كبيرة وحاول أن يخفيها بابتسامة مزوّرة ومغتصبة. كيف يتخلى هذا الشاب المتديّن عن أخلاقه الدينية بكل هذه السهولة بسبب الحب والغرام؟ فقد الأمل في إمكانية إخراج ماري من تفكيره، عندئذ تنهّد ثم قال:

«أنت جبار يا إسحاق، فأنت لا تمانع أن تدمّر زواجاً وعائلة»، ثم غيّر الموضوع:

«أما بالنسبة إلى مخاوفك بشأن الحرب، لا ينبغي أن تدع التشاؤم يدخل قلبك هكذا. سأقلّدك وأستخدم مثلاً كي أثبت كلامي. هل تعرف المثل الذي يقول (يا أزمة اشتدي كي تنحلي)؟».

نظر إسحاق إليه في حيرة، لم يسبق أن سمع ذلك المثل ولم يفهم معناه.

«لا أعرف ذلك المثل وبصراحة لا أظن بأنه موجود لأن والدي يعرف كل الأمثلة العربية ولم أسمع ذلك منه». ضحك الدكتور ثم قال:

«لقد حان الوقت لك أن تعلّمه مثلاً تعويضاً على الأمثلة التي علّمك إياها. وهذا المثل معناه هو أن الأزمة تشبه البالون، عليها أن تكبر جداً كي تنفجر ثم تختفي وتصبح لا شيء. سوف تتفاقم هذه الأزمة، خصوصاً بعدما قتل الرئيس المنتخب اليوم، وفي غضون ذلك ستنفد قوة كل الجوانب المتطرفة وهكذا ستتوقف المعارك مثل ما حصل في الحروب العالمية وغيرها من الحروب التي لم يكن لها معنى».

هزّت كلماته إسحاق جداً ونهض ثم ألقى نفسه في حضنه. كان خائفاً جداً بسبب المجازر التي صارت منتشرة في كل مكان. أبرزها في ذهنه كان حدثاً حصل في السبعينيات بحيث قتل بعض المسلحين أكثر من ثلاثمائة مسلم أمام الكل بعد إيقافهم في الشارع في بيروت، وأصبحت الحرب أكبر حجماً فعلاً كما تكهّن الدكتور بعدما قتل الرئيس المنتخب المسيحي وبدا لبنان كفيلم رعب في نظر إسحاق. هكذا مرت السنوات الخمس مليئة بالألم وإراقة للدماء ببطء.

ولكن كان هناك تطور إيجابي في وسط كل هذه الأحداث السلبية. أصبح إسحاق متفوّقا في اللغة الإنكليزية من خلال دراسته المكثّفة في البيت في أغلب الأوقات وفي المعهد الإنكليزي مرة كل شهرين. واستفاد جداً أيضاً من صديقه الجديد المدعو يوسف مهدي والذي وُلد في المملكة المتحدة

وأمضى أول خمس عشرة سنة من عمره هناك. تقابلا في المسجد وكانا يتحدثان إلى بعضهما باللغة الإنكليزية فقط يومياً.

وفي عام 1987، بلغ إسحاق سنته الثالثة والثلاثين. كان أذكى وأكثر تدَّينا، وقد حقّق هدفاً مهماً عندما تعلّم اللغة الإنكليزية وأتقنها. وفي ليلة عيد ميلاده في تلك السنة، بدأ يصلّي في كل ليلة يتضرّع لرب العالمين أن يجعل ماري زوجته في المستقبل.

40

ماري 1989

مرّت سنتان قبل أن تسمع سارة قبولاً من ماري بخصوص عرض الزواج الذي قدّمه شوك. والعجيب في الأمر هو أن قرار القبول كان قراراً اتخذته ماري بنفسها بعد الكثير من التفكير.

خلال السنتين الماضيتين، أقنعت ماري نفسها بوجوب أن تتزوج برجل لا تحبه إذا كان هدفها فعلاً هو أن تعذّب نفسها كعقاب لموت لوالدها. فمن خلال زواجها بشوك، ستتم تصفية الحسابات إلى الأبد. وبالإضافة إلى ذلك، ستكون والدتها سعيدة جداً مما سيجعل زواجها كتعويض لها بعد أن حرمتها من العيش مع والدها لمدة أطول.

هكذا ذهبت إلى والدتها مبكراً في 7 يونيو 1989 وقالت:

«لماذا لم أسمع منك كلمة مبارك بعد؟».

نظرت إليها والدتها مندهشة من مزاجها الجميل والسعيد في ذلك الصباح وقالت:

«مبارك على ماذا؟ هل انتهت الحرب في لبنان؟».

«لا، ولكن الحرب ستنتهي قريباً وبدون شك، أنا قررت أن أتزوج بشوك إذا لم يكن عندك أي مانع».

لم تصدّق والدتها أذنيها، لقد انتظرت لسنوات أن تقول ابنتها هذه الكلمات. نهضت عن كرسيها واقتربت إليها ثم قالت:

«أنا أحلم، هل أذني تخدعني أو قلتِ فعلاً بأنك موافقة؟».

لم تجب والدتها، بل رسمت ابتسامة كبيرة لدرجة أصبح من الصعب لأمها أن تقتنع بأن المرأة الواقفة أمامها الآن هي الإنسانة نفسها التي عارضت فكرة الزواج من شوك طوال هذه السنوات. سألتها في دهشة:

«هل يمكننا أن نتمشّى قليلاً؟ أريد أن أتحرك».

أومأت ماري برأسها موافقة ثم أمسكت بيد والدتها ثم خرجتا من البيت. وأول سؤال سألتها إياه في الخارج كان:

«وما الذي جعلك تغيّرين رأيك فجأة هكذا؟».

أظهر سؤالها علامات حيرة على وجه ماري لأنها لم تعرف الإجابة التي بإمكانها أن تقدّمها دون أن تجرح شعور والدتها. أخيراً قالت:

«عمري يزداد يوماً بعد يوم وقرأت تقريراً يقول بأن قدرة المرأة على الإنجاب تصبح أضعف بمرور السنوات لو لم تبدأ بالإنجاب في العشرينيات».

هكذا خيّبت ظن والدتها التي كانت تتمنّى أن تسمع سبباً آخر كحبها فجأة لشوك. تنبّهت ماري إلى هذا وصحّحت كلامها بسرعة».

«وبالإضافة إلى ذلك لن أرى رجلاً بمثل صفاته المثالية والجميلة. هو يحبني جداً وسوف أحبه أيضاً في المستقبل». فرحت أمها عندئذ وقالت:

«أنا أعرف بأنك لا تحبّينه الآن، ولكن لا يشكّل ذلك مشكلة ما دام أنه بإمكانك أن تشاهدي صفاته

الجميلة. هكذا كنت أيضاً عندما طلب والدك يدي، لم أحبه عندئذ لأنني أردت أن أتزوج بجندي كنا قد تربّينا مع بعضنا البعض ولكنه فضّل أن يتزوج بفتاة أخرى. والآن أصبح واضحاً بأن قراري للزواج بوالدك كان أحسن قرار اتخذته في عمري».

ذهلت ماري من هذا الكلام لأنه لم تكن لديها فكرة عن الجندي على الإطلاق وكانت تفكر بأنها عرفت كل شيء عن والدتها. تابعتا المشي في صمت حتى شاهدتا ثنائياً مع ثلاثة أطفال، كان الزوج والزوجة يتمشيان ببطء ويتحدثان إلى بعضهما بأصوات خافتة بينما كان الأطفال يركضون أمامهما. همست سارة في أذن ابنتها قائلة:

«ستصبحين مثل هذه المرأة بعد بضعة سنوات ولكن عليك أن تعديني بأنك ستسمّين طفلك الأول أنطوان إذا كان ولد».

وعدتها ماري بدون تفكير بأنها ستفعل ذلك ثم أضافت أمها مبتسمة:

«وربما سيكون طباخاً يوماً مثل جده أو أحسن».

ضحكتا فيما تحدثتا مع بعضهما عن عدة مواضيع أخرى. مرّت أكثر من ثلاث ساعات قبل رجوعهما إلى البيت مرهقتين. ولكن التعب لم يمنع ماري من الوفاء بوعد قطعته لوالدتها في الخارج بأنها ستتصل بشوك وتخبره عن موافقتها لدى وصولهما البيت.

أخذت سماعة التلفون واتصلت به. ولما سمع صوتها، صرخ قائلاً:

«أووه! أنا لا أصدق. ماري تتصل بي؟ ما أجملها من مفاجأة!».

كان يحق له أن يتعجب من اتصالها لأنه كان دوماً هو مَن يتصل بها، كان مَن يجاملها وينصحها ويهديها في المناسبات، وبمرور الوقت أصبح أيضاً مَن كان يخبرها بآخر المستجدات بشأن الحرب في لبنان، وعندما يراها حزينة في المكتب، كان يرفع من روحها المعنوية أكثر من أي أحد آخر. ولكنها بالرغم من كل ذلك، لم تتذكر عيد ميلاده يوماً ولم تتصل به أكثر من خمس مرات طوال صداقتهما الطويلة. نظرت ماري إلى والدتها التي جاءت لتجلس بجانبها وسعياً لإسعادها، ردت قائلة:

«من اليوم أريد أن أكون أنا من أقدم لك المفاجآت الحلوة والتي ستجعلك أسعد وكي أفعل ذلك بسهولة، قرّرت أن أقبل طلبك للزواج»، توقفت لبرهة ثم استطردت قائلة:

«سيشرفني أن أقضي بقية عمري معك».

إسحاق 1989

استقبل إسحاق سنة 1989 بكثير من التفاؤل. كانت تكهنات الدكتور طارق صحيحة لأن الأوضاع في لبنان كانت تسير نحو السلام بدون شك. وشهدت هذه المدة تحسناً واضحاً في حالة عائلته المادية فقد تمّ تعيين والده مؤخراً مستشاراً مؤقتاً للبنك الدولي بمساعدة أبو جهاد، صديقه الحميم منذ الطفولة. وكانت خبرته مطلوبة في برنامج جديد يهدف إلى إعادة بناء لبنان بعدما تم توقيع اتفاقية السلام.

كان العالم كله يتوقع أن يكون هناك صلح أو هدنة قبل نهاية السنة الحالية، ولذلك كلّف البنك الدولي مهندسين جيدين ومحترفين مثل جمال كشوغي كي يطوفوا المدن في لبنان لدراسة حجم الأضرار التي لحقت بمبانيها ولالتقاط بعض الصور كي يستعمل البنك تقاريرهم والصور من أجل تحديد التمويل المناسب لإعادة بناء المدن من جديد.

شهدت سنوات الحرب تغيُّرا كبيراً في شخصية جمال كشوغي. فهو أصبح أكثر لطفاً وأقل عصبية، ولكن الشيء الذي يلفت الانتباه أكثر يكمن في طريقة حديثه عن المسيحيين، فلم يعد يسخر منهم أو ينتقدهم مثل ذي قبل، بل كان يمدحهم فيما يتكلم عن رغبته في أن يكون لديه أصدقاء مسيحيين بعد الحرب. كان هذا التحول الحاد الشيء الذي شجع إسحاق أن يتوجه إليه يوماً ليفاتحه بشأن ماري:

«بابا، لقد تعلّمت من الماضي ولذلك يتعين عليّ أن أخبرك تفصيلاً مهماً للغاية... أنا لا أزال أحب ماري وأريد أن أبحث عنها بنفسي في الولايات المتحدة».

لم يبد والده مندهشاً من كلامه، بل رمقه وكأنه كان يتوقع أن يسمع منه تلك الكلمات عاجلاً أو آجلاً ثم قال:

«لا مكان في البيت لمثل هذا النوع من النقاشات. عندي مشوار طويل غداً، هل تستطيع أن ترافقني كي نكون على انفراد ونتكلم بأريحية؟».

أومأ ابنه برأسه موافقاً وبحماس واضح ثم قال والده:

«كن جاهزاً غداً صباحاً حوالى الساعة السابعة إذاً».

نهض وربّت على كتف إسحاق قبل أن يصعد إلى حجرته. ظل إسحاق متجمداً في كرسيه، تمنّى لو قال والده شيئاً إضافياً كي تكون لديه فكرة عن رأيه على الأقل، ولكن أعصابه هدأت عندما تذكّر الآية في القرآن التي تقول بأن الله مع الصابرين. فسوف يصبر حتى اليوم التالي ثم يسمع كل شيء.

مرّ بعض الدقائق وذهب إلى غرفته أيضاً وخلد إلى النوم مبكراً. ولكن نومه لم يتجاوز الثلاث ساعات لأنه استفاق ليصلي قيام الليل كما كان يفعل كل ليلة منذ عيد ميلاده قبل سنتين. ومن أجل أمر آخر وهو ما سيدور بينه وبين والده في اليوم التالي. أطال وقت صلاته لتصبح ساعتين تلك الليلة بدلاً من نصف ساعة، فقد كان محتاجاً إلى وقفة والده بجانبه الآن أكثر من أي وقت مضى.

ولم ينتبه إلى أنه قد نام على الأرض حيث كان يصلي. نهض واستحمّ بسرعة ثم صلّى صلاة الفجر. وبعد ذلك نزل لينتظر والده وفي يده القرآن الكريم.

لم يلبث أن قضى أكثر من نصف ساعة في غرفة الجلوس حتى ظهر والده وهو ينزل عبر السلالم في الظلام. لم يرَ جمال ابنه لأن الكهرباء انقطعت في منطقتهم منذ وقت طويل ولذا تعجب

عندما سمع إسحاق يحييه بصوت هادئ. اقترب وأخذ منه حقيبته التي كان وجد بها أوراقه والكاميرا التي يستخدمها أحياناً في التقاط الصور التي تقوي تقاريره. ولكنهما لم يخرجا مباشرة، فقد كان عليهما أن لا ينسيا حقيبة أخرى وضعت بها زوجته أكلهما فيها قبل أن يستيقظا في الصباح.

ساد الصمت في بداية المشوار لمدة تجاوزت الخمس دقائق قبل أن يقول والده:

«سنقوم بجولة حول كل المستشفيات في منطقة الحمراء في بيروت بصفتنا أشخاصاً عاديين كي نتأمل هذه الأماكن براحة أكبر. والهدف هو جمع المعلومات التي ستساعد البنك الدولي على تحديد ميزانية العون المالي المطلوب الذي ينبغي أن يقدّمه للحكومة اللبنانية عندما تنتهي الحرب».

كلامه جعل إسحاق محتاراً بين أمرين وسأله عنهما فوراً:

«لماذا لا نستطيع أن نعلن مباشرة بأننا نعمل بالنيابة عن البنك الدولي؟ ولماذا خرجنا بهذه الكاميرا لأنه سيصعب استخدامها إذا كنا سندخل هذه الأماكن كأناس عاديين؟».

«هذه الأسئلة نفسها التي طرحتها على أبي جهاد عندما ساعدني في الحصول على هذا العمل. أخبرني بأن الغرض وراء هذه المبادرة هو أن يكون لدى البنك الدولي فكرة جيدة ومستقلة عن حالة المؤسسات الحكومية مما سيمكّنها من مقارنة الحقائق الموجودة في تقريري وتقارير المهندسين الآخرين أيضاً». توقّف ليدخّن قليلاً قبل أن يتابع:

« البنك الدولي يريد أن يتأكد بأن حكومتنا لا تبالغ بحجم الخسائر للحصول على المزيد من المال منه. أما بالنسبة إلى سؤالك الثاني، ستفيدنا هذه الكاميرا أحياناً عندما نتواجد في مكان خالٍ من الحراسة المشددة، فالصور دوماً تجعل التقارير أكثر وضوحاً وقوه».

«فهمت يا بابا وأنا فخور بك للغاية». ابتسم والده ثم فاتحه فجأة بشأن ماري:

«لماذا لا زلت تصمّم على التركيز على هذه الفتاة بعد كل ما حصل بينكما؟».

لم يرد أن يذكر موت والدها مباشرة لأن الحدث لا يزال يؤلمه جداً:

«لأنني أحبها ولن يتوقف هذا الحب عن الازدياد لأنه لو كان ذلك سيحدث، لحصل منذ زمن».

«وما هو معنى الحب في نظرك؟».

«معناه الإخلاص والوفاء وكل معنى سامٍ هو رمز للحب، وأيضاً الحب هو ما يجعلك تشعر بالأمان والسعادة».

«هل تقصد بأنك لا تشعر بالسعادة عندما تكون في وسط عائلتك؟ هل أصبحت ماري الوسيلة الوحيدة لك للوصول إلى قمة السعادة؟».

«هذا ليس ما قصدته على الإطلاق، حبي لها وحبي لكم مثل حبك لي ولمحمود أخي مع حبك لوالدتي».

فكّر والده قليلاً مندهشاً من الطريقة التي كان يدافع بها عن موقفه ثم قال:

«عندك إجابة جاهزة لكل سؤال، هل تقرأ ما تقوله من ورقة ما؟».

نظر إلى يد ابنه فجأة كأنه كان فعلاً يشك فيه ثم انفجر ضاحكاً مما جعل إسحاق يطمئن عندما قال:

«أنا أعرف بأن ما أريد أن أفعله مهمة صعبة جداً ولكنها في غاية الأهمية. ولكن بالرغم من ذلك، أنا مستعد أن أتخلى عنها إذا رأيت مجرد إشارة منك تشير إلى ضرورة اتخاذي هذه الخطوة».

لم يقل والده شيئاً لبرهة ثم قال:

«علينا أن نكون صريحين مع بعض، لقد تحوّل هذا الأمر إلى شيء آخر عبر السنوات لدرجة أصبح تعلّقك بهذه الفتاة كالقطار المتحرك. لا يستطيع أحد أن يقف أمامه حتى أنا. ليس بإمكاني أن أبعدك عن حلمك هذا حتى لو أردت فعل ذلك».

اضطر إلى السكوت لمدة قصيرة لأنهما وصلا إلى المستشفى وكان يبحث عن مكان يركن فيه السيارة. فعل ذلك ثم حدّق إلى ابنه مجدداً وقال:

«لك إذني أن تبحث عنها لأنك تحبها»، أخرج دفتره وقلمه من حقيبته ثم قال:

«ولكني يجب أن أكون صريحاً معك. سيكون العثور على ماريٍ أصعب من إيجاد طفل مفقود في إحدى شوارع الصين أو الهند. وإذا كان الحظ حليفك ستجدها فعلاً، سيكون الزواج بها أصعب من الحصول على الدواء الذي يشفي المرض الجديد والخبيث الذي صار على كل لسان مؤخراً... ما اسمه؟ لا أتذكر بالضبط ولكني أظن بأنه يدعى الإيدز.

ماري ـ نهاية الحرب الأهلية

في 5 نوفمبر عام 1989، وقّع أعضاء البرلمان اللبناني على اتفاقية الطائف في المملكة العربية السعودية مما أنهى الحرب الأهلية في لبنان بعد أن دامت حوالى أربع عشرة سنة وسبع أشهر.

وبالنظر إلى الفترة التي سبقت هذه الاتفاقية التاريخية، فقد ساد جو احتفالي مليء بالتفاؤل كافة أنحاء العالم بشأن السلام في لبنان، ولكن لسوء حظ ماري ووالدتها، لم تكونان من ضمن السعداء فلقد شقّ الحزن طريقه إلى حياتهما من جديد، قبل أربعة أشهر من نهاية الحرب في أول أسبوع في شهر يوليو، بعد أن قبلت ماري الزواج بشوك بشهر.

نظراً إلى الأيام التي تلت قبولها لعرض الزواج، كانت تمثّل أسعد مدة قضتها ماري وسارة بعد وفاة أنطوان. وسعادة ماري نبعت من سعادة والدتها التي أحبت شوك كثيراً لأنها اعتبرته يشبه زوجها في الكثير من صفاته، وهذا ما جعل ماري أكثر تأكداً وثقة من قرارها.

في يوم السبت التالي بعد قبولها الزواج به، زارهما شوك مرتدياً ثياباً جعلته يبدو كسائح وعرض عليهما جولة سياحية حول نيويورك. وافقتا ثم اصطحبهما إلى أماكن لن تنسيانها لبقية جماليهما.

كانت زيارتهم الأولى إلى تمثال الحرية في ميناء نيويورك. استقلّوا سفينة للوصول إليه بعد أن ركن شوك سيارته. ولما بلغوا التمثال، أخذ يشرح لهما التفاصيل التاريخية المحيطة بذلك التمثال. أخبرهما مثلاً بأنه يمثل قدرة الناس على اختيار قادتهم وبأن الولايات المتحدة استلمتها من فرنسا كهدية،كما لعب دور المرشد بشكل مثالي خلال المدة الطويلة التي قضوها هناك.

وبعد ذلك، قادهما إلى أطول مبنى في العالم بين عام 1931 و1970، المبنى الذي يدعى The Empire State Building. أبلغهما بأنه يحوي 103 طابق. ذهلتا تماماً عندها نظر إلى ماري فكان أول شيء قاله «يا حبيبتي كان هذا أطول مكان على وجه الأرض قبل عشرين عام».

كانتا متعبتين للغاية بعد تلك الزيارة بالذات وقرّر شوك أن يأخذهما إلى مطعم كوري في منطقة تدعى مدينة كوريا. وبينما كانوا يأكلون، شرح لهم بأن اسم المنطقة يرجع إلى كون أغلب سكانها من الأصل الكوري، استقروا في تلك المنطقة قبل عدة سنوات والآن لديهم الكثير من المتاجر والمطاعم ما يثبت مدى حب الولايات المتحدة للأجانب المجتهدين. ولكن أجمل شيء سمعتاه منه في المطعم عندما قال بأنه يتمنّى أن تكون هناك منطقة لبنانية أيضاً يوماً ما في نيويورك.

وبعد ذلك أعادهما إلى البيت حوالى الساعة الثامنة مساءً. وفي طريقهم إلى البيت، كان يشير بيده إلى أماكن مهمة مثل المدينة الصينية، وفجأة توقّف عن الكلام لأنه أصبح مرهقاً للغاية. هكذا عادتا، ماري وسارة إلى البيت سعيدتين وفرحتين وظلتا هكذا لعدة أسابيع حتى اليوم الخامس من الشهر الذي تلاه.

كان المطر كثيراً بعد منتصف الليل في ذلك اليوم وأصاب سارة زكام شديد منعها من النوم فذهبت الى المطبخ. سمعتها ماري من حجرتها وأسرعت إليها وأحضرت لها كوباً من الشاي وحبّة دواء تدعى تايلنول. شربت سارة الدواء ثم قادتها ماري إلى سريرها.

وفي الصباح، استفاقت ماري من النوم متأخرة وقضت وقت طويل مع والدتها ثم ذهبت إلى العمل ولكنها تأخرت جداً في ذلك اليوم ولدى وصولها إلى المنظمة، تمَّ إبلاغها عن مغادرة امرأة كان لها موعد مهم معها ولكنها ملّت الانتظار ورحلت.

وبعد ذلك، تتالت المصائب الواحدة تلو الأخرى في المكتب، الكمبيوتر لم يكن يعمل جيداً مثلاً وكانت في أمس الحاجة إليه، وبعد ذلك صبَّ عليها أحد الموظفين الشاي من دون أن يقصد وأخيراً سمعت عن مجزرة جديدة في لبنان. كان يوماً مليئاً بالحظ السيئ لدرجة بدأت تفكر بأن تاريخ ذلك اليوم كان 13 فبراير لأن الكثير من الأميركيين يربطون ذلك التاريخ بسوء الحظ.

وحوالى الساعة الثانية والنصف بعد الظهر، حصلت المصيبة الأكبر. تلقت مكالمة من امرأة لا تعرفها:

«أنا أريد أن أتحدث إلى ماري إلياس».

«مرحباً! أنا ماري إلياس، كيف أستطيع أن أخدمك؟».

«أنا الدكتورة أليشا روجرز من مستشفى لونغ أيلاند. والدتك موجودة لدينا منذ بضع ساعات ونريد أن...».

سقطت السماعة من يد ماري وأسرعت إلى المخرج باتجاه سيارتها بسرعة خارقة ولكن أوقفها شوك وأخبرته عن المكالمة على الفور فقادها إلى سيارته لأنها أسرع من سيارتها بكثير.

هكذا بدأ المشوار إلى المستشفى بينما أخذ المطر ينهمر أكثر وأكثر مما تسبّب بالكثير من الزحمة. لم يصلا إلى المستشفى إلاّ بعد ساعتين رغم سرعة سيارة شوك. ولما دخلا وبحثا عن الدكتورة أليشا، تم إخبارهما بأنها قد رحلت منذ نصف ساعة. ولكنه كان هناك طبيب آخر يقوم بعملها، اسمه لاري سندرس. ذهبا إلى مكتبه ثم قدّما نفسيهما إليه.

أبلغهما بأن والدتها جاءت إلى المستشفى في الصباح وكان من المتوقع أن تقيم هناك لعدة أيام. اندهشت ماري وسألته:

«منذ متى يقيم الناس في المستشفى بسبب زكام بسيط؟». أخذ الدكتور نفساً طويلاً ثم قال:

«كانت أليشا تفكر مثلك بالضبط لما حضرت والدتك حوالى الساعة الحادية عشرة في الصباح، وأعطتها مسكنات قوية والتي كان ينبغي أن تخفّض الألم. عادت إلى البيت بعد أقل من نصف ساعة ولكنها رجعت ثانية بعد ساعة واشتكت بأن الألم كان يزداد في فمها وأنفها. قرّرت أليشا عندئذ أن تعطيها ترمادول، أقوى دواء للألم عندنا وأخذت عينات من الدم كي تجري لها بعض الفحوصات».

توقف عندئذ لمدة طويلة كأنه كان يخاف من أن يتكلم. لم يضغط كلاً من شوك أو ماري عليه كي يتكلم لأنهما كانا خائفين مما سيقوله. بدا الجو في مكتبه وكأن العالم قد توقّف ثم تجمّد. أخيراً أكمل كلامه وقال:

«الفحوصات أثبتت ما كنا خائفين منه. يؤسفني جداً أن أخبركما بأن السيدة سارة إلياس تعاني من حالة متقدمة من سرطان الرئة».

ظلت ماري صامتة لبرهة فيما تابعت النظر إلى الدكتور في حيرة قبل أن تصرخ ثم فقدت الوعي وسقطت على الأرض.

تحدث إسحاق إلى والده لساعات في ذلك اليوم الذي رافقه في جولته حول مستشفيات بيروت. أحس كأنه كان في حلم، لأنه لا يزال لديه ذكريات مؤلمة لغضب والده عليه عندما زاره في مكتب الجوازات في دمشق بعد هروبه مع ماري.

كان والده من نصحه في ذلك اليوم بأنه إذا كان يوجد احتمال في العثور على ماري، فسيكون ذلك من خلال عائلتها في صور، جنوب لبنان ولكنه لم يخف عنه الخطر الذي سيرافق تلك الخطوة:

«قد تكون عائلتها على علم بما حدث بينكما ولذلك سيكون ذهابك إليهم شيئاً خطيراً».

«أعرف يا بابا. خطر ذلك في بالي. وبالإضافة إلى ذلك، أنا مسلم وهذه الحقيقة قد تعرّضني إلى القتل من قبل بعض المسيحيين المتطرفين في صور».

«وإذا كان الحظ حليفك ستحصل على بياناتها في الولايات المتحدة بسلامة ويسر، كيف ستتمكن من الحصول على تأشيرة أميركية؟».

ذهل إسحاق من سؤاله لأنه لم يتوقّعه في تلك اللحظة ولكن كان لديه جواباً بالرغم من كونه خجلاً مما كان على وشك قوله:

«بصراحة، خياري الوحيد هو أن أحاول أن أنال التأشيرة من خلال الطريقة نفسها التي حصلت بها على هذه الوظيفة الجديدة». استغرب والده ثم سأله:

«قصدك من خلال أبي جهاد؟».

أومأ إسحاق برأسه موافقاً ثم ضحك والده قائلاً:

«كيف عرفت بأن لدى صديقي علاقات واسعة في كل مكان؟».

«قلت ذلك بنفسك يوماً خلال العشاء، وصفته بأنه شخص لديه حل لأي مشكلة ووسيلة لأي هدف. وبعد ذلك قدّمت لنا جميعاً أمثلة تثبت بأنه لطالما لعب هذا الدور المميز منذ كنتما في المدرسة الثانوية».

لم يتذكر والده ذلك اليوم، وكاد يشك في احتمال فعله ذلك لأنه لطالما يتجنب التكلم عن أصحابه في حديثهم خلال العشاء، ويفضّل أن يركّز على أمور وطنية ودولية مثل حالة البلاد أو أخبار العالم.

«يظهر بأن ذاكرتك أقوى بكثير من ذاكرتي. لقد أصبحت عجوزاً فعلاً لأنني لا أتذكر متى أخبرتكم كل ذلك». توقف ثم قال:

«على فكرة لقد قرّرت الآن أن أرافقك إلى صور. لا أستطيع أن أسمح لك أن تقوم بمثل هذا المشوار لوحدك».

ظل إسحاق صامتاً لبرهة، وأخذ يتساءل عما إذا كان الرجل الذي يقود بجانبه هو نفسه جمال كشوغي الصارم والجاد الذي لا يضحك أو يبتسم كثيراً لأنه كان يعيش في عالم لا تسيطر عليه سوى الجدية والصرامة.

«أقدر موقفك وقرارك هذا ولكنني لا أستطيع أن أسمح لك أن تشترك في هذه المهمة لأنها خطيرة للغاية كما قلت بنفسك، ولا أرى أي مبرر كي أورطك في أمر كنت أنا مسؤولاً عنه لوحدي. عندما أتذكّر ما حدث لوالدها، أكره نفسي ولو حدث لك أي شر، سأنتحر على الفور حتى لو سيأخذني ذلك إلى الجحيم».

لم يرد والده على الفور، ارتسمت حيرة حول وجهه ثم حدّق إلى ابنه فجأة وقال:

«إذا كان ذلك قرارك الأخير، لن أعارضه ولكني أريد أن أقدّم لك اقتراحاً مهماً»، توقّف قليلاً ثم استمر:

«ينبغي أن تبحث عن بيانات ماري من خلال عائلة أمها فقط. لا تقترب من عائلة والدها لأن ذلك أخطر أولاً، وثانياً أنا متأكد بأنه ستكون هناك معلومات أكثر لدى عائلة والدتها عنها».

فكر إسحاق قليلاً ووافقه الرأي ثم ابتسم وقال:

«بصراحة لا أعرف كيف أشكرك على كل ما تفعله. ربنا هو الوحيد الذي يستطيع أن يعوضك على كل هذا».

«أنا أعرف يا ابني بأنني عاملتك بمنتهى القسوة لما حدثت المصيبة وشتمتك وانتقدتك ولكني أريد أن أخبرك الآن بأن الغضب هو الذي كان يتكلم في ذلك الوقت ولم يكن قلبي، فلم أقصد كل ما قلته».

«لا، من فضلك لا تقول ذلك لأنني استحققت معاملة أسوأ مما فعلت وأتمنّى فرصة يوماً ما أبدأ فيها إصلاح أخطائي».

شكّلت تلك الكلمات الأخيرة في ذلك الحديث الطويل والذي انتهى بسبب وصولهما إلى البيت، وذهبا إلى النوم بعد العشاء مباشرة بعد أن أعطيا سعاد ومحمود الكثير من المعلومات عن مشوارهما.

وفي صباح اليوم التالي أخبر إسحاق والدته عمّا دار خلال نقاشه مع والده وغضبت جداً من والده. وانتقدته لعدم إبعاد ابنها عن فكرة الذهاب إلى صور لأنها شبّهت تلك الرحلة بمهمة انتحارية. ولكن بعد يومين، هدأت أعصابها بعض الشيء ولكنها ظلت معترضة للفكرة، ألمحت إلى احتمال قبولها إذا تم تأجيلها إلى السنة القادمة كي يكون السلام قد استقر عندئذ.

وعدها إسحاق أن لا يذهب حتى السنة المقبلة. ولأنه لن يفعل شيئاً خلال الأربع أشهر، قرّر عندئذ أن يركز على الحصول على التأشيرة الأميركية في أثناء ذلك.

ذهب إلى منزل أبي جهاد بعد أن أخذ الإذن من والده. كان بيتاً كبيراً وجميلاً يليق بمنزل موظف سابق في الأمم المتحدة حيث عمل لعشرين سنة. ذهل مضيفه لدى رؤيته لأنه لم تكن لديه أدنى فكرة عن السبب وراء الزيارة. فلقد حضر جمال كشوغي لبيته مرتين ليخبره بأن ابنه سيزوره ولكن كان أبو جهاد غائباً ولم يرد جمال أن يترك رسالة بالتفاصيل حول رغبة إسحاق في رؤيته.

جلس إسحاق معه في غرفة الجلوس وشرح له كل شيء حصل بينه وبين ماري من البداية إلى النهاية، وقال بأنه يريد أن يسافر إلى الولايات المتحدة كي يصلح غلطته، فمصارحته لأبي جهاد كانت ضد نصيحة والده الذي حذره أن لا يقدم إليه إلا معلومات محدودة للغاية ولكن إسحاق لم يوافقه الرأي لأنه أبى فكرة أن يبدأ بهذه المهمة بالكذب.

فتح أبو جهاد فمه عندما كان يصغي إلى كلام إسحاق لأنه لطالما كان رجلاً عاجزاً عن إخفاء مشاعره. ولما انتهى إسحاق، قال:

«قصتك تشبه فيلم أنتجه منتج مجنون. أعرفك جيداً وهذا الشيء الوحيد الذي يؤكد لي بأنك لست مجنوناً».

قطّب إسحاق وجهه لأنه تألّم جداً من كلام مضيفه ولم يستطع أن يخفي ذلك. أما بالنسبة إلى أبي جهاد، فلم يبد أي اهتمام بذلك.

«أنا أعرف بأن كلامي لم يعجبك ولكن ما فعلته ليس شيئاً جيداً على الإطلاق. ويتعين عليّ أن أخبرك لأني دائماً هكذا، أتكلم بصراحة، اسأل والدك وسوف يخبرك بأنني ولدت هكذا وسوف أموت هكذا». أخذ نفساً طويلاً ثم أضاف:

«على العموم، كنت على وشك الخروج عندما جئت أنت. انتظرني حتى أعود».

استدار وانصرف قبل أن يردّ ضيفه. غضب إسحاق جداً وخطر في باله أن يعود إلى البيت ولكن تفكيره بماري كان يكفي أن يسمّره على كرسيه. وهكذا مرّت أربع ساعات حتى ظهر أبو جهاد مجدداً. وبعدما ألقى التحية قال:

«أنا لن أستطيع أن أساعدك لأن كل الذين أعرفهم في وزارة الخارجية متقاعدون».

كانت خيبة الأمل واضحة على وجه إسحاق الذي أجبر نفسه على أن يبتسم، وكان على وشك تقديم الشكر لمضيفه قبل المغادرة ولكن فجأة قال أبو جهاد شيئاً آخر:

«ولكن هناك من أقنعته أن يساعدك، كان وزيراً للخارجية سبق وأن عمل في الأمم المتحدة مثلي. سوف يراك غداً على هذا العنوان»، قدّم ورقة إلى إسحاق ثم أنهى كلامه قائلاً:

«إياك أن تخبره السبب الحقيقي وراء سفرك إلى الولايات المتحدة أو لن ترى تلك البلاد، حتى في أحلامك».

استيقظت ماري بعد ساعة من فقدانها وعيها، فقد تمَّ نقلها قبل ذلك إلى غرفة في المستشفى ووضعت تحت المراقبة الطبية للتأكد من صحتها. وكانت هذه المرة الأولى التي يتم علاجها في مستشفى منذ جاءت إلى الولايات المتحدة، فقد كانت في صحة جيدة ولم تكن مثل والدتها التي كانت تعاني من الزكام مراراً وتكراراً.

فتحت عينيها على وجه شوك الحزين والشاحب. نهضت من السرير على الفور واحتضنته لأول مرة مما أسعده جداً، ولكنها لم تبق في حضنه لمدة طويلة، ابتعدت عنه قبل مرور خمس ثوانٍ فقط ثم قالت:

«أريد أن أرى والدتي فوراً، خذني لها».

لم تنتظر ردّه وأسرعت إلى المخرج دون أن تنظر إليه كأنها كانت تعرف حجرة والدتها. تبعها شوك بسرعة ثم قال:

«هي بخير، لقد رأيتها. سوف آخذك إليها». أمسك بيدها ثم أضاف:

«من فضلك سيطري على نفسك لأنها تحتاج إليك كي تبقى قوية ولن يحصل ذلك إذا اقتحمها إحساس بأنك مصدومة».

وصلا إلى حجرة والدتها ولكنها لم تدخل مباشرة. توقفت كأنها كانت تحلل كلامه. وفجأة أحست بأنها لم تكن قوية بما يكفي للظهور أمام والدتها المسكينة. ابتعدت عن الباب وتمشت إلى آخر الممر كي تستجمع قوتها قبل أن تعود ثانية. تركها شوك لأنه أحس بأنها فضّلت أن تكون بمفردها.

رجعت ودخلت الحجرة دون أن تنظر إليه. ووجدت والدتها صاحية ومستلقية على السرير. ارتفعت معنوياتها لدى رؤية ابنتها وقالت:

«أخيراً جئتِ يا ابنتي. كنت أتوقع أن أراك منذ رأيت شوك، لماذا تأخرتِ هكذا؟».

«كنت في الطريق من البرنكس حيث انشغلت في مهمة. وأنت تعرفين مدى بعد البرنكس من هنا، كيف حالك يا أغلى والدة في العالم؟».

«حالي ليست جيدة كما ترين ولكنها ستتحسن لدى خروجي من هذا المكان الذي يشبه القفص. أنا مشتاقة إلى بيتنا. أخرجيني من هنا من فضلك».

كانت ماري محتارة، كيف ستبقى قوية أمام والدتها؟ وظلت كذلك ولكن لحسن حظها، دخل الدكتور في تلك اللحظة وأنقذها من ذلك الموقف. اقترب منهما ثم قال:

«يشرفني أن أراكما مجدداً».

أراد أن يسعدهما ولذا تكلم بصوت حيوي للغاية ولكنه عندما حدّق إليهما بعد تعليقه، عرف بأنه قد فشل في ذلك. كانت سارة تقطب وجهها وكأنه تم إلقاء القبض عليهما وسجنتا في ذلك المستشفى. قالت ماري عندئذ:

«والدتي ليست سعيدة هنا كما ترى يا دكتور، لا أعرف لماذا. ربما الحجرة ليست مناسبة»، قاطعتها أمها فوراً:

«الحجرة ليست المشكلة وأنت تعرفين ذلك».

صرفت عينيها عن ماري وركّزت على الدكتور ثم قالت:

«كل ما في الأمر هو أني أشتاق إلى بيتي وأريد أن أرجع هناك الآن. أعرف بأنني مريضة ولكني لا أظن بأنه مستحيل أن أحصل على العلاج في بيتي».

هزّ الدكتور رأسه علامة على عجزه عن تلبية طلبها. أجهشت سارة وماري في البكاء عندئذ، حاول شوك تهدئتهما فيما بذل قصارى جهده كي يبدو قوياً، ولكنه لم يتمكن من منع دموعه من أن تنهمر على خديه أيضاً.

لم يقل الدكتور شيئاً في تلك الأثناء. كانت لديه الخبرة الواسعة في التعامل مع الناس في مثل هذه المواقف، ترك مجالاً كافياً للألم أن يخرج منهما كي يتمكن من السيطرة على الوضع لاحقاً. مرّ بعض الوقت قبل أن يتدخل ويقول:

«لا يوجد مكان أفضل من البيت، أنا أعلم ذلك، وأظن أنه لا يوجد من يعارضني بذلك». توقف ثم استمر:

«لا مانع لديّ بأن أسمح لك يا سيدة إلياس بالذهاب إلى البيت الآن ولكني لا أستطيع لأني أعرف أهمية وجودك هنا».

اقترب منها وجلس على الكرسي بجانب سريرها قبل أن يستطرد:

«كما قالت لك زميلتي قبل حضوري، لديك سرطان في الرئة. وحسب الفحوصات التي أجريناها، كان هذا السرطان موجوداً منذ مدة طويلة ولكن خطورته بقيت محدودة لأنه لم يتحرك من مكانه، أما الآن للأسف الشديد فقد تغيّرت طبيعته وانتشر حتى وصل إلى حلقك وأنفك ولذلك كنت تشعرين بأن لديك زكاماً».

كانت سارة وماري ترتعشان لحديثه، لم تقولا شيئاً على الإطلاق، حتى بعد أن أنهى كلامه. هكذا ساد صمت طويل حتى تجرأت سارة أن تطرح سؤالين:

«لماذا لم أحس بوجود هذا السرطان في داخلي طوال هذه السنوات ولماذا بدأ ينتشر الآن؟ هل فعلت شيئاً أو أكلت شيئاً لإحداث مثل هذا التغيير في طبيعته؟».

كانت حزينة جداً وخافت من أن يصبح ذلك المستشفى بيتها الجديد ومنه ستنقل إلى قبرها. أرادت فجأة أن تعود إلى لبنان ولكنها شكّت في احتمال قدرتها على تحمّل السفر. كان الدكتور على وشك الرد على سؤاليها ولكن أوقفته سلسلة أسئلة من ماري أيضاً:

«هل ينبغي علينا أن لا نحاول أن نبحث عن رأي آخر من مستشفى آخر؟ لقد سمعت عن عدة حالات حيث كان هناك خطأ في التحليل وقد تكون نتيجة الفحوصات في حالة أمي مماثلة».

كان الدكتور متأكداً بأن التحليل كان صحيحاً ولم يعرف كيفية إبلاغهما ذلك دون أن يغضبهما أو يجرح شعورهما. فالمعمل في ذلك المستشفى يعتبر من أفضل المعامل في الساحل الشرقي. وبالإضافة إلى ذلك، كان يتميز بمتخصصين محترفين يعملون بشكل مستقل عن بعضهم البعض كي تتم مقارنة نتائج فحوصاتهم قبل أن تعلن النتيجة الرسمية للمرضى.

«إذا أردتم الحصول على تحليل في مكان آخر، ليس لديّ أي مانع. هل تعرفون أي مستشفى آخر أو هل تفضلون اقتراحات منا؟».

تدخّل شوك عندئذ على أمل أن يقدّم نفسه ضمن صانعي القرارات في تلك العائلة:

«لا نحتاج إلى أي اقتراحات، فخالتي دكتورة كبيرة في مانهاتن، سنذهب إليها».

غضب الدكتور من نبرته الاستفزازية وتجنّب النظر إليه ثم طرح سؤالاً على سارة:

«هل أنت متفقة معه؟».

لم تجبه، بل أومأت برأسها علامة بالإيجاب مما خيّب ظن الدكتور جداً، ظل صامتاً لبرهة ثم نظر إليها قائلاً:

«سوف أبلغ المحاسبة أن تعدّ كل الأوراق اللازمة لرحيلك يا سيدة إلياس، وفي حال رغبتك في العودة إلينا، سيشرفنا أن نقدّم لك أحسن علاج».

رافق ماري وشوك إلى قسم الحسابات. كانت الفاتورة ثلاثة آلاف دولار للفحوصات والاستشارة. أصرّ شوك على أن يدفع ببطاقته الائتمانية ولم يقبل رفض ماري. لم يعجبها ذلك وكانت ستتابع معارضتها لولا حالتها التعيسة في ذلك الحين. وبعد أقل من عشرين دقيقة كانوا في الطريق إلى مستشفى في مانهاتن يدعى تكلن، في منطقة تدعى القرية، وهي المنطقة نفسها التي توجد فيها جامعة نيويورك المشهورة.

لدى وصولهم، تمَّ إخبارهم بأن خالته غير موجودة ولكن ذلك لم يمنعهم من الحصول على المعاملة الطيبة جداً لأن الكل يعرفون شوك في المستشفى، فهو يزور خالته دائماً برفقة والدته.

ذهبوا مباشرة إلى مكتب دكتورة أخرى تدعى سالي إميلتون وبعد أن أخبرها شوك سبب قدومهم، تم إجراء الفحوصات اللازمة على الفور. وبعد مرور حوالى أربع ساعات عرفوا النتائج التي للأسف أكدت الأخبار نفسها التي سمعوها في المستشفى الآخر. انتشر الحزن وتبخّر ما تبقى من الأمل لديهم.

طلبت سارة من شوك أن يقلّهما إلى البيت كي تفكر عما إذا كان ينبغي أن تعالج في ذلك المستشفى أو الآخر.

شدة الحماس أبعدت النوم عن عيون إسحاق في تلك الليلة قبل مقابلته بالوزير الأسبق الذي قد يساعده في الحصول على تأشيرة أميركية. لم تمر أكثر من نصف ساعة دون أن يلقي فيها النظر إلى الورقة التي كان بها عنوان الوزير واسمه الكامل، فالرجل يدعى غسان ببلاوي واستغرب إسحاق لأنه لم يسبق أن التقى برجل لبناني باسم ببلاوي.

نهض من السرير عندما تبين له بأن النوم بات مستحيلاً وجلس على كرسي ليفكر بما ينبغي أن يقوله للرجل. قرّر أن يقول بأن عمه في الولايات المتحدة يرغب في تمويل دراسته هناك. ولكن حتى الآن لم يقتنع بأن الكذب كان ضرورياً ولكنه كان مصمماً على المضي قدماً ما دام ذلك هو ما نصحه به والده وأبو جهاد.

وهذا الإحساس بالذنب جعله يستغفر ربه كثيراً. فهو قد أصبح الآن أكثر تديُّنا لدرجة كان يحاسب نفسه على كل شيء حتى لمجرد النظر إلى امرأة جميلة في الشارع، فكان متأكداً بأنه إذا كانت ماري ستتحول في حياته من مجرد سراب إلى واقع وحقيقة يوماً ما، فسيحصل ذلك فقط بسبب سلوكه الطيب والطاهر.

لم ينم معظم تلك الليلة، وحوالى الساعة السابعة في صباح اليوم التالي، كان في طريقه إلى موعده، فقد عرض عليه والده أن يأخذه إلى هناك بسيارته ولكنه فضّل أن يبحث عن سيارة أجرة كي لا يزعجه علي الإطلاق. أمضى وقتاً طويلاً وهو يبحث عن سيارة أجرة ولكنه لحسن حظه، بالرغم من ذلك تمكن من الوصول إلى منزل غسان ببلاوي قبل الموعد.

البيت في أغنى منطقة في بيروت ما جعل إسحاق يخشى أن يكون الرجل متكبراً. وعندما وصل أمام الباب، لم يمض أكثر من دقيقة أمامه قبل أن يفتح له الحراس عندما ذكر لهم اسمه. تفاجأ عندما اكتشف بأن إسحاق لم تكن لديه سيارة.

أُدخل إسحاق داخل منزل جميل على جدرانه أجمل صور عن أهم المدن في العالم كباريس وروما ونيويورك ولندن. وكانت هناك أيضاً خريطة كبيرة على الجدار. جلس إسحاق على كرسي عريض فيما ظل يتأمل الصور الجميلة على الجدران وانتظر طويلاً حتى ظهر مضيفه مرتدياً جلابية بيضاء.

كان غسان رجلاً ضخماً يتميز بعيون ناعسة وشعر طويل. نهض إسحاق ليسلم عليه احتراماً له ولكن غسان أمره فوراً أن يجلس مجدداً بإشارة من يديه. صافح يد إسحاق ودخل في الموضوع مباشرة.

«لماذا تريد أن تذهب إلى الولايات المتحدة؟».

سكت إسحاق لبرهة لأنه ذهل من نبرته السريعة ونظرته الحادة:

«عمي يريد أن أعيش معه فهو يشعر بالوحدة هناك ويظن بأنني سأملأ الفراغ في حياته. وبالإضافة إلى ذلك، وعدني أن يموّل دراستي ولطالما أردت أن أكمل دراستي في الولايات المتحدة كي أجيد اللغة الإنكليزية وأحصل على وظيفة جيدة».

«برافو عليك يا ابني. أنا أيضاً أحب اللغات ولكني أفضل الإيطالية. اللغة الإنكليزية لا تثير اهتمامي ولا أعرف لماذا».

نهض فجأة مبتسماً كأن كلمات إسحاق أقنعته وأعجبته ثم ذهب إلى مكان ما وعاد مع فنجاني قهوة وقال:

«هل تعرف بأن عدد اللبنانيين خارج لبنان في هذه الأيام أكثر من الداخل؟».

لم يعط إسحاق فرصة لقول شيء ثم استطرد كأنه يتحدث إلى نفسه:

«وهذه الحقيقة تعجبني لأن اللبنانيين في الخارج سينشرون صورة وفكرة عن هذه البلاد العظيمة حول الكون مما سيزيد من الاستثمار في لبنان. وأظن بأنك ستمثل دولتنا جيداً في الولايات المتحدة».

«أشكرك جداً يا سيدي وأتمنّى أن أكون دائماً عند حسن ظنك».

«عندما سألتك عن السبب وراء رغبتك في الذهاب إلى الولايات المتحدة، فعلت ذلك فقط كي أعرف أكثر عنك. لقد قررت مساعدتك بشأن التأشيرة قبل حضورك هنا، وحتى لو لم يعجبني كلامك، لن يجعلني ذلك أغيّر قراري». تنهّد ثم سأل إسحاق:

«هل أنت جاهز للذهاب إلى سوريا من أجل الحصول على التأشيرة؟».

اقشعرّ جسد إسحاق لدى سماعه كلمة سوريا بسبب ما حدث له هناك. قرّر أن يستفسر عما إذا كان هناك خياراً آخر:

«هل قلت سوريا يا سيدي؟ ألا يوجد مكان آخر مثل الأردن أو مصر؟».

غضب غسان على الفور واعتبر تعليق ضيفه قلة الأدب. ألقى عليه نظرة غريبة ثم قال:

«لماذا تسألني سؤالاً سخيفاً مثل هذا؟ لماذا لا تريد أن تذهب إلى سوريا؟».

عرف إسحاق بأنه أخطأ في كلامه وحاول أن يصلح ما قاله قائلاً:

«ليس عندي مانع من الذهاب إلى هناك. كل ما في الأمر هو أنني دائماً أسمع من الأصدقاء أشياء سلبية عن الدور الذي تلعبه تلك البلاد في حربنا الأهلية».

«يا ابني لا تصدّق كل ما تسمعه من الناس، فالأعداء كثيرون وسيدفعون ثمناً باهظاً إزاءَ ذلك، سيعاقبون».

لم يفهم إسحاق قصده ولكنه تصرّف كأنه يوافقه الرأي ثم كرّر كلامه كي يسعده ويمنعه في الوقت نفسه من تغيير قراره لمساعدته.

«معك حق يا سيدي، فسيعاقب الأعداء».

فرح غسان عندئذ وصافح يده من جديد ثم أعطاه بطاقته الشخصية حيث كتب شيئاً خلفها وقال:

«اذهب إلى هاري فيتزجيرالد، السفير الأميركي في سوريا بعد أسبوع. لم أتكلم معه منذ عدة سنوات ولكن صديقاً مشتركاً أخبرني بأنه السفير الأميركي في سوريا حالياً».

حدّق إليه إسحاق بنظرة مستفسرة آملاً في الحصول على تفاصيل أكثر ولكن قبل أن يتفوّه بأي كلمة، طرح مضيفه سؤالاً:

«هل لديك جواز سفر ساري الصلاحية؟».

«لا فقد انتهى منذ أكثر من عقد».

قطّب غسان وجهه فجأة ثم قال:

«هذا الأمر أصعب مما تخيلت. عليك أن تنتظرني لساعة كي نخرج معا لنزور من سيساعدك في الحصول على جواز السفر الجديد بسرعة». ابتسم إسحاق ثم قال:

«أنت رجل طيب وكريم. أمثالك نادرون جداً. شكراً جزيلاً لك».

ابتسم مضيفه أيضاَ ثم تركه لمدة تفوق الساعة ولما ظهر مجدداَ، أصرّ على أن يفطرا معاَ مما أخّرهما في بيته لساعة إضافية. ولما خرجا أخيراً، توجها إلى مكتب مهجور في داخل المدينة. كان هناك أستوديو من الجانب الآخر من المكتب.

لدى دخولهما، ظهر رجل قصير ذو نظارة ثقيلة. اقترب من السيد غسان مباشرة وقبّل يده عدة مرات ثم أخذا يتكلمان مع بعض بأصوات خافتة لدرجة لم يسمعهما إسحاق. وبعد حديث دام لحوالى خمس دقائق، ذهب الرجل ناحية إسحاق وعرّف عن نفسه ثم قاده إلي الأستوديو بحيث التقط له صورة وأعطاه ورقة ليكتب عليها كل تفاصيله الشخصية. وبعد ذلك، ركز عينيه على السيد غسان كأن إسحاق لم يكن موجوداً وقال:

«سوف أتدبر أمره خلال ثلاثة أيام».

شكره إسحاق ثم نظر إلى السيد غسان قبل أن يقول مبتسماً:

«لا أعرف كيف أشكرك لهذا الجميل». بدا السيد غسان كأنه لم يلتفت إلى تعليقه ثم قال:

«عليك أن ترجع هنا خلال ثلاثة أيام لتأخذ جواز سفرك ثم تسافر إلى سوريا بعد ثلاثة أيام من ذلك اليوم، هكذا ستكون في مكتب صديقنا هناك في اليوم السابع بعد اليوم». صافح إسحاق يده بحماس ثم سأله:

«هل تحتاج إلى شيء من سوريا؟».

«المهم هو أن تذهب وترجع بسلام. الآن هناك أمر أودّ أن أتحدث إلى هذا الرجل عنه، ولذلك عليك أن تنصرف».

اندهش إسحاق من برودته المفاجئة ولم يتخيل بأنه الرجل نفسه الذي تناول الفطور معه وكان يحادثه بلطف. غادر المكان بهدوء بعد أن ودّعهما.

ماري، يوليو- ديسمبر 1989

في الخامس من نوفمبر 1989 اليوم الذي شهد توقيع عقد إعادة السلام إلى لبنان، وطنها الأصلي، كانت سارة إلياس في المستشفى في لونغ أيلاند حيث أمضت حوالى أربعة أشهر. فهي اختارت أن تعالج في ذلك المستشفى لأنه كان أقرب إلى بيتها. ولولا الألم الكبير الذي كانت تشعر به في جسمها لما قبلت أن تكون في أي مكان خارج منزلها،فلدى وصولها إلى المستشفى برفقة ماري في اليوم التالي ، قابلت ماري الدكتورة أليشا روجز لأول مرة وتمنّت على الفور أن تكون هي المكلّفة والتي ستعتني بوالدتها بشكل دائم بسبب الحنان والطيبة اللذين لاحظتهما في شخصيتها.

كانت الدكتورة تقوم بجولتها المعتادة في المستشفى لدى حضورهما، وحتى بالرغم من عدم معرفتها بماري، سلّمت عليها كأنهما صديقتان حميمتان ثم ركّزت عينيها على سارة وقالت:

«أهلاً وسهلاً يا مدام».

أرادت أن تناديها باسمها ولكنها لم تتذكّره. ابتسمت سارة ثم قدمت ابنتها إليها قائلة:

«هذه ابنتي الوحيدة وتدعى ماري».

تبادلا التحية من جديد ثم تركتهما الدكتورة لحوالى نصف ساعة كي تقوم بكل التجهيزات الضرورية من أجل إدخال سارة في المستشفى. ولدى عودتها إليهما، قادتهما إلى غرفة في جناح مختلف عن جناحها السابق ثم تركتهما مجدداً لحوالى ساعة كي تستقر سارة في حجرتها الجديدة.

وعندما رجعت الدكتورة، تعرفت إلى شوك الذي كان موجوداً عندهما عندئذ ثم تحدثت إليهم عن الإجراءات التي تنوي اتخاذها لمعالجة حالة سارة. كانت الدكتورة متأكدة بأن الشفاء كان مستحيلاً بسبب الانتشار الواسع للسرطان. لم تخبر أحداً عن تشاؤمها كي لا تمنعهم من تشجيع سارة لبذل كافة جهودها لمكافحة المرض.

قرّرت المضي قدماً بالعلاج لأن المعجزات تحصل من الحين للآخر وأرادت أن تخفف الألم مما سيمكن سارة من العيش لمدة أطول. اختارت العلاج المشهور الذي يدعى العلاج الكيميائيchemotherapy. جلست الدكتورة بجانبها ثم طرحت عليها سؤالاً:

«هل تريدين أن تستريحي الآن أو هل نستطيع أن نتكلم؟».

أومأت سارة برأسها علامة على رغبتها في النقاش ثم استطردت الدكتورة قائلة:

«كما تعرفين، أنت تعانين من سرطان في الرئة وقد انتشر الورم إلى مناطق عدة في جسمك. نريد أن نستخدم إجراءً مشهوراً يدعى بكيموترابي لمعالجة هذا الأمر ولكننا لن نستعمل هذا الأسلوب كما يفعل البعض بحيث يعتمدون على دواء واحد في الكيموترابي، بل نحن سنعتمد على مجموعة من الأدوية في الوقت نفسه لمعالجة حالتك بسبب انتشار السرطان. هل أستطيع أن أتابع كلامي؟».

أذنت لها سارة أن تستمر بعد أن استوعبت كل تلك التفاصيل بصعوبة ثم استطردت الدكتورة:

«فالدواءان اللذان اقترحهما لعلاجك ندعوهما فنكرستين وسيكلوفسفامد. فهما قويان للغاية ولذلك علينا أن نأخذ عينّة من دمك كي نتأكد بأن جسمك لن يرفضهما».

وبعد أن نالت موافقة سارة على كل هذا، خرجت من الحجرة، فأخذوا يثرثرون وسط قلق وتوتر مترقبين. ولكنهم توقفوا عندما دخلت الممرضة لتأخذ عينة من دم سارة. بعدها دخل متخصص في

الحساسية كي يسألها بعض الأسئلة عن الأدوية التي لا بد من تجنّبها في علاجها.

وبعد أن تم تحليل دمها ومراجعة كل المعلومات، اتضح بأن جسمها سيرفض الفنكرستين، ولذلك تم تبديل ذلك الدواء بدواء آخر يدعى دوكسوربسين Doxorubicin، وهكذا تم تحديد السيكلوفسفامد والدوكسوربسين لعلاجها في عملية الكيموترابي. وبهذه التطورات، أصبح المسرح جاهزاً لسارة أن تخوض أكبر معركة في حياتها.

á á á

مرّت أيام وأسابيع وتابعت سارة مكافحتها دون أن تفقد الأمل، فهي كانت شجاعة جداً. أما بالنسبة إلى ماري فقد انتقلت إلى المستشفى للعيش معها تقريباً. لم ترد أن تترك والدتها وحدها وتعلمت أشياء كثيرة عن الطب لدرجة أصبحت مؤهلة لتكون ممرضة بعد بعض التوجيهات.

وتغيير آخر طرأ في حياة ماري في هذه المدة كان دخولها في حملة ضد التدخين. كرهت السجائر لأن معظم ضحايا سرطان الرئة أصبحوا ضحايا بسبب إدمانهم التدخين أو قربهم إلى المدمنين للسجائر، وكانت متأكدة بأن والدتها أصبحت ضحية لسرطان الرئة من خلال الذين كانوا يدخنون في المطعم الذي عملت فيه طوال تلك السنوات. وتفكيرها هذا جعل ماري تندم على هجرتهما إلى الولايات المتحدة لأول مرة.

انضمت إلى جمعية اسمها (مواطنون قلقون) وكان الهدف الرئيسي لها هو نشر الوعي حول الأخطار المتعلقة بالتدخين. فلقد تم تأسيسها من قبل أرملة مات زوجها بسبب سرطان الرئة. وكانت الجمعية تنظّم جولات حول نيويورك من أجل تحقيق أهدافها بحيث يرتدي أعضاء الجمعية قمصاناً بشعارها المشهور – (السجائر تؤذي كما الرصاص). وأحياناً تنتقد الجمعية الصحافة مدّعية بأنها لا تعطي المواطنين فكرة حقيقية عن العواقب الخطيرة للتدخين.

وبعد مرور حوالى ثلاثة أشهر ونصف في العيادة، كان هناك تحسّنٍ كبير في حالة سارة والذي أذهل الجميع، حتى الدكتورة أليشا المتشائمة بدأت تستسلم للتفاؤل قليلاً وأحست فجأة بأن سارة قد تعيش لسنتين إضافيتين، وليس لعدة أشهر إضافية فقط كما افترضت من قبل. ولكن في السادس من نوفمبر في العام نفسه تدهورت حالتها من جديد.

والتقدم البسيط الذي شهدته صحتها سابقاً نبع من تفاعلها مع الكيموترابي الذي أهلك معظم الخلايا التي تحمل السرطان في جسمها. ولكن لسوء حظ سارة، تمكنت هذه الخلايا من أن تنتج بعض الخلايا الأخرى قبل موتها، وهذا التطور هو الذي كانت أليشا تخاف منه منذ البداية لأنها كانت تعرف بأنه لو حدث ذلك، ستكون سارة في حالة أخطر من ذي قبل. فمثل تلك الخلايا الجديدة عادة تتبنّى طبيعة شرسة جداً لدى ولادتها وهذا ما حصل بالضبط. نشرت هذه الخلايا التي تدعى بالغليكروبروتين السرطان من جديد وحول كل أنحاء جسم سارة هذه المرة كأنها كانت تشنّ عليها حملة انتقامية مما أدى إلى موت بطيء ومؤلم في 12 من نوفمبر 1989.

بعد ثلاث أيام، رجع إسحاق إلى المكتب نفسه على أمل رؤية الرجل نفسه الذي التقط صورة له من أجل جواز سفره، كان قلقاً لأنه لم يعرف حتى اسمه وفي حال غيابه، سيصعب العثور عليه.

عندما وصل إلى أمام المبنى، وجده مغلقاً. قرّر عندئذ أن يبحث عن أقرب مقهى ولكنه لم يجد أي مقهى، لم يكن لديه خيار آخر سوى الدخول إلى محل أمام المبنى. استقبله صاحبه الطيب والودود لأنه شاهده لدى وقوفه أمام ذلك المبنى ولم يرَ أي مانع من أن يعطيه مكاناً كي ينتظر فيه حتى يحضر أحد موظفين الشركة. أخبر إسحاق أن يجلس بجانبه، وهكذا دار بينهما حوار مثير.

عند الساعة الثانية عشر، ظهرت امرأة شابة عند باب المبنى وكانت تحاول فتحه. استأذن من مضيفه بسرعة وخرج مسرعاً إليها. حتى هي تعجبت عندما شاهدته من بعيد. اعتذر لها على الإزعاج ثم أخبرها بأنه كان على موعد مع موظف هناك، وأصبح خجلاً عندما اضطر إلى الاعتراف بأنه لم يعرف اسم الرجل. حدّقت إليه في حيرة ثم سألته:

«هل هو السيد سلطان حمدي الرجل الذي تحكي عنه؟».

ظل ينظر إليها دون أن يقول شيئاً مما جعلها تصف من كانت تقصده حتى اكتشف بأنه الشخص نفسه الذي قابله قبل ثلاثة أيام. أومأ برأسه مؤكداً بأنه هو فقالت:

«لقد سافر إلى قريته بالأمس لأنه فقد أخيه الأكبر..». قدّمت نفسها إليه:

«اسمي أسمهان وأنا سكرتيرته».

شعر إسحاق بالحزن لدى سماعه خبر وفاة أخ السيد حمدي ثم قال:

«الله يرحمه ويقوّي مديرك كي يتحمل فقدانه». توقف قليلاً قبل أن يقول:

«وأنا اسمي إسحاق». ثم صافح يدها وتعجّب لأنها كانت ساخنة.

«هل أنت بخير؟ يظهر بأنك مريضة». تنهدت قبل أن تقول:

«كنت مريضة لمدة طويلة ولكن الحمد لله، صحتي تتحسن الآن. أنا أستغرب أنك لاحظت ذلك وأشكرك لاهتمامك».

«لا تكترثي لهذا. متى سيعود من السفر؟».

«ربما بعد شهر». بدا إسحاق مصدوماً للغاية عندما قالت ذلك مما جعلها تسأله:

«لماذا تريد أن تراه؟».

«أخبرني بأن جواز سفري سيكون جاهزاً اليوم، ويتعين عليّ السفر بعد بضعة أيام وأنا أحتاجه لذلك».

فكّرت بكلامه فيما تساءلت عما إذا كان مديرها قد ترك جواز سفره داخل المكتب:

«انتظرني قليلاً، سوف أدخل وأبحث عنه. ما اسمك بالكامل»؟

أجابها ثم فتحت الباب وركضت إلى الداخل بينما حبس أنفاسه. كان قلبه يخفق لدى انتظاره لعودتها. مرّت أكثر من خمس عشرة دقيقة قبل أن تعود. بدت مرهقة للغاية عندما نظرت إليه بمرح ثم قالت مبتسمة:

«أنت محظوظ يا سيدي. بعد أن فقدت الأمل في احتمال العثور على جواز سفرك، وجدته على

الطاولة أمامي فيقال إنك عندما تبحث عن شيء فأنت لا تراه إذا كان أمام عينيك».

أعطته إياه، أخذ يضحك فيما نظرت إليه بتمعّن. كان جواز السفر فعلاً. أخذ يمسكه وكأن حياته كانت تعتمد عليه.

«لا أعرف كيف أشكرك. أزعجتك وأنت مريضة».

«ليس هناك داعٍ أن تبرّر ما فعلته لأنني أدرك بأن جواز سفرك أهم في نظرك مني». استغرب إسحاق وقال:

«لما قلتِ ذلك؟ ليس كلامك صحيحاً على الإطلاق». ضحكت ثم قالت:

«هل أنت جاهز لإثبات ما قلته الآن؟».

لم يكن باله مرتاحاً لطريقة كلامها ولكنه قرر أن يستمر في ما شابه اللعبة:

«نعم، طبعاً». ابتسمت قبل أن تقول:

«رافقني إلى بيتي إذاً كي تتأكد بأنني أصل إلى هناك بسلام».

لم تعجبه الفكرة ولكنه وافق على كل حال لأنه لا يزال ممتنًّا لها، فهي التي جلبت له جواز سفره.

«اتفقنا، هيا بنا».

«إلى أين؟ متى جئت إلى العمل كي أرحل بهذه السرعة؟ لا يا سيدي، عليك أن تصبر لساعة على الأقل إذا كنت لا تريدني أن أفقد وظيفتي. تعال إلى الداخل كي أحضر لك فنجاناً من القهوة». رفض ذلك الاقتراح:

«أفضل الذهاب إلى مكان قريب ما وسأرجع لأرافقك عندما تودين الرجوع إلى بيتك».

تجاهلت ما قاله كأنه كان يتحدث إلى نفسه وجرّته إلى الداخل ثم قادته إلى المكان نفسه الذي التقط فيه صورة لجوازه. جلس على كرسي فيما ظل صامتاً لأنه لم يحب أسلوب تعاملها معه. وفي غضون ذلك، تركته لبرهة ثم عادت بفنجان قهوة قبل أن تنشغل بعملها لمدة حوالى أربعين دقيقة.

ظهرت فجأة مجدداً وأخبرته بأنه بإمكانهما الذهاب فوراً. خرجا من المكتب وأخذا يتمشيان في الشارع فيما كانا يتبادلان الأحاديث.

«أنت شاب جميل جداً، أنا متأكدة بأنك تسمع ذلك دائماً من النساء». ذهل إسحاق من شجاعتها في هذا الكلام ثم قال:

«أنت تقولين ذلك فقط لأنك لم تري أخي بعد. فهو مَن سرق جمال والدتي». ضحكت وقالت:

«حتى لو كان أجمل منك، لا يمكن أن يكون طيِّبا مثلك. سألتني عن صحتي والآن ترافقني إلى بيتي. هل أنت خاطب أو متزوج؟».

«لا، ولكني أريد أتزوج بدون خطوبة. أنا مستعجل جداً للزواج. وسأتزوج بإذن الله في أسرع وقت ممكن».

فرحت جداً عندما قال ذلك وبدأت تحترمه أكثر لأنها تظن بأن معظم الشباب في ذلك الزمن يكرهون تحمّل المسؤولية. تمنّت أن تجد عريساً يوماً بهذا الحماس للزواج.

«هل أكملت الجامعة؟».

«لا، ولكني أسعى إلى الحصول على شهادة في اللغة الإنكليزية، وأجيدها الآن». ابتسمت ثانية ثم

طرحت سؤالاً آخر:

«إلى أين ستسافر بهذا الجواز؟».

ابتسم إسحاق لدى سماعه سؤالها لأن ماري ظهرت فجأة في خياله:

«سأسافر إلى الولايات المتحدة بإذن الله كي أرى من أريد أن أتزوج بها».

لم تتوقع أن تسمع ما قاله وبدت مصدومة من كلامه فيما اقتحمتها الغيرة الشديدة:

«ومن هذه المرأة الأنانية التي أخذت قلبك معها إلى مكان بعيد كالولايات المتحدة؟ وماذا ستفعل إذا كانت قد وقعت في غرام رجل آخر ولا تريد أن تراك لدى وصولك هناك؟».

«أولاً، ليست أنانية وثانياً، لو لم تريد أن تراني، قد أنتحر لأنني أعرف بأن حبي لها سيكون من ضمن الأشياء التي ستصحبني إلى قبري». توقّفت وتجمّدت مثل تمثال ثم قالت:

«أنا نسيت شيئاً في المكتب ويجب أن أعود هناك فوراً». صافحت يده مجدداً ثم قالت:

«ليس هناك داع لترافقني لأنني قد أخذت ما يكفي من وقتك. إلى اللقاء يا إسحاق».

ثم استدارت ومشت بعيداً عنه على الفور دون أن تعطيه فرصة ليودّعها كما فعلت.

كانت وفاة والدتها أكثر ألماً لماري من وفاة والدها لعدة أسباب. أولاً، لقد أصبحت وحيدة الآن في الولايات المتحدة لأن لم يكن لديها أي أقارب هناك. ثانياً، كانت والدتها فرحة جداً منذ أن وافقت على الزواج بشوك مما جعلها تريد أن تتزوج به بسرعة كي تكون سعادتها كاملة، ولكن قد أصبح ذلك مستحيلاً الآن بسبب موتها. وثالثاً وأخيراً، كان موت والدتها بطيئاً وتألمت كثيراً مما جعله حدثاً مرًّا يتعذر مسحه من ذاكرتها.

والتكيّف مع هذه المصيبة كان أمراً صعباً للغاية لماري، فكان بمثابة كابوس قلب حياتها رأساً على عقب، ولكن بالرغم من ذلك، كان عليها أن تتخذ بعض القرارات المهمة كمكان دفن المرحومة مثلا. وبعد الكثير من التفكير، اختارت أن تدفنها في صور، لبنان بجانب والدها لأن ذلك كان أمنيتها. وحتى بعد أن أصبحت على علم بالثمن الباهظ لنقل جثة والدتها إلى لبنان، لم تتخلَّ ماري عن الفكرة. بل حصلت على قرض من منظمتها مستعملة مرتبتها كضمان كي تحقق أمنية والدتها الأخيرة.

أنفقت حوالى أربعين ألف دولار على علاج والدتها، ولولا بيعها بيتهما في لونغ أيلاند، لما تمكنت من القيام بذلك. وتحملت هذه المسؤولية لوحدها لأنها تقدّر استقلالها أكثر من أي شيء آخر. عرض عليها شوك مراراً وتكراراً أن يساعدها ولكنها رفضت ذلك وأعادت إليه حتى الثلاثة آلاف دولار التي دفعها مقابل التحليلات الأولية التي أثبتت وجود السرطان لدى أمها.

أما بالنسبة إلى أولغا، كانت لا تزال تتمتع بعلاقة قوية معها ولكنها لم تعد قوية كالسابق، وذلك لأنهما لا تعملان سوياً منذ تمّت ترقيتها قبل عدة سنوات بعد تخرجها من الجامعة، وبالإضافة إلى ذلك أصبحت مخطوبة لشرطي يحب تمضية معظم وقته خارج العمل معها لوحدها.

كانت حياة ماري تتميز بالكثير من الحزن والهدوء. ولكن تغيّر ذلك قبل بضعة أيام من سفرها إلى لبنان. حصل شجار كبير بينها وبين شوك لإصرارها على السفر إلى لبنان بمفردها.

«أنا لا أعرف لماذا لا تريديني أن أكون معك في لبنان، ستكونين في حاجة إليّ. هذا ليس عدلاً يا ماري لأنني أحبك».

«لا أعرف لماذا لا تريد أن تفهم بأن المجتمع هناك مختلف عن المجتمع هنا. لبنان دولة محافظة للغاية. لن يتفهم أحداً معنى وجودك هناك لأنك لست زوجي بعد». تنهد شوك ثم قال:

«لا أوافقك بما تقولينه لأنك من عائلة مسيحية وأعرف بأن المسيحيين لديهم مرونة أكثر من المسلمين في هذه الأمور».

«ليس لهذا الأمر أي صلة بالدين على الإطلاق، فإنه متعلق بالتقاليد والعادات الموجودة من زمان. هل تريد أن تعطيني محاضرة عن بلادي؟».

«لا، طبعاً». فكّر لبرهة ثم قال مبتسماً:

«ما دام الأمر كذلك، فلنتزوج قبل سفرك كي نتمكن من السفر سوياً. وهذا أفضل حل، خصوصاً لأن لدينا هذه النية مسبقاً. ستكون والدتك راضية في قبرها».

كان شوك خائفاً من ذهابها هناك لوحدها لأنه لطالما أحس بأن لديها سراً في لبنان متعلق بشخص قد يأخذها منه. كان يعرف في أعماقه بأنها لا تحبه ولكنه كان متأكداً بأنها سوف تحبه بعد الزواج.

«أنت غريب فعلاً. أفهم من كلامك بأنك تريد أن نسرع في زواجنا كي يمكنك ذلك من أن ترافقني إلى بلادي. هل تستمع إلى نفسك؟ كلامك سخيف جداً ويدل على عقل غير موزون».

جرحت شعوره جداً بتلك الكلمات وابتعد عنها بسرعة كي لا يقول شيئاً يجعله نادماً لاحقاً. كانا في شقتها القديمة في بروكلن حيث كانت تسكن مجدداً بعد أن باعت بيتها في لونغ أيلاند.

لم تذهب إليه لتعتذر لأنها كانت غاضبة أيضاً. فهي قد سئمت من أسلوبه ومن إدخال نفسه في كل أمر يتعلق بها. فقد قبلت أن تتزوج به ولكنه كان لا يزال يتصرف بأن عليه أن يقنعها به مما يجعله يبدو ضعيفاً أمامها. كان يفقدها الاهتمام فيه دون أن يعرف وكانت منزعجة أيضاً من ذكره الدائم لاسم والدتها كأنها كانت الصلة الوحيدة القادرة على أن تربطهما.

رجع شوك إليها بعد حوالى نصف ساعة كعادتهما عندما يختلفان. فهو الذي يستسلم ويعتذر حتى لو كانت مخطئة. ولدى رؤيته واستماعها لاعتذاره، صرفت عينيها عنه كما تفعل عندما تريد أن تكون بمفردها. وكلما حصل ذلك، اعتاد على أن ينسحب بهدوء ثم يعود إلى بيته بقلب محطّم.

ولكن بعد بضع أيام - أربعة أيام - قبل سفرها إلى لبنان، قدّمت له مفاجأة أسعدته جداً. ذهبت إلى شقته مبكراً قبل أن يذهب إلى العمل وطرقت الباب ولكنها اختفت قبل أن يفتحه، لم يرها ولكنه رأى بعض الورود مع رسالة على الأرض، وقد كتب في الرسالة:

"تعرفت عليك لسبب، وتعلقت بك لأنني رأيت فيك الأدب... ولن أجد رجلاً أحسن منك يا شوك".

قرأ شوك تلك الرسالة على الأقل لأربعين مرة في ذلك الصباح وبحث عن معنى جديد لها في كل مرة. لم يسبق أن تلقّى منها رسالة مماثلة وأمسك بها طوال ذلك اليوم كأنها كانت الهواء الذي يتنفسه.

كانا سوية في اليوم التالي وحتى يوم سفرها. كان عليهما أن يقوما بكافة الإجراءات المتعلّقة بنقل جثة والدتها إلى لبنان وهذا تطلب منهما عدة زيارات إلى القنصلية اللبنانية في نيويورك والخطوط الجوية المكلفة بنقلها إلى لبنان. وكان شوك مَن كان يتكلم في تلك الأماكن مما جعله من السهل أن يعتقد أي مراقب بأن سارة كانت والدته ولم تكن والدة ماري.

وفي يوم سفرها، وصلا إلى المطار مبكراً وتمشيا لمدة طويلة ثم تغديا سوياً في مطعم فرنسي. كان شوك قلقاً جداً عليها وكان لا يزال يرغب في مرافقتها ولكنه لم يعبّر عن ذلك، ظل صامتاً وبدا حزيناً. قرأت ماري أفكاره ولم تقل شيئاً حتى عندما كانت على وشك الذهاب باتجاه بوابة طائرتها. اقتربت إليه واحتضنته فجأة ثم نظرت إليه وقالت:

«إن كنت لا أحبك، فذلك قد يعني بأنه لا يوجد شعور يدعى بالحب... سأشتاق إليك لأنه لا يوجد إنسان أطيب منك».

بعد أن قالت ذلك، استدارت وتوجهت ناحية البوابة دون أن تنظر إلى الوراء بينما ظل يحملق فيها حتى اختفت عن نظره.

«لا توجد رياح كرياح التغيير في كل مكان تحمل معها الابتهاج والازدهار دائماً... فقد تبيّنت الحقيقة التي تفيد بأن الله يعوّض الصابرين من حيث لا يحتسبون».

كان إسحاق يتحدث إلى محمود، أخوه الكبير بشأنٍ جواز سفره الذي حصل عليه في ذلك اليوم من خلال ما يعتبره المعجزة الكبرى، بعد أن توقف قليلاً، استطرد قائلاً:

«حصلت معجزتان في آن واحد يا محمود، أولاً حصلت على جواز السفر في زمن لا يعمل فيه معظم الموظفين الحكوميين بسبب حالة البلاد، وثانياً الطريقة التي تم العثور فيها على جواز السفر. وهذا يؤكد لي بأن ربي راضٍ عما أنا على وشك القيام به».

وبعد ذلك تكلّم بأنفاس متقطّعة عن خطته للذهاب إلى الولايات المتحدة بينما كان محمود يراقبه في صمت وتركيز. كان عليه أن يلعب دوراً كلّفه به والدهما في ذلك المساء. فمهمته هي أن يقنع أخيه بالتخلي عن السفر ويقبل حقيقة أن ماري لن تكون من نصيبه أبداً.

كان والدهما صادقاً عندما أذن لإسحاق أن يزور أبا جهاد كي يساعده في الحصول على تأشيرة أميركية ولكنه أصبح أكثر تشاؤماً بمرور الوقت لأن زوجته تمكنت من إقناعه بأنه كان مخطئاً في موقفه وقدمت إليه الأسباب التي ستجعل من المستحيل لماري أن تقبل بحب ابنهما. وفي النهاية اتفق مع ما قالته تماماً ولكنه رغم ذلك، لم يستطع أن يخبر إسحاق ذلك، وحتى زوجته كانت عاجزة عن معارضته لأنها كانت حريصة على أن تحافظ على شكلها كوالدة مثالية أمامه.

لذا لم يكن لديهما خيارٍ آخر سوى اللجوء إلى محمود وتكليفه بنقل رأيهما إلى إسحاق بالنيابة عنهما. وكان محمود جاهزاً لهذه المأمورية.

«لن تتغير أبداً يا إسحاق، فأنت صاحب التفاؤل المتطرّف. معك حق عندما قلت بأن الله يعوّض الصابرين من حيث لا يحتسبون، لكن لا تنسى بأنه يمتحنهم أيضاً. هل تتذكر قصة النبي أيوب؟». عندما لم يرد إسحاق على سؤاله، استمر:

«هي تشبه قصتك مع ماري لأنك تعذبت كثيراً وسيستمر عذابك ما دمت تحلم ومتمسَّكا بها، ولذلك بالنسبة إليها، أنصحك أن تطبّق الحكمة التي تقول بأنه ينبغي على الرجل أن يتمنّى الأفضل ولكن عليه أن يتوقع الأسوأ أيضاً».

لم يكن إسحاق على استعداد لأن يسمح لشيء أن يقلل من معنوياته، خصوصاً الآن عندما أصبح يحسّ بأن حلمه منذ أكثر من عقد قد يتحقّق خلال بضع أشهر فقط.

«أعرف مشكلتك يا محمود. ليس بإمكانك أن تفهمني لأنك لا تعرف الحب. وهذا يجعلك ترى دائماً الفشل أمامك بدلاً من النجاح حتى لو كان النجاح هو الذي يوجد أمامك». تنهّد ثم استطرد:

«عندما تقابل واحدة مثل ماري، ستعرف بأنه عليك أن تبحث عنها حتى لو هاجرت إلى الفضاء».

قطّب أخوه وجهه ثم جلس قريباً منه وتنهّد قبل أن يقول:

«ومن قال بأنني لا أعرف الحب؟ هل تظن بأن على كل أحد أن يتباهى بالحب مثلك؟ أهم شيء بالحب هو أن تفهم أهمية الدور الذي يلعبه التوقيت في أي أمر يتعلق به. فالحب قادر على أن يتحول إلى ملاك عندما تدخله حياتك في التوقيت الصحيح ولكن عندما تختار التوقيت الغلط، سيتحول الحب نفسه إلى عفريت وشيطان رجيم. وهذا ما حدث في تجربتك مع ماري مما جعله من المستحيل أن ترجعا إلى بعضكما. ولكن لحسن حظك، هي ليست المرأة الوحيدة على وجه الأرض. ولا يزال الوقت

لصالحك كي تقابل واحدة أفضل منها. وقد أعرف المرأة المناسبة لك».

لم يستطيع إسحاق أن يصدّق بأن أخيه سيقول ذلك لأنه كان على علم أكثر من أي أحد آخر بمدى حبه لماري. وظل ينظر إليه في حيرة قبل أن يردّ عليه بنبرة منفعلة بعض الشيء:

«يظهر أنك تكره المرأة التي تريد أن تقدّمها لي».

لم يفهم محمود ما كان يقصده من ذلك الكلام ولكن قبل أن يستفسر منه، استمر إسحاق:

«أنت تكرهها بالتأكيد لأنك تريد أن تعرض عليها شيئاً تملكه امرأة أخرى. على فكرة يستحسن لو تكلمنا عن موضوع آخر، أنا لا أحتاج إلى سماع ما يفسد مزاجي في هذه الليلة».

«حسناً يا إسحاق، سأغيّر الموضوع كما تشاء ولكن يتعيّن عليك أن تجيب على هذين السؤالين أولاً. هل تظن في قرارة نفسك بأنك ستصل إلى الولايات المتحدة لترى ماري في المطار وهي تنتظرك كأنها تعرف بأنك ستأتي أو كأنها لا تكرهك بسبب وفاة والدها؟ وكيف تظن بأنك ستحصل على عنوانها من أعضاء عائلتها في صور وهم ربما يخططون الآن لكيفية دفنك حياً؟».

كان صوت محمود عالياً جداً بينما كان والديهما يستمعان إلى حوارهما من خارج الغرفة على أمل أن يقتنع بكلامه إسحاق الذي غضب جداً وتجاهل سؤاليه ثم توجّه ناحية الباب في غرفة محمود كي يخرج، ولكنه أوقفه ودفعه بعيداً عن الباب ثم قال:

«أنا أخوك الأكبر ويجب أن أخبرك الحق حتى لو لم أستطع أن أجبرك على تنفيذه. ما تريد أن تفعله ليس معقولاً ولو نفّذت فكرتك هذه، ستصبح الأحمق الأكبر في لبنان». لدى قوله ذلك، فَقَدَ إسحاق أعصابه تماماً.

«أنت لم تحقق أي إنجاز طوال حياتك ولست مؤهلاً لتقديم النصائح».

غضب أخوه أيضاً وأخذ منه جواز السفر الذي كان يمسكه ثم قال:

«لم أنجز شيئاً في حياتي؟ عندما أمزق جواز سفرك، ستعرف الطريقة التي ينبغي أن تتحدث بها مع أخيك الكبير».

لم يتفوه إسحاق بشيء بعد ذلك لأنه لم يرد أن يسخِّن الأمور أكثر كي لا ينفّذ أخوه تهديده واتجه ناحية الباب كي ينادي والديه وتعجّب عندما رآهما واقفين خارج الباب.

«أنتما هنا تستمعان إلى ما كان يقوله دون أن تتدخلا في هذا الأمر؟ هل يعني ذلك بأنكما توافقانه فيما يقوله؟».

لم يتلقَّ إجابة من أحدهما. وبعد حوالى خمس دقائق، توجه والده إلى محمود وأخذ منه جواز السفر ثم قدّمه إلى إسحاق قبل أن يقول:

«صار عمرك ستة وثلاثين الآن، لديك الحق أن تفعل بحياتك ما تشاء. ولكن عليك أن تتذكر بأن أخاك على صواب تماماً في كل ما قاله لك».

ساد صمت مخيف لبعض الوقت قبل أن يردّ إسحاق:

«أنا أعرف بأن كل ما تقولونه نابع عن حب وحسن نية. فكلكم قلقون عليّ وأنا قلق أيضاً، ولكن هل تعرفون ما الذي يقلقني أكثر؟ الندم. أنا لا أريد أن أندم في المستقبل وهذا ما سيحدث لو لم أحاول أن أكسب قلبها مجدداً. وعلى رأي المثل، من يحاول ويفشل أفضل ممن لم يحاول على الإطلاق». مشى بعيداً عنهم في هدوء ثم استدار ليقول:

«أعتذر للكل على الإزعاج وأتمنى أن لا تنسوني وأنتم تدعون».

كانت الرحلة إلى لبنان طويلة وشاقة للغاية لأن ماري سافرت من خلال الخطوط الجوية الأوروبية والتي لديها تلك السياسة التي تلزم ركابها على الوقوف في أوروبا لعدة ساعات قبل متابعة رحلتهم إلى وجهاتهم المختلفة. وشيء آخر لم يعجبها في ذلك السفر كان اضطرارها إلى الحصول على تأشيرة لبنانية في جواز سفرها الأميركي مما جعلها تحس وكأنها كانت أجنبية.

قبل مغادرتها الولايات المتحدة، اتصلت بنبيهة، ابنة خالتها التي كانت مسؤولة عن بيت والدتها وجدتها طوال كل هذه السنوات وأعطتها كل تفاصيل الرحلة كي تستقبلها في المطار. كانت ماري تتطلع إلى رؤيتها لأنها كانت الإنسانة الوحيدة في لبنان التي كانت على اتصال دائم معها في الولايات المتحدة.

خلال السفر كانت تقتحمها ذكريات عن رحلتها إلى الولايات المتحدة برفقة والدتها وجدتها. اجتاحت أحداث تلك التجربة ذهنها بطريقة لم تتوقعها. تذكرت المقابلة التي جرت بينهن والسيد وتسون والخلاف الذي دار بين جدتها والحراس في السفارة الأميركية في القاهرة. وحتى القسيس الذي قابلهن في مصر وابنه بطرس لم يغيبان عن عقلها. أين هؤلاء الناس الآن؟ كانت تسأل نفسها ذلك السؤال مراراً وتكراراً. ولو كان أحد أخبرها عندئذ بأنها ستعود إلى لبنان بدون والدتها وجدّتها بعد خمسة عشر عام، لما صدّقته على الإطلاق.

وفي تلك الرحلة، سيطر إسحاق أيضاً على أفكارها. كانت قلقة عليه وأرادت أن تعرف إذا كان لا يزال على قيد الحياة أو لا. وهل هو متزوج ولديه أطفال؟ أولاً قاومت ظهور هذه الأفكار في ذهنها ولكنها استسلمت عندما اتضح لها أنها فقط تخدع نفسها إن فكرت أنها تستطيع أن لا تفكر فيه. والمؤلم في الأمر هو عدم معرفتها بعنوانه حتى أو عدم وجود صديق مشترك بينهما قادر على تقديم أية معلومات عنه.

اعترفت لنفسها رسمياً في تلك الرحلة بأنها لا تزال تحب إسحاق جداً بعد كل هذه السنوات. ولكنها قررت بالرغم من ذلك أن تتجاهل تلك الواقعة وأن لا تبحث عنه احتراماً لوالدها من جهة، ومن أجل الوفاء بوعدها لأمها بأن تتزوج شوك من جهة أخرى. عرفت بأنه سيكون من الصعب أن تنفّذ هذا القرار ولكنها كانت مصممة على فعل المستحيل لتحقيق ذلك.

حوالى الساعة التاسعة من صباح اليوم التالي، هبطت طائرتها في مطار لبنان. كان التاريخ 28 من نوفمبر 1989. حتى في المطار أحست بأنها كانت في دولة أخرى. فالحرب الأهلية جعلت كل من كانت تراهم كأناس عاشوا لسنوات مع العفاريت. وحتى بالرغم من انتهاء الحرب بشكل رسمي عندئذ، كانت هناك نظرات خوف شديد على وجوههم كأنهم كانوا يتوقعون اندلاع الحرب من جديد.

وبالنسبة إلى المطار نفسه، كان في حالة سيئة للغاية مما جعل من المستحيل لأي زائر أن يصدّق بأن ذلك المطار كان المطار الرئيسي لبيروت، المدينة التي كانت مشهورة بلقب باريس الشرق الأوسط. ولدى وصولها إلى لبنان، لم تحتج جثة والدتها التي جاءت على متن الطائرة نفسها إلى أن تستلمها بنفسها من هناك لأنه بموجب الترتيبات التي أجرتها مع الخطوط الجوية والسفارة اللبنانية في الولايات المتحدة، سيتم نقل الجثة إلى صور مباشرة من المطار في اليوم نفسه من دون أي تدخّل منها في بيروت.

ولم تنتظر ماري لأكثر من خمس دقائق قبل أن تشاهد حقائبها وتحملها معها. وبعد ذلك مرت على الفور عبر البوابة المؤدية لقاعة الحضور ورأت نبيهة حال خروجها. لم تعرف نبيهة في البداية لأنها بدت كأنها كبرت ثلاثين عام إضافية عن المرة الأخيرة التي تقابلتا فيها. ولكنها أخفت ملاحظتها عنها كي لا تجرح شعورها ثم رمت نفسها في حضنها وقالت:

«يا لسعادتي برؤيتك نبيهة! لا أصدق بأننا نلتقي ثانية بعد كل هذه السنوات».

نظرت إلى ماري التي كانت أجمل منها ألف مرة، أحست نبيهة بشعور غريب عندما تأملتها. فهي لا تتذكر المرة الأخيرة التي رأت فيها امرأة جميلة مثلها.

«هناك تطور ملحوظ بدرجة ارتفاع مستوى جمالك لدرجة لو قارنت نفسي بك، قد أشبه جملاً أو خروفاً».

احمرّ وجه ماري التي لم تظن بأنها ما زالت جميلة بعد أن فقدت بعض الوزن مؤخراً أثناء مرض والدتها ثم قالت:

«أشكرك جداً، كلامك يجعلني أحس كأني نجمة. على فكرة أنت جميلة أيضاً، خصوصاً شعرك». ابتسمت ابنة خالتها ثم طرحت عليها سؤالاً:

«كيف كان سفرك؟».

«كان طويلاً مما جعلني مرهقة للغاية، فلنخرج من هنا، هيا بنا. فأنا متعبة».

أومأت نبيهة برأسها وغادرتا المطار متجهتين إلى صور في رحلة استغرقت أربع ساعات بدلاً من ساعتين لأنهما انتظرتا في محطة البنزين لحوالى ساعتين من أجل التزود بالبنزين والذي أصبح شحيحاً مؤخراً. ساد صمت بينما كانت ماري تنظر خارج النافذة ثم بدأت نبيهة الحوار:

«ما رأيك بلبنان؟».

ذهلت ماري بأنها طرحت ذلك السؤال بسرعة ودون أن تعطيها المزيد من الوقت لرؤية البلاد، وردت قائلة:

«انتظري قليلاً يا هانم، فأنا رجعت للتو ولم أرَ شيئاً بعد». ضحكت نبيهة وقالت:

«أنا مستغربة من أنك لا تزالين تتكلمين باللغة العربية بهذه الطلاقة. أخبرتني والدتك المرحومة بأن لديك عريساً، هل تعلّمينه اللغة العربية؟ وما اسمه؟ نسيت».

قطّبت ماري وجهها لدى سماعها سيرة شوك ولم ترد بسرعة. حدّقت نبيهة بها ولاحظت بأن الابتهاج قد اختفى عن وجهها تماماً.

«هو يدعى شوك آمنوي وليس هناك داعٍ كي أعلّمه اللغة العربية لأنه يتعلمها بنفسه من خلال بعض الفصول في إحدى الجامعات».

لم يعجب نبيهة التحوّل الذي لاحظته على وجهها ولذلك لم تقل شيئاً، عندئذ قررت أن تعالج الموضوع في أحد الأيام التي ستقضيها مع بعضهما، فهما ستكونان في البيت نفسه لعشرة أيام لأن ماري قبلت عرضها بأن تقيم عندها مع زوجها وطفليها.

«أنت محظوظة لأن هناك رجلاً أميركياً يهتم بك لهذه الدرجة، وحسب ما أعرفه عن معظم الأميركيين، أنهم لا يحبون العرب».

«معك حق، الكثير منهم لديهم انطباعات وأفكار سيئة عنا مما يذكّرني بالمثل الذي يقول بأن التفاحة الفاسدة قد تفسد بقية التفاحات في الصندوق. العرب الذين يفسدون سمعتنا قليلون للغاية، ولكنهم بالرغم من ذلك تمكّنوا من أن يحدثوا أضراراً كبيرة على سمعتنا بشكل عام».

تعجبت نبيهة من الحكمة التي كانت تتسم بها ماري أثناء حديثها فربتت على كتفها. كانت نبيهة فرحة كثيراً بمجيء ماري وكانت مصرّة أيضاً على معرفة السبب وراء انفعالها عندما سألتها عن

شوك خلال رحلتها القصيرة. هل يضربها أو يشتمها؟ هي أكبر منها بسبع سنوات وتعتبر نفسها بمثابة أختها الكبيرة مما جعل من الضروري بالنسبة لها أن تحاول إيجاد حلول لكافة مشاكلها.

إسحاق ـ السفر إلى سوريا

كان السفر إلى سوريا على عكس سفره في السابق إلى تلك البلاد. فلم يكن إسحاق مضطراً إلى التسلل خارج البيت كما فعل من قبل، فهو انتظر حتى استفاقت عائلته وحياهم جميعاً ثم طلب من والدته أن تدعو له. ولأول مرة منذ خلافهما، تحدّث إلى محمود وحضنه قبل أن يرحل مما أسعد والديه.

قرّر أن يغادر من محطة مختلفة عن التي سافر منها لدى رحلته السابقة لأنه كان يحس بأن تلك المحطة السابقة قد تجلب له سوء الحظ. كانت المحطة الأخرى بعيدة عن بيته ولم يصل هناك إلا بعد ساعة. وبالرغم من هذا التأخير، أجبر على قضاء ساعتين إضافيتين بعد أن اشترى تذكرته لأن عطلاً حصل في محرك الحافلة التي سيستقلها.

بسبب حماسه المتزايد، كان السفر مملّاً للغاية في نظره ولولا وجود رجل طيب بجانبه لما كان قادراً على تحمّله. كان ذلك الرجل يعرف أشياء كثيرة عن سوريا لأنه ترعرع هناك، وعندما لم يكن يتحدث إليه،كان يركّز تفكيره على أهل ماري في صور. كيف سيتمكن من الحصول على بياناتها منهم؟ كيف سيكسب ثقتهم أصلاً؟ أخذ يندم على رفضه اقتراح والده السابق في مرافقته هناك لأنه لو ذهب مع والده، سيزيد وجود رجل عجوز مثله من مصداقيته أمام أهلها وقد يكون بإمكانهما أن يدّعيا بأنه كان صديقاً حميماً لأنطوان.

وعندما طفق من التفكير حول هذا الموضوع، أرغم نفسه على النوم وظل نائماً حتى وصل دمشق.

كانت تجربته عند الحدود إيجابية وسريعة، فهو لم يمض أكثر من عشر دقائق هناك وكان من السهل أيضاً أن يجد فندقاً رخيصاً وجيداً لأن الرجل الذي كان يتحدث إليه في الحافلة أخبره أن يرافقه إلى الفندق الذي سيقيم فيه.

وصل هناك حوالى الساعة الثالثة صباحاً وجمع كل صلواته ثم نام على الفور. استيقظ بعد ثلاث ساعات فقط، ولم يكن مرهقاً على الإطلاق كأن نومه دام لسبع أو ثماني ساعات. نهض وصلّى صلاة الفجر ثم أخذ حماماً ساخناً، كان يغني في الحمام من شدة الفرح ولأول مرة. ارتدى ملابسه الجديدة التي اشتراها لتلك الرحلة. وتوجّه إلى مطعم رخيص بجانب الفندق وتناول فطوره قبل أن يستقل سيارة أجرة إلى السفارة الأميركية.

كان هناك عند الساعة الثامنة صباحاً وقابل حارساً طيّبا أمام المدخل، كان رجلاً عجوزاً واستمع له حتى أنهى كلامه. أبلغه إسحاق عن صديق السفير في لبنان وأخرج البطاقة التي جاء بها. فكّر الحارس بما قاله لبرهة ثم أخبره بلطف بأنه غير قادر على أن يدخله السفارة لأن اسمه ليس مدرجاً في قائمة الضيوف لرؤية السفير في ذلك اليوم، ولكنه قدّم إليه بعض المعلومات المهمة. أشار إلى مكان يتمشى فيه السفير لعشرين دقيقة يومياً عند الساعة الثامنة والنصف قبل أن يبدأ بعمله، ونصحه أن ينتظره قريباً من ذلك المكان.

«إنه رجل طيب وبسيط، تحدّث إليه بصراحة. قل له بأنه تم إرسالك إليه من قبل صديق له في بيروت، وسيعجبه ذلك، أنا واثق من أنه سيدعوك لدخول السفارة معه».

حدّق إسحاق إليه للحظة فيما ارتسمت علامات حيرة على وجهه قبل أن يسأله:

«وكيف أستطيع أن أعرفه إذا كان سيتواجد وسط مكان عام ومليء بالناس؟ هل تستطيع أن

تصفه لي؟». ضحك الرجل قبل أن يجيبه:

«إنه رجل أبيض وطويل يا ابني، وإذا كنت لا تستطيع أن تميزه من النظره الأولى فقد تكون في حاجة إلى نظارة».

ابتسم إسحاق بخجل لأنه عرف الآن بأنه لم يكن هناك داعٍ كي يطرح ذلك السؤال. ولكن قبل أن يقول أحدهما كلمة أخرى، أشار الحارس إليه بعينيه أن يلتفّت إلى الوراء. استدار إسحاق ورأى عندئذ رجلاً أبيض وطويل مع أنف كبير يخرج من سيارة Peugeot 505، عرف على الفور بأنه مَن كان يبحث عنه.

أخذ يمشي نحوه ببطء فيما تصبّب عرقاً من الحماس ولكن قبل أن يصل إلى مكانه، أمسكه رجل هندي ضخم من يده وأخذ يضغط عليه من الوراء ثم قال بلكنة أميركية:

«إلى أين أنت ذاهب يا وغد؟».

حاول إسحاق أن يرد ولكنه كان عاجزاً لأن يده كانت تؤلمه. وعندما لاحظ السفير ذلك، قال بنبرة حادة:

«فتّشه جيداً وإذا لم تجد معه أي سلاح، اتركه».

نفّذ الرجل الأمر ثم ترك إسحاق عندما اتضح له بأنه كان خالياً من كل ذلك ومسالماً. بدا إسحاق كرجل عاد للتو من الموت. لم يقل شيئاً مما جعل السفير يستطرد قائلاً:

«أنا لا أعرف مَن أنت ولكني متأكد بأنك مجنون». وقف ثم أشار إلى الرجل الهندي قائلاً:

«هذا الرجل محترف في القتل. تمّ تدريبه في الجيش الأميركي ليدافع عن كبار المسؤولين الحكوميين. ما فعلته للتو عندما كنت تقترب إليّ كان بمثابة محاولة لانتحار». ساد صمت قاتل قبل أن يضيف السفير:

«ماذا تريد مني بالضبط؟».

كان قلب إسحاق يخفق بسرعة. لم يعرف كيفية الرد في البداية. ومرت بضع ثوانٍ قبل أن يحاول البحث عن بطاقة السيد غسان والتي وقعت على الأرض، رفعها ثم قال بإنكليزية ممتازة:

«هل بإمكاني أن أقدم هذه البطاقة لمعاليك؟».

ساد صمت طويل ثم انفجر السفير ضاحكاً فجأة كما يفعل الممثلون في أفلام الرعب. حتى الرجل الهندي قلّده أيضاً وكان يضحك بينما ظل إسحاق يراقبهما بلا حركة مثلما يفعل الجنود عندما يقفون بجانب رئيس البلاد في المناسبات العامة. أخيراً قال السفير:

«لك الإذن أن تقدّم لي ما لديك».

اقترب إسحاق إليه وأعطاه البطاقة. ألقى السفير نظرة متفحّصة عليها وهو يحلّلها ويفكّر بمحتوياتها ثم رفع رأسه فجأة وصرخ مبتسماً:

«ما زال صديقي على قيد الحياة. حسناً! فلقد أمضيت سنوات وأنا أحاول أن أتّصل به، ولكن ذلك كان مستحيلاً لأن الخطوط التلفونية في لبنان ظلت مقطوعة خلال الحرب، ولكني محتار بأمر ما، كيف عرف بأنه تم إرسالي إلى هنا كسفير؟».

تأمّل إسحاق آملاً أن يجيب على سؤاله ولكن عندما لم يقل شيئاً، عرف مضيفه عندئذ بأن الجواب ليس عنده.

«تعال معي يا شاب، فلنمشِ سوية كي أسرد لك قصصاً عني وعن الرجل الذي أرسلك إليّ».

تمشيا لعشرين دقيقة بالضبط كما قال الحارس وسمع إسحاق حكايات عديدة عن علاقات غرامية كانت لدى مضيفه وغسان ببلاوي شعوري مع نساء من جنسيات مختلفة عندما كانا يعملان سوية في الأمم المتحدة. ظل يحكي حتى توقف فجأة كأن شيئاً خطر على باله:

«هل زوجته خالتك أو عمتك أو أختك الكبيرة؟». استغرب إسحاق من السؤال وقال:

«لا يا معالي السفير، حتى لو رأيت زوجته وأطفاله، لن أعرفهم».

ولكنه يظهر بأن مضيفه لم يرتح له بعد ذلك وأخذ يحكي عن أمور عامة حتى وصلا إلى مكان الرجل الهندي مجدداً ثم قال لضيفه:

«لا أستطيع أن أرفض طلباً من الرجل الذي أرسلك إليّ». توقّف ثم التفت إلى الرجل الهندي وقال:

«غبتا، خذه إلى ساندرا فوراً كي تجهّز له تأشيرة لمدة سنتين مجاناً. وهذا أمر يجب تنفيذه فوراً. وبعد ذلك اكتب له كل أرقامي كي يسلّمها للرجل الذي أرسله هنا». صافح السفير يد إسحاق وأنهى كلامه قائلاً:

«تشرفت بمعرفتك يا شاب، لن أسألك عن السبب وراء زيارتك إلى الولايات المتحدة ولكن بالنظر إليك، أنت إنسان طيب مما يجعلني متأكداً بأنك لن تخيّب ظني. انتبه لنفسك ووداعاً!».

وصلت ماري ونبيهة إلى صور عند الساعة الثانية بعد الظهر. وتوجهتا مباشرة إلى منزل نبيهة حيث ارتاحت ماري في حجرة الضيوف التي تم تجهيزها من أجلها. أخذت حماماً سريعاً ثم تغدت بسرعة. وخلال ذلك، عاد زوج نبيهة وابنتيها وتعرّفت عليهم جميعاً. قدمتهم نبيهة كلهم إليها بصوت يلفّه الحماس قائلة:

«هذه عائلتي مكونة من زوجي فؤاد وابنتاي سماح وزهرة».

كانت حيوية للغاية مما جعله من السهل معرفة أن زواجها الذي حصل قبل خمس سنوات فقط كان زواجاً ناجحاً. ركضت ابنتاها لتحتضنا خالتهما التي أخبرتهما والدتهما سابقاً عن حضورها. ثم صافح فؤاد يدها وقال:

«أتمنى من الرب أن يقوّيك أثناء هذه المدة الصعبة».

كان صوته يرتجف مما أعطى ماري انطباعاً بأنه رجل خجول ولكنها بمرور الوقت ستدرك بأن أسلوبه في الكلام ليس نابعاً عن الخجل، ولكنها الطريقة التي يحكي به معظم الرجال في صور احتراماً للنساء.

«أشكرك جداً لكلماتك الطيبة، فهي تخفف الآلام وتشفي الجروح. أشكرك من كل قلبي».

تنبّهت نبيهة فجأة إلى أنهما لم يكن لديهما الوقت، فكان عليها أن ترافق ماري للتعرف على أقاربها قبل دفن والدتها والتي كانت ستبدأ بعد أربع ساعات عند الساعة السادسة والنصف.

أنهت كلامها بابتسامة لأنها كانت تخاف من أن تغضب ماري بسبب اضطرارها إلى الذهاب قبل أن تأخذ قسطاً من الراحة بعد رحلتها الطويلة ولكن ذلك لم يحدث، بل ذهلت عندما رأت بأن ماري بدت متحمسة للفكرة.

وبعد ذلك، كانت بقية الأحداث في ذلك اليوم بمثابة تطورات في فيلم سريع. قضتا مدة تتراوح بين خمس إلى عشرة دقائق في منزل كل بيت زارتاه، وكان الكل سعداء جداً برؤيتها رغم حزنهم على فقدان والدتها فكانت رؤيتها كالبلسم على الجرح.

وشيء مميز لاحظه الجميع على ماري منذ يومها الأول في لبنان كان امتلاكها لقوة غامضة عند أي رجل. ربما كانت شخصيتها المحافظة أو صوتها الرقيق أو جمالها الساحر العامل السبب وراء ذلك، وحتى لو لم تعرف مصدر هذا النفوذ العجيب والنادر، كانت متأكدة تماماً بوجوده لأن أثره كان واضحاً على الرجال الذين قابلتهم ومن خلال نظراتهم إليها واهتمامهم بها. ولكن بالرغم من ذلك، لم تتغير حقيقة مهمة لديها وهي أن قلبها يعدّ ملكها ولن تعطيه لأي رجل أبداً، حتى لإسحاق، الرجل الوحيد الذي أحبته في عمرها والتي لا تزال تحبه.

حصلت على استقبال كبير عندما وصلت إلى بيت عائلة والدها مما ذكّرها باليوم الذي دفن به أبوها. كان المنزل ممتلئاً بالكثير من الناس الذين لم تعرفهم من خلال وجوههم بالرغم من كونها واثقة من أنها تعرفهم من قبل. استنتجت بأنهم تغيّروا فقط مثلما تغيّرت معظم الأشياء في لبنان خلال الحرب.

لم تبدأ مراسم الدفن عند الساعة الرابعة كما تم تخطيطه لأن الجثمان لم يصل بعد. ولم تكن هناك خطوط تلفونية لمعرفة سبب التأخير. أخذت ماري تلوم نفسها على عدم انتظارها في المطار ولأنها صدّقت كلمات مدير الخطوط الجوية عندما أخبرها في مكتبه في نيويورك وقال: «اطمئني يا آنسة إلياس، فنحن نقوم بمهمات مماثلة دائماً في كل أنحاء العالم. ولا تذهلي عندما تكتشفي بأن جثتها

وصلت إلى صور قبلك».

وفي أثناء ذلك، قرّر القسيس الشاب أن يلقي خطابه في غياب الجثمان. تكلّم عن الحياة بعد الموت. وصف الجنة بالتفصيل خلال حديثه الطويل وكأنه زارها من قبل وعاش فيها، وكان يقول في كل خمس دقائق بأنه متأكد بأن سارة وأنطوان إلياس يعدّان من ضمن سكانها، وهذه النقطة بالذات أسعدت ماري جداً. بعد أن تكلّم لمدة طويلة، ركّز عينيه عليها ثم تابع كلامه قائلاً:

«أيها السيدات والسادة، إن وجود الجنة شيء غير قابل للإنكار. لا تسمحوا لأحد أن يخدعكم أو يفقدكم الثقة بوجودها، خصوصاً في هذا اليوم لأنني أرى بأن للجنة مدخلاً جديداً من هذا البيت. من خلال الروح القدس، انظر حالياً إلى سارة إلياس فهي تمر من خلال هذا المدخل لتنضم إلى زوجها أنطوان في العلى».

استمر بكلامه العذب في أجمل خطاب سمعته ماري طوال حياتها. حتى قسيسها في الولايات المتحدة رغم كبره في السن وتجربته الواسعة، لم يتمتع بنصف قدرة وموهبة هذا الشاب في التعبير عن شعوره وتحريك القلوب.

عاد القسيس إلى كرسيه، تم إبلاغ ماري بوصول الجثمان. خرجت مسرعة وقادت ثلاث رجال يحملون الجثمان إلى المكان الذي سيتم دفن والدتها فيه بجوار والدها المرحوم. كانت الساعة السادسة مساءً تم التأكّد من هوية المرحومة من قبل نبيهة.

لم تنظر ماري إلى أمها ولما أكدت نبيهة هوية الفقيدة، انفجرت في بكاء طويل.

وبدأت مراسيم الجنازة واستمرت لحوالى ساعتين وسط الحزن والدموع.

قد تبدو السفارة الأميركية في سوريا كقلعة ضخمة من الخارج ولكن من الداخل، كانت بمثابة شقة جميلة بشكل متواضع. ولدى دخوله ونظره إلى الأثاث، شعر إسحاق بأنه طفل قد دخل الحديقة فيما اقتحمه أيضا إحساس بالراحة والاطمئنان.

الأوامر التي أصدرها السفير للسيد غبتا سنغال لم تشمل استجواب إسحاق، ولكن شخصية ذلك الرجل الفضولي دفعته أن يطرح على إسحاق سؤالاً أزعجه للغاية وأحدث خلافاً بينهما.

«يا لك من رجل محظوظ! ستسافر إلى الولايات المتحدة بتأشيرة حصلت عليها بسهولة كمن نال شيئاً مهمًّا أثناء نومه، وماذا ستفعل عند وصولك هناك؟ أنا متأكد بأنك ستأخذ عائلتك بأكملها إلى الولايات المتحدة، واحداً تلو الآخر من أجل الهرب من الفقر المدقع الذي تتسم به الظروف في بلادك».

ليس تعليقه فقط ما أغضب إسحاق، بل السخرية في نبرته كانت بمثابة ضربة على رأسه. لم يرد أن يرد ولكن نظراً إلى ابتسامته الماكرة، لم يستطع أن يسيطر على أعصابه.

«هل ذلك ما تفعله حالياً يا سيدي؟ نظراً إلى لكنتك، فإنها تشبه لكنتي مما يعني أن بلادك الأصلية ليست بعيدة عن بلادي. وبالإضافة إلى ذلك، ليس لديك لكنة أميركية مما يدل على أنك زائر مثلي أو ربما مهاجر يهرب أيضاً من الفقر والحرمان».

عندما ادّعى إسحاق بأن لكنته لم تكن أميركية، لم يكن كلامه صحيحاً لأن غبتا يمتلك لكنة أميركية مائة في المائة. فأراد إسحاق فقط أن يذيقه الذل نفسه الذي أذاقه من سؤاله المهين. وتأثر غبتا بشكل واضح لأن نظرة السخرية اختفت عن وجهه وأخذ مكانها مظهر السخط والحقد. لولا خوفه من غضب السفير، لطرد إسحاق من السفارة في تلك اللحظة. بعد أن مرت عدة ثوانٍ، اكتفى بالقول:

«أنا مسؤول عن حماية هذا السفير كما كنت مسؤولاً عن حماية الكثير من السفراء قبله. فمثل هذه المناصب لا يتم تعيين الزائرين أو حتى المهاجرين لأن هذه المناصب تتعلق بأمن الدولة في أعلى مستوياتها، ولذلك يجب أن يكون أصحابها مواطنين أميركيين حقيقيين ولدوا هناك».

رفع رأسه كأنه كان يشترك في مناظرة تلفزيونية ثم استطرد:

«إذا كنت تظن بأن لكنتي ليست أميركية، قد تكون لديك بعض المشاكل في سمعك».

وعندما قال ذلك، وصلا إلى مكتب السيدة أشتون وتوجّه غبتا إليها مباشرة ثم قال:

«صباح الخير يا سيدتي. لقد أبلغني السفير أن أرافق هذا الشاب إليك لشيء لا أزال أجهل طبيعته». قاطعه إسحاق قائلاً:

«صباح الخير سيدتي». ونظر إلى غبتا بسرعة وقال:

«لماذا تقول ذلك؟ أنت تعلم جيداً ما الذي أخبرك به السفير». تدخلت السيدة أشتون غاضبة:

«لا تتحدث إليه هكذا أمامي». ثم حدّقت إلى غبتا وقالت:

«لا أعرف لماذا يتصرف السفير هكذا، لو لم يرغب في مساعدة هذا الرجل، فليخبره مباشرة بدلاً من أن يضيّع وقته هكذا. سأستفسر عن الأمر منه ولكن في أثناء ذلك، رافق الرجل إلى بوابة السفارة وسندخله لاحقاً إذا وجدت حاجة لذلك». أومأ غبتا برأسه علامة بالإيجاب وقال:

«حاضر يا سيدتي. أعتذر على الإزعاج».

وهكذا قاد إسحاق خارج مكتبها سعيداً. نجحت خطته وارتسمت ابتسامة واسعة على وجهه. وفجأة أصبح مشيه يشبه الرقص. كان الهدف مما فعله هو أن يمنع إسحاق من الحصول على التأشيرة من خلال السيدة أشتون لأنها المسؤولة عن ختم السفارة ولديها بعض الصلاحيات لمعارضة السفير إذا كانت تعتقد بأنه كان على وشك منح تأشيرة لمن قد يشكّل خطراً عندما يذهب إلى الولايات المتحدة.

ساد الصمت في طريقهما إلى الخارج فيما تجنّبا النظر إلى بعضهما. اجتاح إسحاق ندم شديد على تعليقه على الرجل الشرير. عندما وصلا إلى البوابة، خيّمت خيبة الأمل على وجه الحارس الذي توقع أن يرى إسحاق مبتهجاً لدى خروجه بدلاً من أن يراه تعيساً كما كان الآن. استدار غبتا فوراً ورجع إلى الداخل دون أن يقول شيئاً.

شرح إسحاق كل ما حصل للحارس الذي كان يستمع إليه فيما فتح فمه من الغضب قبل أن يقول:

«لن يتغيّر ذلك الرجل أبداً على ما يبدو. فكل الحكايات التي أسمعها عنه ليست جيدة على الإطلاق. فماذا سيستفيد عندما يعرقل الآخرين عن التقدّم؟». أخذ نفساً طويلاً ثم تابع كلامه:

«لا تقلق يا ابني، فهو ليس أقوى من فرعون وكلنا نعرف كيف كان مصيره. إذا توكلت على الله، سترى معجزة، والمهم إذاً هو أن تتوكل على الله».

وبعد ذلك، غيّر الموضوع ثم خاضا في أمور أخرى لأكثر من ثلاث ساعات. فلم يكن للعجوز شيئاً يفعله لأن السفارة لا تفتح أبوابها للزائرين قبل الساعة الواحدة بعد الظهر وكانت الساعة الحادية عشر فقط.

وفجأة شاهدا غبتا يركض سريعاً نحوهما. كان يتنفس بسرعة عندما بلغ مكانهما ثم ألقى نظرة متوسلة إلى إسحاق وقال:

«لماذا لم تخبرني بأن الرجل الذي أرسلك ليس مجرد صديق له، بل من أهم أصدقائه؟ من فضلك أنقذني وأخبره بأنه لم يحصل سوى مجرد سوء تفاهم بسيط بيننا».

حدّق إسحاق إليه في صمت ولم يقل شيئاً مما جعله يستمر:

«تعال معي، فلندخل فوراً معاً».

نهض إسحاق، سلّم على الحارس واستغرب عندما أمسك غبتا بيده وكأنهما زميلين قديمين. هكذا أخذا يتمشيان في صمت حتى كسر غبتا الصمت:

«نسيت أن أطلب منك جواز سفرك، أين هو يا سيدي؟».

أخرجه إسحاق من جيبه وسلّمه إليه. فتحه غبتا على الفور ثم قال:

«صورتك فيها جميلة واستثنائية».

ثم وصف الصورة بكلمة إنكليزية أخرى لم يفهمها إسحاق ولكنه لم يهتم لتعليقه، فقد كان يريد أن يخبره أن يسكت ولكنه لم يفعل ذلك خوفاً من أن يدبّر له مكراً جديداً. تابع توسّله لإسحاق:

«هل ستساعدني وتتحدث إليه كي تهدأ أعصابه؟».

«نعم، سوف أفعل ذلك».

فرح غبتا عندئذ وظل صامتاً حتى وصلا إلى مكتب ساندرا أشتون من جديد. فرحت لدى رؤية

إسحاق وأصدرت أمراً لسكرتيرتها أن تجهّز له التأشيرة بسرعة. كان هناك الكثير من الإجراءات المكثفة وبعد مرور ساعة قادته السكرتيرة إلى غرفة الانتظار حيث انتظر لحوالى ساعتين.

غلبه الإرهاق هناك ونام على الفور على كرسيه حتى أيقظته السيدة أشتون بنفسها عندما جاءت إليه لتقدّم جواز سفره قائلة:

«مبروك يا ضيفنا العزيز».

أخذ منها جواز السفر فيما قاوم الشعور بأنه كان في حلم، أراد أن يقول شيئاً ولكنها سبقته:

«أخبرني السفير قبل خروجه الآن أن أعطيك هذه الأرقام وقال أيضاً بأنه يتوقع أن يتلقى مكالمة من صديقه لدى عودتك إلى لبنان». هزّ إسحاق رأسه ثم قال:

«أشكرك جداً. كنت أريد أن أشكره أيضاً لولا خروجه. من فضلك أبلغيه شكري وتحياتي. وبالنسبة إلى هذه الأوراق، يستطيع أن يطمئن لأنها ستصل إلى صديقه في أسرع وقت ممكن». صافح يدها ثم قال عندما تذكّر غبتا:

«وبالإضافة إلى ذلك، أردت أن أتحدث إليه بخصوص السيد غبتا، هو إنسان لطيف ولم تحصل لي أي مشكلة معه». ابتسمت السيدة ثم قالت:

«سأخبره كل ما قلته ولن أنسى أي تفصيل. ألا تريد أن تلقي نظرة على جواز سفرك لتتأكد من وجود التأشيرة؟». ضحك ضحكة خفيفة ثم قال:

«أنا أحب الولايات المتحدة وعندما أحب، ترافق حبي الثقة العمياء... لا أحتاج إلى التأكد من شيء حصلت عليه من السفارة الأميركية». ابتسمت وسألته مندهشة:

«لماذا تحب الولايات المتحدة هكذا ولم تزرها أبدا؟». فكّر بماري وابتسم ثم قال:

«لا شيء، ربما لأنك عندما تحبين شخصاً تحبين كل شيء يتعلق به وحتى البلد التي يعيش فيها»، ولم يترك لها مجالاً كي تعلّق.

صافح يدها ثانية ثم خرج مسرعاً من السفارة. كانت الساعة الثانية بعد الظهر وأراد أن يصل إلى لبنان قبل منتصف الليل.

ماري، بعد ثلاث أيام

لم يسبق لماري أن بكت مثلما بكت في اليومين اللذين تبعا دفن والدتها، وكان من الصعب عليها أن تتحمل ألم الفراق، فبدا كما وأنّ التاريخ يرجع للوراء لأن الشيء نفسه حصل لوالدتها عندما مات زوجها، فهي أحست بالمزيد من الألم لدى رؤية زوجها وهو يدفن. وشيء آخر جعل تجربة ماري أكثر ألماً كان تقديم الناس التعازي لوفاة جدتها أيضاً في الوقت نفسه، فهذه كانت أول مرة تزور فيها لبنان منذ موتها.

بعد ثلاثة أيام، بدأت ماري تتمتع بمعنويات مرتفعة مما شجع نبيهة أن تقترح عليها أن تخرجا لزيارة عدة أماكن. والمكان الأول الذي زارتاه كان مدرسة للبنات تدعى (مدرسة القيم والمبادئ) حيث تعمل نبيهة منذ سبع سنوات كمدرّسة للعلوم.

حصلت نبيهة على استقبال ملكي من قبل التلميذات اللواتي كن عند بوابة المدرسة لدى دخولهما. فهن لم يشاهدن نبيهة منذ جاءت ماري لأنها أخذت عطلة لأسبوعين كي يكون لديها ما يكفي من الوقت لتمضيته مع ابنة خالتها. وبعد أن قدمت ماري إليهن، صارت هي محور انتباههن تلقائياً.

وبعد ذلك تعرّفت على زملاء وزميلات نبيهة واحد تلو الآخر. كانوا جميعاً على علم بحضورها إلى لبنان مسبقاً وقدّموا إليها تعازيهم الخاصة. ولكن واحداً منهم أصبح مهتماً بها بشكل خاص. قدّمته نبيهة إليها قائلة:

«وهذا رمزي، أستاذ الرياضيات وصديق زوجي. وهذه ماري. سبقت أن قلت لك بأنها كانت ستأتي إلى لبنان بمناسبة دفن والدتها». صافح بيد ماري ثم قال:

«أنا أرجو من الرب أن تكون والدتك في الجنة الآن وأتمنّى لها رحمة الروح القدس». توقّف قليلاً ثم استطرد:

«وأنا متأكد أيضاً بأنها إنسانة عظيمة لأنها تميّزت ببركة إنجاب واحدة مميّزة مثلك».

احمرّ وجه ماري، ليس لأنها لم تكن معتادة على سماع مثل هذا الكلام الجميل، بل تفاجأت لأنها كانت تسمعه لأول مرة من رجل من صور. فمعظم الرجال الذين قابلتهم هناك لا يمتلكون الجرأة للتحدث إليها بتلك الطريقة والجرأة بالرغم من إعجابهم الواضح بها، حتى إنهم لا ينظرون إليها عندما يتحدثون معها، بل يفضّلون النظر إلى الأرض. ابتسمت وقالت:

«شكراً سيد رمزي!».

استغرب لأن المرأة التي بدت مثيرة في نظره لم تقل أكثر من ذلك ولكنه كان مصراً على متابعة الحوار. رمق ماري ثم سأل:

«هل هذه المرة الأولى التي تزورين بها المدرسة؟».

كانت نبيهة عاجزة عن أن تمنع نفسها من الضحك وردت بالنيابة عن ماري:

«بصراحة لا أظن بأن هذه المدرسة تأسست قبل سفرها إلى الولايات المتحدة، وهذه المرة الأولى التي ترجع فيها منذ مغادرتها. باختصار، لو تأسست المدرسة في عام 1978 وهي سافرت في عام 19 دون أن تعود إلى لبنان منذ ذلك الحين حتى الآن، فستصبح هذه المرة الأولى التي تزور المدرسة بها بدون شك». ابتسم ثم قال بصوت يلّفه الفضول:

«أعتذر، فأنا أجهل بأنها زيارتها الأولى».

ودّعهما للقيام بعمله. قامت نبيهة بجولة حول المدرسة مع ماري بعد ذلك وانتهزت تلك الفرصة لتحكي لها عن تاريخ المدرسة التي أقامها رجل ثري يدعى سليم مهدي من أصل لبناني، ولكنه يعيش في اليونان.

«هل تعرفين لماذا أسموا هذه المدرسة بمدرسة القيم والمبادئ؟ لأن صاحبها زار لبنان قبل بضع سنوات وبعد أن أمضى يومين فقط، أحس بأن القيم والمبادئ لدى المراهقين كانت على وشك الاختفاء بسبب الحرب التي تسببت في انتشار الفقر والإهمال العائلي أيضاً. قرّر عندئذ أن يؤسس المدرسة وحقق ذلك الإنجاز خلال شهرين». توقفت قليلاً قبل أن تستمر:

«ومنذ أكثر من عشر سنوات من الآن، لم يكسب شيئاً من هذا الاستثمار، ولكنه لا يبالي بذلك لأنه أقامها فقط لأسباب إنسانية».

ذهلت ماري من كرم ذلك الرجل وتمنّت لو كان عندها الكثير من المال مثله كي تقوم بمشروعات مشابهة.

«يذكّرني صاحب مدرستك بالثنائي الذي أعمل في منظمتهما، السيد والسيدة كيسنجر. هما ينفقان المال على المنظمة باستمرار لدرجة كنت أخاف من أن يصبحان مفلسين يوماً، وعبّرت عن قلقي لمحاسب المنظمة يوماً، فقال لي بأنه إذا قارنا المال الذي يصرفانه على المنظمة بثروتهما، فستكون تبرعاتهما هذه بمثابة كوخ مقارنة بناطحة سحاب».

ضحكتا سوياً وكانتا على وشك مغادرة المدرسة للذهاب إلى مطعم حتى ظهر رمزي:

«أنتما لا تزالان هنا؟ ما أجمل المفاجأة!».

كان من الواضح أنه لا يجيد الكذب لأنهما أحستا بسهولة بأنه كان على علم بوجودهما قبل قوله ذلك. ردت ماري عليه:

«تشرفت برؤيتك من جديد». ثم رمقت نبيهة وقالت:

«هيا بنا!».

دهشت نبيهة من برودتها وحتى رمزي كان مصدوماً فيما تساءل عما إذا كان قد أغضبها، فقال محدِّقا إليها:

«أنا أحببت أن أخبرك بأنني أعرف بأنك تمرّين بظروف صعبة وأنني موجود إذا احتجتِ إلى أي شيء هنا في صور، وحتى بعد عودتك إلى الولايات المتحدة. تشرفت جداً بمعرفتك».

استدار وانصرف. توجهت نبيهة وماري بعد ذلك إلى مطعم جديد يدعى مملكة الكباب. وفي طريقهما، ذكرت نبيهة ما حصل معهما مع زميلها رمزي لأنها ما زالت مستغربة من سلوك ماري.

«ما رأيك به؟ أليس خفيف الظل؟».

توقّعت ماري بأنها ستسألها عنه وكانت لديها إجابة جاهزة:

«قلتِ كل شيء بنفسك، فهو خفيف الظل فعلاً. لم أرَ فيه سوى ذلك».

«وهل هذا كل ما خطر في بالك عنه؟». ضحكت وقالت:

«هو رجل مثل كل الرجال، فهو كالذئب، فهذه الصفة التي يتميز بها كل الرجال».

غضبت نبيهة لدى سماع ذلك التعليق ولكنها ظلت صامتة لأنها كانت تركن سيارتها عندئذ ولكن بعد أن دخلتا المطعم وجلستا وطلبتا الأكل:

«أتمنى بأن زوجي فؤاد وزوجك في المستقبل شوك ليست لديهما طبيعة الذئب».

لم ترد ماري الكلام في الموضوع الذي تريد نبيهه أن تبدأ في الخوض به، ولكنها كانت مضطرة للمتابعة لأنها عرفت بأنها جرحت شعور نبيهة:

«لم أقصد كل الرجال طبعاً، فزوجك ملاك ولا أبالغ عندما أقول بأنه يتميز بصفات رائعة». توقّفت لتشرب بعض الماء ثم استطردت:

«أما بالنسبة إلى شوك، فصفاته ليست مهمة الآن لأنني وعدت والدتي بأنني سأتزوج به حتى إذا كنت واثقة من أنني لا أحبه ولن أحبه طول عمري».

لم تصدّق نبيهة ما كانت تسمعه ولكنها كانت عاجزة عن طرح أي سؤال آخر مباشرةً لأن النادل جلب الأكل وكانتا جائعتين كثيراً. ولكن بعد الوجبة، فاتحت ماري بالموضوع مجدداً:

«إذا كان شوك رجلاً طيباً ويمتلك الكثير من صفات والدك كما كانت والدتك تكتب في رسائلها، لماذا لا تستطيعين أن تحبينه؟».

ساد الصمت القاتل لأن ذلك الموضوع بالذات كان أمراً أرادت ماري تجنّب الخوض به. ولكنها أجابت عن السؤال أخيراً:

«لا أستطيع أن أحب شوك لأنني لا أزال أحب إسحاق، وسأحبه طول عمري بالرغم من عدم تمكّني من الزواج به كي لا أخون والداي حتى في مماتهما». تنهّدت ثم قالت:

«من فضلك، دعينا نتكلم عن شيء آخر».

نفّذت نبيهة طلبها بتردد وأخذت تحكي عن حبها للتعليم بحماس مزوّر، لأن ما كانت تفكر فيه أثناء كلامها كان عن كيفية منع ماري من الزواج بشوك لأن ذلك سيكون أكبر خطأ سترتكبه في عمرها.

لم يرجع إسحاق إلى بيروت عند منتصف الليل كما خطّط له، بل وصل هناك حوالى الساعة الثالثة بعد منتصف الليل. والسفر في ذلك الوقت كان شيئاً خطيراً بالرغم من أن الحرب قد انتهت رسمياً عندئذ، والسبب لذلك يرجع إلى الاستمرار بالعديد من الاشتباكات قرب الحدود.

لدى وصوله، عرف بأن ذهابه إلى البيت في ذلك الوقت لن يكون قراراً سليماً، ولذلك بقي في المحطة مع بعض المسافرين الذين جاءوا معه من دمشق ودار نقاش مثير بينهم حول مستقبل لبنان، ومرّت الساعات حتى حان وقت صلاة الفجر. توجهوا جميعاً إلى المسجد وصلوا ثم تفرقوا إلى بيوتهم. كانت الساعة السادسة عندئذ.

بلغ إسحاق منزله بسرعة لأن الطريق كان خالياً من الزحمة وذهل لدى رؤيته والدته منتظرة في غرفة الجلوس بعيون مفتوحة كأنها كانت على علم بأنه كان في الطريق إلى البيت.

«صباح الخير يا ماما، ما أجمل المفاجأة!».

اندهشت أيضاً لدى دخوله البيت لأنه قد أخبرهم قبل رحلته بأنه لن يعود قبل خمسة أيام على الأقل. فرحت جداً بظهوره المفاجئ لأنها كانت متأكدة بأن ذلك يدل على أن الله استجاب لدعائها ومنعه من الحصول على التأشيرة.

«أهلاً وسهلاً حبيبي!». نهضت لتحتضنه ثم تابعت كلامها:

«لماذا رجعت مبكراً؟ هل نُقل السفير إلى دولة أخرى قبل وصولك إليه؟». استغرب إسحاق من سؤالها وأجابها قائلاً:

«لو حصل ذلك، لكنت انهرت ولكن ذلك لم يحدث».

توقّف فيما أخرج جواز سفره من جيبه وفتح صفحة التأشيرة قبل أن يقول:

«انظري إلى التأشيرة يا أمي، فهي مفتاحي إلى السعادة».

كانت أمه مصدومة عندما نظرت إلى التأشيرة. لم تعرف كيف تردّ على ابنها. أخذت تمشي نحو المطبخ كأنها تبحث عن شيء هناك. ثم رجعت إلى غرفة الجلوس ثانية وجلست على أقرب كرسي وجدته قبل أن تقول:

«المهم الآن هو أن لا تكسر وعدك لي».

تأملها في ارتباك، فهما قد تكلّما بشأن ماري بضع مرات وكان واثقاً من أنه قد قطع لوالدته عدة وعود بخصوص هذا الأمر، ولكن لم تكن لديه فكرة عما كانت تشير إليه الآن.

«أنا محتار يا أمي العزيزة. لا أعرف للأسف ما تقصدين». ظهرت علامة يأس على وجهها قبل أن تقول:

«أرى بأنك نسيت والدتك حتى قبل سفرك هذا. سأذكّرك، فلقد اتفقنا بأنك ستؤجل ذهابك إلى صور لغاية السنة القادمة كي تكون الأمور في البلاد قد هدأت أكثر».

كان إسحاق غاضباً مما قالت، فهو قد بدأ التخطيط لرحلته إلى صور عندما كان في طريق عودته من سوريا، فقد كان ينوي القيام بذلك السفر قبل مرور أسبوع. ولكن كانت خطته على وشك الوصول إلى طريق مسدود بسبب عناد والدته التي بدت مصرّة على تأجيل سفره.

«يا والدتي الغالية، نحن الآن في نهاية السنة تقريباً، فلم يتبقَّ إلا أقل من أربعين يوم حتى ينتهي

العام. لماذا ينبغي أن أنتظر حتى السنة المقبلة؟». انفجرت حينها والدته غاضبة:

«لماذا لا تحترم وعودك؟ فهذا هو السؤال الجوهري. على العموم، لا توجد حاجة لمناقشة هذا الأمر لأنك ملتزم بوعدك هذا بالذات».

نهضت وأعطته جواز سفره ثم توجهت إلى حجرتها. ولكن قبل أن تختفي عن نظره، أنهت كلامها قائلة:

«أنا أريد أن أنام، إلى اللقاء!».

بعد مغادرتها، ظل إسحاق ملتصقاً بكرسيه، فهو لم يصدّق ما حصل للتو. لماذا لا تزال والدته متشائمة بهذا الأمر لهذه الدرجة؟ وعندما ملّ من تكرار طرح السؤال نفسه، نهض أيضاً وذهب إلى حجرته لينام، ولم يستفق إلاّ بعد أكثر من أربع ساعات.

كان يقاوم السبات حتى بعد أن استيقظ ولكن كان هناك شيء في داخله جعله ينهض. أخذ حماماً سريعاً ثم نزل ليبحث عن والده كي يريه جواز سفره ويشكره لمساعدته. وجده يشاهد التلفاز ويقرأ جريدة في الوقت نفسه. تبادلا التحيات ثم سرد له كل ما حدث في سوريا وقدّم إليه جواز سفره.

بدا والده فرحاً له نوعاً ما ولكنه تغيّر لدى ظهور زوجته المفاجئ. أخذ يقطّب وجهه كأنّ إسحاق يزعجه. ردَّ إليه جواز السفر وبدأ يركّز فقط على الجريدة في يده. لم يغضب إسحاق لأنه عرف بأن تصرفاته كانت مجرد تمثيل ليرضي والدته. سلّم عليها وعلى أخيه الذي نزل برفقتها ثم قرّر عندئذ أن يخرج ليقوم بزيارة إلى الدكتور طارق.

عثر على سيارة أجرة بسرعة. غرق في التفكير فيما اقتحمه التردد في الذهاب إلى بيت الدكتور طارق. كان يتجنّبه منذ بضعة أشهر بسبب معارضته الدائمة لفكرة تمسّكه بحلم الزواج بماري، فتعليقاته السلبية بخصوص هذا الأمر كانت في نظر إسحاق أخطر من أسلحة الدمار الشامل لأنه يحترمه أكثر من أي أحد آخر.

أراد أن يراه اليوم فقط لإبلاغه باقترابه من تحقيق أحلامه تقديراً لوقفته معه طوال هذه السنوات الصعبة. وصل إلى منزله بسرعة وفي الوقت المناسب لأنه كان على وشك الخروج، صرخ مضيفه لدى رؤيته قائلاً:

«ما هذه المفاجأة الرائعة، إسحاق، كم اشتقت لرؤيتك يا شاب». ابتسم إسحاق وقال:

«صباح الخير يا سيدي. يظهر أني جئت في وقت غير مناسب، أنت على وشك الخروج».

«عندي موعد مهم ولكن لا مشكلة، لندخل ونتكلم قليلاً».

أمسك يده ودخلا بيته سوياً. قابل إسحاق زوجته في الطريق وسلّم عليها ثم جلسا في غرفة الجلوس. أراد أن يقول شيئاً ولكن الدكتور سبقه في الكلام:

«أتمنّى بأنك جئت بخبر يشبهك».

«نعم يا سيدي، أردت أن أخبرك بأنني حصلت على تأشيرة أميركية وسأسافر إلى الولايات المتحدة قريباً كي أبحث عن ماري وأعيد المياه إلى مجاريها بإذن الله».

تفاجأ مضيفه لدى سماع ذلك. لم يرد أن يعارض إسحاق اليوم كما كان يفعل دائماً لدى مقابلتهما لأنه لم يعد يظن بأن قيامه بذلك سيسفر عن النتيجة المرغوبة.

«أنت شخص عجيب، حصلت عل تأشيرة أميركية في هذا الوقت... لو كنت قادراً على الحصول على الشيء نفسه لكل أعضاء عائلتي، سأهرب بهم جميعاً من هذه البلاد. قد أتأخر في موعدي يا

إسحاق، يجب أن أغادر».

لاحظ إسحاق بأنه تجنّب الكلام بما قاله بشأن ماري متعمَّدا وأغضبه ذلك جداً. كان ذلك واضحاً عندما نهض بسرعة ثم قال:

«أحس بالذنب لأنني أخذت هذا القدر من وقتك. أعتذر على الإزعاج».

«لماذا تستعمل مثل هذه الألفاظ؟ أنا وأنت صرنا كالعائلة يا إسحاق».

نهض الدكتور أيضاً ورافقه إلى الخارج ثم قرر أن يقلّه إلى منطقة قريبة من بيتٍه كي يرضيه. ولكن لم تكن للفتته أي فائدة وساد التوتر في السيارة. وعندما خرج إسحاق، عرف كلاً منهما بأنه لم يعد هناك أي انسجام بينهما كما وجد في الماضي.

بعد أن قابل ماري، أصبح رمزي رجلاً سعيداً مما جعله شخصاً حيوياً. لقد تحوّل إلى إنسان متفائل مما جعله كائناً ودوداً، وصار يتكلم كأنه كان شاعر مما جعله شخصية مثيرة لكل من يلتقون به في عمله أو بيته، والعجيب في الأمر هو أنه أصبح كذلك بشكل دائم. وبالنظر إليه، قد تعتقد بأنه مجرّد رجل يمشي على الأرض كبقية الناس، ولكن في أعماقه كان يطير من الابتهاج مما جعله أكثر كالعصافير عندما تطير في مرح وفرح.

كان عمره سبع وأربعين سنة وبالرغم من ذلك، لم يملّ بعد من استعماله أسباباً مختلفة للتهرب من الزواج فقد أرادت أمه الطيبة أن يستقر معها. كان لديها سبعون سنة وتمنّت أكثر من أي شيء آخر أن يأتي اليوم الذي سيشهد زواج رمزي، ابنها الأخير والوحيد بين أطفالها الأربعة الذي تخرج من الجامعة.

وبالرغم من كل محاولاتها تقديم أجمل النساء اللاتي تعرفت عليهن من خلال أمهاتهن، لم تسمع منه سوى التعليقات السلبية عنهن مثل «أنا متأكد بأنك لم تنتبهي لأنفها الكبير» أو «لو تزوجت بتلك المرأة، فسيكون أحفادك بشعين للغاية». وحيناً يتحجج بأن النساء فقط يطمعن بماله، فكان على والدته أن تذكر بأن والده مات مفلساً مما جعلهم لغاية الآن من أفقر معارفهم.

لقد تغيّر كل ذلك الآن، فالرجل قليل الأدب قد قابل امرأة جميلة وساحرة وكل صفاته السلبية أصبحت تشكل جزءاً من التاريخ فقط. فلقد وقع في أعماق بئر الحب ولأول مرة في حياته منذ اليوم الذي تعرّف فيه على ماري.

ولكنه عندما يتذكر برودة ماري في تعاملها معه خلال مقابلتهما الأولى والوحيدة، كان يصعب عليه إقناع نفسه باحتمال أن تحبه يوماً ما. فهي بدت في نظره في ذلك اليوم كأنها كانت غير قادرة على تحمّل البقاء معه في أي مكان. ولكنه في أغلب الأحيان لم يكن يحلل الأمور هكذا لأن ذلك يجعله حزيناً وتعيساً.

أخذ يرسم أفكاراً في ذهنه عن امرأة لم يعرف شيئاً عنها. ومثلاً كان يشير إلى أنها ستعود للعيش في لبنان بسبب حبها لوطنها، فبرّر رأيه هذا من خلال ما وصفه بقرارها الجميل لتدفن والدتها في صور. وذكر هذا الموضوع في المرة الأولى تكلّم عنها لوالدته:

«لو لم يكن في قلبها حب كبير للبنان، لما أنفقت مبلغاً ضخماً لإعادة أمها من مكان بعيد كالولايات المتحدة، فماري لا تمتلك ثروة كبيرة حسبما سمعت عنها، وقد تكون صرفت كل ما لديها من المدخرات لترجع والدتها. ما أطيبها من امرأة».

كان يقول هذه الأشياء وكأنها كانت حقائق يقرأها من بعض الوثائق والمستندات. وبعد أن أمضى يومين على هذا الحال قام بخطوات ليقترب من حلمه، فقام بزيارة زوج نبيهة في مكتبه وباح بحبه الكبير لماري. استقبل فؤاد الخبر بكثير من التفاؤل. هو يدرك بأن لرمزي عيوباً كثيرة ولكنه يعرف أيضاً أكثر من أي أحد بياض قلبه وصدق نواياه. وتمنّى أن تكون ماري من نصيبه. لم يعرف بعد بأن شخصيتها كانت معقّدة لأن زوجته لم تخبره بذلك، ولم يكن على علم أيضاً بقرارها للزواج بشوك لأن زوجته لم تقتنع بالفكرة بعد ولم ترد أن تنشر خبراً عن أمر كانت تنوي إيقافه وإنهائه.

سعى فؤاد إلى مساعدة رمزي في هذا الأمر ودعاه إلى العشاء كي يحصل على فرصة رؤية ماري مجدداً ويتحدث إليها في جو أكثر هدوءاً من المدرسة.

ارتدى رمزي بذلته المفضلة ووصل إلى بيت فؤاد عند الساعة السابعة بدلاً من الثامنة. توجّه مباشرة إلى غرفة الجلوس وتفاجأ لدى رؤية ماري هناك لوحدها. كانت تقرأ كتاباً بهدوء وظل

يراقبها لبضع دقائق قبل أن يجلس قريباً منها ويقول:

«إن راحة البال والاطمئنان يعدّان هدية كبيرة ونادرة من الرب، أراهما فيك مما يجعلك امرأة محظوظة ومباركة في آن واحد».

رفعت رأسها وذهلت لما شاهدته أمامها. لم تكن كعادتها في مزاج لتستمع إلى مثل تلك الكلمات، فقطّبت وجهها ثم قالت:

«ليس من الجيد أن يبدأ أي حوار بدون تبادل التحيات».

أصابته كلماتها كقنبلة وأفقدته ثقته بنفسه. كان ذلك واضحاً من النبرة المرتجفة التي ردَّ بها عليها:

«أين الأخلاق عندما نحتاج إليها؟ أنا لست سوى رجل غبي على ما يبدو، أعتذر لأني لم أسلّم عليك».

ندمت على تعليقها عندما نظرت إليه، ولو كان بإمكانها أن تسحب كلماتها، لفعلت ذلك. سعت لرفع معنوياته قائلة:

«لا تقل ذلك، فالذين يتميزون بالغباء لا يدرسون الرياضيات في أي مكان في العالم مما يثبت بأنك رجل ذكي للغاية. سأبحث عن فؤاد كي أخبره بوجودك».

استعاد مزاجه السعيد بسبب ما قالته فيما نهضت على الفور لتنادي فؤاد، ولكنه أوقفها عن الذهاب عندما قال:

«هناك مثل يقول (ساعة الحظ لا تعوَّض)، واستناداً إلى هذه الحقيقة، اسمحي لي أن أتجرأ لأطلب منك القليل من وقتك». جلست مجدداً ثم تابع كلامه:

«أنا لم أعرفك من مدة طويلة ولكني أعرف بأنني سأحبك إلى الأبد. وأعرف أيضاً بأن كلامي سيدهشك كما أدهشني عندما كنت أقوله لنفسي في أول يوم رأيتك فيه». تنهّد ثم أنهى كلامه:

«لقد بلغ عمري السابع والأربعين ولم أجد الحب قبل الآن وهذا ما يجعلني متأكداً من عدم وجود أي احتمال أن أجده مجدداً إذا لم تكن لديّ الجرأة أن أخبرك بأنني أحبك وأن أشرح لك مدى حبي لك».

ظلت صامتة لعدة دقائق، لم ترد أن تجرح شعوره لأن حبه لها كان واضحاً ولكنها في الوقت نفسه، لم تكن لديها النية أن تقدّم إليه آمال وهمية. وفجأة خطرت فكرة في بالها، ستخبره ما ستنهي به الأمر.

«أنا أقدر شعورك لأنه يأتي من قلب جميل، فرجل مثلك يعدّ نعمة من الرب للجميع. لا أعرفك جيداً ولكني متأكدة من صحة تحليلي عن شخصيتك». ابتسمت ثم استمرت بسلسلة كذباتها:

«ولكني لا أستطيع أن أبادلك مشاعرك لأنني مرتبطة بشخص أحبه في الولايات المتحدة، وعدته بالزواج ولولا وجوده لما كنت قادرة على تحمّل فقدان والدتي لوحدي فأنا أحب هذا الرجل أكثر من أي أحد وأتمنى بأنك ستتفهم موقفي». توقفت ثانية لبرهة:

«عندما أزور لبنان في المستقبل، يجب عليك أن تقدم إليّ زوجتك لأنك تأخرت في الزواج، وأنت محتاج إلى من تعتني بك لأنك رجل جيد وتستحقّ كل خير. سأذهب الآن وأخبر صديقك عن وجودك».

كانت تتكلم ككمبيوتر تمّت برمجته ليقول تلك الأشياء. ولم تكن تعبّر عن أي إحساس بالذنب بالرغم من الإشفاق الكبير الذي كانت تحسّه تجاهه. وقبل أن تتركه، رسمت ابتسامة عريضة ثم

تمشت بهدوء فيما ظل ينظر إليها مصدوماً ومحطماً.

لم يكن لدى رمزي وماري أي علم بأن فؤاد ونبيهة كانا يتنصتان لحديثهما. لم يتعمدا التنصت ولكنه كان ذلك بالصدفة لأنهما كانا في طريقهما إلى غرفة الجلوس وذهلا عندما سمعا الحديث المضطرد من بعيد. لم يرجعا إلى المطبخ حتى عرفا بأن ماري كانت في طريقها إلى فؤاد لتبلغه بوجود رمزي.

وبالنظر إلى ما حدث، ليس من الصعب إذاً معرفة لماذا كان الجو متوتراً للغاية عند العشاء. فالسعادة كانت غائبة عن وجوه الجميع ما عدا ابنتيّ نبيهة الصغيرتين. كانت ماري غاضبة من رمزي لأنه وضعها في ذلك الموقف وكان فؤاد غاضباً من زوجته لأنها لم تخبره بأن ماري كانت مرتبطة، وكان رمزي غاضباً من فؤاد لأنه شجعه على المضي إلى طريق مسدود، أما بالنسبة إلى نبيهة فكانت غاضبة من ماري لأنها كذبت على رمزي عندما أخبرته بأنها تحب شوك.

ساد صمت مخيف مائدة العشاء ولم يسمع سوى الضجيج الذي يخرج من أفواه الناس عندما يأكلون وعندما تلمس ملاعقهم الأطباق. لم تستطيع زهرة أن تتحمّل الوضع أكثر من ذلك وقالت:

«أشتاق إلى حجرتي. هيا بنا هناك يا ماما كي نلعب». ابتسمت والدتها وقالت:

«لقد تأخر الوقت الآن على اللعب، فلنلعب غداً».

لم تقل ابنتها شيئاً، بل أخذت تقطّب وجهها وظلت كذلك لبعض الوقت. وفجأة انهارت الأمور لأنها انفجرت باكية. انتظر رمزي حتى حملتها والدتها وتوقفت عن البكاء ثم اختار تلك اللحظة ليودعهم قائلاً:

«كانت الوجبة لذيذة جداً. أظن بأن الوقت قد حان للذهاب».

كان فؤاد يتوقع أن يسمع منه تلك الكلمات منذ وقت طويل لأن رمزي أسرع في أكل طعامه وكان يحدّق إلى طبقه دون أن يقول شيئاً منذ بضع دقائق.

«معك حق لأن الوقت تأخر بعض الشيء، دعني أرافقك إلى سيارتك».

صافح رمزي ماري فيما تجنّب النظر إليها وسلّم على نبيهة ثم مشى نحو المخرج بطريقة غريبة كأن رجليه كانتا غير قادرتين على حمله. كان مشهداً حزيناً للكل لأنه كان من الواضح بأنه يحب ماري جداً.

وبعد خمس دقائق، عاد فؤاد من الخارج وانتهزت نبيهة فرصة رجوعه كي تطلب منه أن يعتني بالبنتين لتتمشى قليلاً مع ماري، فهي تحب أن تمشي عادة بعد تناول وجبة ثقيلة. وافق فؤاد ثم خرجتا. كانت الساعة العاشرة ليلاً عندئذ ولكنه لم يكن خطيراً الخروج لأن منزل نبيهة يوجد في أفضل منطقة في صور، ورثه فؤاد عن والده عندما توفي قبل سنتين. بدأ الحوار عندما قالت نبيهة:

«لماذا كذبتِ على رمزي عندما أخبرتيه بأنك تحبين شوك؟ استمعت إلى حديثكما وأعرف التفاصيل».

كانت ردة فعل ماري تتّسم بالغضب والذهول ولكنها قرّرت عدم انتقاد نبيهة احتراماً لها وتقديراً لوقفتها معها.

«التنصت يعتبر جريمة في الولايات المتحدة. ومن تثبت عليه قد ينتهي به المطاف في السجن يا حبيبتي». ضحكت نبيهة ثم قالت:

«لا أعرف القوانين في الولايات المتحدة ولكني أعرف قانون العدالة البشرية، واستناداً إلى هذا

القانون يشرّفني أن أعلن لك بأن زواجك بشوك سيكون بمثابة جريمة لنفسك حسب هذا القانون الذي تفوق أهميته كل القوانين الأخرى. فأنتِ لا تحبينه وزواجك منه سوف يمنعك من البحث عن الرجل الذي ستحبينه».

كانت نبيهة على وشك الاستفسار أكثر عن شعور ماري تجاه إسحاق وتفاجأت عندما ذكرت ماري اسمه بنفسها.

«أنا أحب، ولكن الرجل الذي أحبه ليس الشخص المناسب، وهذا ما يجعلني أكره الحب. الحب يجعلنا ضعفاء ولا يعطينا الحق في الاختيار. أنا لم أختر هذا المصير ولكن هذا المصير هو الذي اختارني ولا أعرف لماذا لغاية الآن. أنا لا أزال أحب إسحاق».

بدأت الدموع تنهمر من عينيها عندئذ ولكن ذلك لم يمنعها من متابعة كلامها:

«أنا أحبه جداً وحتى أكثر منك بالرغم من وقوفك معي طوال كل هذه السنوات وكونك أغلى وأقرب قريبة لقلبي. وحتى إنه أحياناً يقتحمني الشعور بأن حبي له يفوق حبي لكل مَن أعرفهم مجتمعين، وهذا يشمل أبي وأمي... ولكن هناك أمل أن يصبح هذا الأمر أقل أهمية لأنني سمعت...». توقفت قليلاً لأنها كانت خجلة مما كانت على وشك قوله:

«لأنني سمعت بأن ربنا سيدخل الحنان في قلب أي امرأة مثلي تجاه زوجها لأنها لم تسبق أن مارست الجنس قبل الزواج، ومعنى ذلك هو أنه سيسهّل تحمّلي الحياة مع شوك بعد الزواج لأنني سأكون حنونة معه، فهو سيكون الرجل الأول الذي سينام معي حتى لو كان إسحاق لا يزال موجوداً في قلبي».

أحست نبيهة بالكثير من الإشفاق عليها، وفي الوقت نفسه، اعتبرتها ساذجة كثيراً.

«تلك المعلومات ليست صحيحة لأن الجنس ليس له علاقة بالحنان أو حتى بالعواطف، فهو متعلّق بالجسد، أما بالنسبة إلى الحب فهو يخص القلب والروح. يتعيّن عليك أن تعرفي ذلك قبل أن يفوت الأوان». تنهدت ثم أضافت:

«الطريقة التي تتكلمين بها عن حبك لإسحاق تجعلني أحس كأني أكره زوجي. واللغز الذي يحيّرني هو أنك أخبرتني أول مرة فاتحتني بخصوص ما حصل معكما أنكما تقابلتما فقط قبل عدة أشهر قبل هروبكما مع بعض ولم تتقابلا ثانية بعد فراقكما، من أين جاء هذا الحب العظيم؟ أنا حقاً محتارة». توقفت ماري عن المشي وقالت:

«أشعر كأنك تقرأين أفكاري طوال هذه السنوات، فهذا السؤال الذي أطرحه على نفسي باستمرار. كيف ولماذا أحبه هكذا؟ وهذا السؤال يعدّ من ضمن الأسباب التي جعلتني أخبرك عنه بعد أن انتهت قصتنا من زمان. كنت أحتاج إلى مَن أتكلم معه». فجأة ظهر الغضب في عينيها:

«والعجيب في الأمر هو أن شوك أجمل منه ولديه علم وثقافة أكثر منه والنساء يحببنه لأنه فعلاً مثلهن الأعلى... أما بالنسبة إلى إسحاق، فهو إنسان عادي نوعاً ما. قد ينبع حبي له من عدم قدرة أحد بالتكهن عما سيقوم به أو ربما هو نتيجة تصرفاته الرومانسية الممزوجة بالجنون أو ربما ظهر هذا العشق بسبب تواضعه أو حسه الفكاهي... لا أعرف كيف استولى على قلبي وروحي لهذه الدرجة، وعلى ما يبدو لن أعرف لأنني أمضيت سنوات وأنا أسأل نفسي هذا السؤال».

كانت نبيهة واثقة الآن من عدم وجود أي خيارات أخرى أمامها لإصلاح حياة ماري العاطفية سوى بإعادة علاقتها مع إسحاق ولكنها لم تظن بأنها قادرة على فعل شيء كهذا لأنه سيكون بمثابة خيانة لخالتها سارة. وحتى لو أرادت القيام بذلك، كيف ستجد إسحاق الآن في بلاد دمرتها الحرب الأهلية؟ أمسكت بيد ماري وطرحت عليها سؤالاً:

«هل تظنين بأنكما لو أصبحتما أصدقاء، أنت وإسحاق، قد يساعدك ذلك أن تتخلصي من هذا الحب ويجعله يتحول إلى صداقة كي يتاح لك المجال للوقوع في الحب مع رجل آخر؟». ساد الرعب وجه ماري:

«لا طبعاً، لا يمكن أن أقبله كصديق، فهو سيضع قلبي وروحي في جيبه ولن أستطيع أن أوقفه، بل ربما سأساعده على هذا الأمر لأنه قوي التأثير على مَن حوله وأنا أولهم من خلال كلماته القوية... الصداقة معه أمر مستحيل». بدت كأنها ترتعش فيما أضافت:

«لا تفهميني غلط، هو إنسان طيب ولكن في الوقت نفسه هو خطير، كيف يمكن لرجل أن يكون طيباً وخطيراً في الوقت نفسه؟ لا تسأليني لأني فعلاً لا أعرف».

ظلت نبيهة ساكتة بعد ذلك لأنه لم يكن لديها ما تقوله. فهي قد وضعت المشكلة العاطفية التي تعاني ماري منها في القائمة نفسها مع المشاكل التي لا يحلها إلا الله بشكل مباشر. وستدعو لها أكثر على أمل أن ينجح الدعاء حيث فشلت جهودها. هكذا رجعتا إلى البيت بعد مشي استغرق ساعة.

إسحاق بعد أربعين يوم

رقم أربعون لطالما لعب دوراً مهماً في الإسلام والمسيحية. هناك الكثير من الأحداث التي تدل على أهمية هذا الرقم. عندما صعد موسى إلى الجبل مثلاً، أمضى هناك أربعين يوماً حتى عاد إلى قومه برسالة من ربه. وحتى النبي محمد عندما تلقى الآيات الأولى في القرآن، كان عمره أربعين سنة. وهناك عدد أكبر من الأمثلة بحيث لعب الرقم أربعين دوراً محورياً في حياة الأنبياء في التوراة والإنجيل والقرآن.

إذا كان هذا ما جعل إسحاق ينتظر حتى مرور أربعين يوم قبل ذهابه إلى صور بعد أن حصل على التأشيرة الأميركية سيزال لغزاً. ولكنه في 12 يناير عام 1990، بعد الكثير من الدعاء والصيام، ودّع والدته التي كانت تذرف الدموع ووالده وأخيه قبل أن يسافر عند الساعة التاسعة صباحاً، أربعين يوم بالضبط بعد عودته من سوريا.

ومنذ غادر منزله، تنبّه إلى مدى خوفه بسبب ما كان على وشك القيام به، فهو كان يرتجف كمن تم رميه على الثلج بدون ثياب. وفجأة اقتحمه الإحساس بأنه كان مجرماً واستطاع بالصدفة أن ينجو من عقاب جريمته التي ارتكبها، ولكنه للأسف قرّر العودة إلى مشهد الجريمة بعد بضع سنوات بدلاً من الابتعاد عنها إلى الأبد.

استقل حافلة مكتظة بالناس وسمع أصواتاً متناقضة داخله تحمل رسائل مختلفة مثل «أنت جبان وساذج، فأنت تجري وراء سراب لن تصل إليه»، ثم كان هناك صوت آخر يقول العكس «أنت بطل ولديك صفات مثالية، الدنيا ليست سوى مسرح للعبة الشطرنج... وأنت تعرف بأنه عليك أن تلعب حتى تفوز». وعندما ملّ من هذه الأصوات، أغمض عينيه وأخذ يتلو آياته القرآنية المفضلة حتى وصل إلى صور عند الساعة الحادية عشر وأربعين دقيقة صباحاً.

لا يعرف أي مكان في المدينة ولذا ركب أول سيارة أجرة رآها وأخبر السائق أن يقوده إلى أرخص فندق. ضحك السائق ثم قال:

«أنت من بيروت بدون شك ولذا لا تعرف بأن كل الفنادق هنا رخيصة. سآخذك إلى الفندق القريب من بيتي كي أكون قريباً في حال كنت بحاجة إلى مساعدتي».

استقبل إسحاق تعليقه بامتنان وقلق لأنه لم يظن بأن السائق كان سيتفوّه بشيء مماثل إذا كان على علم بقلة المال في حوزته.

«أشكرك يا سيدي. لطالما سمعت بأن أهل صور ناس طيبون وأثبت لي ذلك كلامك. نعم أنا من بيروت».

«العفو يا ضيفنا العزيز. أنا اسمي عاطف، ما اسمك ولماذا جئت إلى صور؟».

توقّع إسحاق ذلك السؤال منه لأنه يبدو فضولياً، وكان لديه جواب:

«تشرّفت بمعرفتك، وأنا اسمي إسحاق. لماذا جئت إلى هنا؟ الحكاية معقّدة قليلاً». توقّف ليفكّر ثم استمر:

«أمي هي التي أرسلتني إلى هنا. لديها صديقة غالية وتريدني أن أبحث عنها. فهذه المرأة كانت تعيش في بيروت حتى توفي زوجها منذ خمس عشرة سنة تقريباً وجاءت هنا لتدفنه. أرادت والدتي أن ترافقها عندئذ ولكن والدي منعها من السفر بسبب حالة البلاد آنذاك. منذ ذلك الحين لم ترجع تلك

المرأة إلى بيروت وانقطعت أخبارها تماماًوليس لدينا حتى عنوانها».

بعد أن أنهى كلامه، ظل السائق صامتاً لبرهة ثم ركن سيارته واستدار فيما حدّق إلى إسحاق كمن ينظر إلى رجل فقد عقله قبل أن يقول:

«أنت تريد أن تفهمني بأنك جئت إلى صور لتبحث عن سيدة مات زوجها ودفن هنا منذ حوالى خمس عشرة سنة وليس لديك عنوانها على الأقل؟».

أحس إسحاق بخجلٍ بالرغم من توقّعه لردة الفعل هذه، فهو لم يخبره بأن سارة قد سافرت إلى الولايات المتحدة متعمداً كي لا يسخر الرجل منه.

«أعرف بأنها مهمة صعبة ولذا أعتمد على الله وعلى أمثالك الذين يتميزون بالحكمة ويعرفون هذه المدينة أكثر من أي خريطة».

أسعده كلام إسحاق وجعله يحس بأنه يتوجب عليه أن يساعده كي يستحق حسن ظنه فيه.

«سأحاول أن أساعدك وأتمنى أن تسفر جهودي عن نتائج إيجابية ولكن عليك أن تخبرني كل ما تعرفه عن تلك المرأة».

شغّل المحرك ثم قاد إسحاق إلى الفندق في صمت. بعد أقل من دقيقتين، وصلا إلى فندق يدعى le blue وأخذ من إسحاق كل المعلومات التي لديه عن سارة إلياس، مثل اسم زوجها وابنتها ودينها والسنة التي توفي زوجها ومهنته ثم أعطى إسحاق عنوانه ووعده أن يراه في المساء على أمل أن يكون لديه بعض المعلومات.

عندئذ خرج إسحاق من السيارة وتوجه إلى عامل الاستقبال ودفع لأرخص حجرة ،فالسرير كان قاسياً كالحديد والمروحة على السقف كانت قديمة للغاية وكانت تتحرك بشكل غريب لدرجة كان إسحاق واثقاً من أنها قد سقطت على رؤوس بعض الزبائن من قبل. وأما بالنسبة إلى الكراسي في الغرفة، لم تبد أرجلها قوية بما يكفي لتتحمل حتى جلوس طفل عليها. اقترب من النافذة ونظر إلى مدينة جميلة للغاية مما جعله يقول لنفسه «أخيراً أعرف من أين حصلت ماري على جمالها».

كان ذلك النهار مملاً للغاية لأنه بقي في غرفته دون أن يخرج على أمل أن يأتي السائق ببعض المعلومات. ولكن لم يحدث ذلك، وحتى في المساء، لم يأتِ أيضاً كما وعده. أجبر إسحاق نفسه على النوم عند الساعة العاشرة بعد أن غلبته الكآبة.

وعند الساعة التاسعة من صباح اليوم التالي، ذهب إلى بيت عاطف. كان نائماً واضطر إلى انتظاره لساعتين. وعندما خرج من حجرته ورأى إسحاق في غرفة الجلوس، لم يتمكن من إخفاء غضبه وقال له صارخاً:

«ليس لديك حق بأن تأتي إلى بيتي بدون موعد. هل تجرأت لأنني قلت لك بأنني سأساعدك؟ ربما هذا ما يفعلونه الناس في بيروت وتظن بأنك ما زلت هناك».

كان إسحاق عاجزاً على الرد في البداية لأنه لم يصدّق بأن الرجل الذي عامله بطيبة بالأمس كان قادراً على التحدث إليه بمثل هذه الوقاحة اليوم.

«أنا آسف لأني أزعجتك وأعدك أن لا يتكرر ذلك أبداً».

نهض وخرج من البيت فيما سمع صوت امرأة وراءه، ربما زوجته، وهي تنتقد عاطف للطريقة التي تعامل بها مع الضيف. ظل يمشي بينما كان غضبه يزداد بسبب عدم تمكّنه من العثور على سيارة أجرة ولكنه فجأة سمع أحد يناديه من سيارة خلفه. استدار ليرى عاطف وهو يرجوه أن يركب معه، ولكنه رفض لأنه ما زال غاضباً.

ربما لو عرف بأن عاطف ليس سوى مدمن للخمر يرجع إلى بيته بعد منتصف الليل كل يوم، لتوقّع منه ما فعله أو ربما أسوأ. نزل عاطف من السيارة وطلب منه المسامحة عدة مرات قبل أن يركب إسحاق السيارة معه. ابتسم ثم قال:

«اسمع يا إسحاق، بخصوص ما طلبته مني، لن تجد مبتغاك سوى لدى وزارة الداخلية، هناك ملفات للأموات تستطيع أن تعثر على المعلومات التي تريدها من هناك. ولكني لا أستطيع أن آخذك إلى هناك الآن لأنه مقفول حتى بعد يومين».

لم يحتج إسحاق إلى تفكير طويل قبل أن يتفق مع الرجل بأن ذلك المكان كان على الأرجح المكان الوحيد الذي توجد فيه المعلومات التي يبحث عنها، فهو لا يستطيع أن يتجول حول مدينة كبيرة مثل صور فهو يبحث عن عائلة رجل مات منذ سنوات كثيرة.

«معك حق، شكراً للنصيحة المفيدة. فلننتظر ليومين إذاً. هل تستطيع أن تأخذني إلى الفندق؟».

أومأ عاطف برأسه موافقاً ونفّذ طلب إسحاق.

كان اليومان التاليان مثل الثلاثة أيام التي أمضاها إسحاق في الزنزانة عند مكتب الجوازات في سوريا. كان يحس كأنه لا يمتلك حياة، ولم يشعر بأي سعادة بالرغم من أنه تعرّف على الكثير من الناس الطيبين في المسجد القريب من الفندق، لم يكن سوى جسمه معهم بينما كان عقله وروحه يركّزان على ماري، وكان قلقه يزداد كل يوم بسبب خوفه من احتمال الفشل.

مرَّ اليومان ببطء وأخيراً جاءت اللحظة التي كان إسحاق ينتظرها، فسيعرف الآن أي من الطريقين سيشقّ، الطريق المؤدي إلى فارسة أحلامه أو الطريق الذي سيبعده عنها. لم يسبق أن شعر بمثل هذا التوتر وكان واثقاً من أنه لن يحس بمثله في أي تجربة أخرى بقية عمره.

ظهر عاطف فجأة أمام حجرته مبكراً جداً عند الساعة السابعة في الصباح ليقوده إلى وزارة الداخلية. فهو جاء بهذه السرعة ليس لأنه كان متحمساً ليأخذه إلى هناك، بل لأنه كان يريد أن يتخلص منه سريعاً كي يركز تماماً على زبون آخر أهم منه بكثير، رجل غني من سوريا اشترى مزرعة كبيرة في صور قبل بضع أيام.

تغيّر عاطف كثيراً في ذلك اليوم وكان شكله أشبه بموظف حكومي ذي رتبة عالية. فقد كان يرتدي بذلة جميلة سوداء اللون، وحتى سيارته بدت جديدة بعد تنظيفها وتبدلت رائحة السمك التي كان إسحاق يشمها في المرتين السابقتين التي ركب بهما السيارة برائحة العطور. ولدى وصولهما إلى الوزارة، خرج عاطف معه ثم أشار إلى مبنى أمامهما قبل أن يقول:

«هذه هي وزارة الداخلية، والشيء الذي تبحث عنه يوجد داخل هذا المبنى وعليك أن تكرر هذه الجملة لنفسك عدة مرات كي ترتفع روحك المعنوية مما سيمكنك من تحقيق هدفك».

نظر إسحاق إلى المبنى وشعر بالمزيد من الخوف لأنه مبنى كبير وكان متأكداً من وجود الكثير من الملفات في داخله. صافح يد عاطف وشكره ثم حاول أن يدفع ولكن عاطف رفض قائلاً:

«عندي موعد مع رجل مهم وهو في مكان قريب إلى هنا كثيراً وكنت سآتي إلى هنا على كل حال، لذا لن آخذ منك شيئاً».

توقّف قليلاً ثم قاد إسحاق إلى مكان آخر بعيداً قليلاً من الوزارة وأضاف:

«عندما تريد العودة إلى الفندق، ستجد الكثير من سيارات الأجرة هناك التي تتواجد حتى الساعة التاسعة ليلاً».

شكره إسحاق من جديد وأسرع عاطف إلى سيارته كي لا يتأخر عن موعده.

كانت الساعة السابعة والنصف عندئذ ولا تفتح أبواب الوزارة إلا بعد ساعة ونصف. وجد إسحاق أمامه ثلاثة خيارات، أولاً، هو أن يبقى واقفاً أمام السفارة. ثانياً، كان بإمكانه أن يمشي حول المساحة الواسعة بجانب الوزارة حيث توجد وزارات مختلفة، وأخيراً يمكنه الذهاب إلى أقرب مطعم لأنه كان يتضور جوعاً. اختار الخيار الأول وظل واقفاً كأنه كان يخاف أن يترك المكان ليرجع ويكتشف بأنه قد اختفى. اتخذ ذلك القرار بالصدفة ولكنه سيفيده جداً.

بعد حوالى ثماني دقائق ظهر شاب يرتدي جينزاً وقميصاً أزرق اللون. وقف بجانب إسحاق وأخذ يراقبه بحدة ثم اقترب إليه وقال:

«يبدو كأنك في حاجة إلى المساعدة. هل أستطيع أن أخدمك؟».

كيف سيساعده هذا الرجل الذي يبدو كمراهق؟ رمقه إسحاق بارتباك وبالنظر إلى ملابس الرجل أمامه، استبعد كونه موظفاً هناك.

«أنا جئت للحصول على بعض المعلومات من وزارة الداخلية».

«حسناً! أستطيع أن أساعدك إذا لم يكن لديك مانع». تنبّه إلى الحيرة التي انتشرت حول وجه إسحاق وقال:

«سأشرح لك كيف يمكنني مساعدتك. يعدّ عمي من بين الموظفين الكبار في هذه الوزارة ولكنه رجل بخيل للغاية، وبدلاً من أن يعطيني مالاً، عرّفني على زملائه وأمرهم أن يساعدوني عندما آتي بأناس مثلك». ابتسم كأنه مهرّج ثم قال:

«باختصار يا سيدي، سأحقّق لك ما تريد خلال بضع ساعات فقط أي شيء قد يتطلب أسبوعاً من المراجعات والجهود. السؤال الجوهري الذي يجب عليّ أن أطرحه عليك الآن هو هل لديك المبلغ الذي سأطلبه منك مقابل خدمتي؟».

تنهّد إسحاق فيما اجتاحه قلق لأن الشاب بدا طمَّاعا جداً.

«كم ستكلّف خدمتك؟ أرجو أن لا يكلّف شيئاً يفوق قدرتي لأني مفلس بعض الشيء». ضحك الشاب وقال:

«كيف لي أن أخبرك ذلك دون أن أعرف ما تحتاج إليه أولاً؟».

تردد إسحاق قليلاً ثم أبلغه التفاصيل وأخبره أيضاً بأن سارة هاجرت إلى الولايات المتحدة برفقة ابنتها الوحيدة. ولكنه أخذ يندم بأنه أخبره كل ذلك بعد أن خرجت الكلمات من فمه لأنه خاف من أن يفكر الشاب بأن الأمر معقّد جداً. ظل الشاب صامتاً لبرهة ثم ترك إسحاق لحوالى عشر دقائق ولما رجع قال:

«لم يسبق لي أن رأيت مهمة صعبة مثل قضيتك هذه. ولكن لحسن حظك، وجدت ثلاثة موظفين قادرين على معالجة الأمر قبل مرور ثلاث ساعات حسب أقوالهم. وستكلّفك القضية مبلغاً ضخماً ولكني أخرجت نفسي من قائمة المستفيدين وهذا ما أنقذك».

حدّق فجأة إلى الأرض كي يتجنب النظر إلى عيون إسحاق ثم ذكر المبلغ وردّ إسحاق عليه صارخاً:

«هل تعرف ما تقوله؟ لو أعطيتك ذلك المبلغ، لن يتبقّى معي مال حتى لشراء الأكل وتذكرة للعودة إلى بيروت. أرجوك لا تعاملني هكذا».

سكت الشاب بينما أخذ يتأمل ثياب إسحاق ثم ركز عينيه على حذائه، واستنتج بأنه لم يكن لديه

المال فعلاً كما كان يدّعي. استسلم وخفض السعر لنصف المبلغ السابق واتفقا على ذلك ثم طلب نصفه مقدماً ووعد إسحاق بأنه سيعود إلى المكان نفسه، عند الساعة الثانية عشرة، بعد أربع ساعات تقريباً.

أعطاه إسحاق المال متردداً جداً خصوصاً لأن الشاب لم يرد أن يخبره اسمه، وعندما أخبره أن لا يحاول أن يبحث أو يسأل عنه في الوزارة وهدده بأنه سيتخلى عن الأمر في حال حدوث ذلك. وعند الساعة الثانية عشرة، لم يكن هناك أي أثر للشاب وحتى بعد ساعة إضافية، لم يظهر بعد مما جعل إسحاق يغلي من الغضب. وعندما مرّت ساعة أخرى، انفجر تماماً وكان في الطريق إلى الوزارة عندما سمع صوتاً من ورائه:

«إلى أين تذهب؟».

استدار وعند رؤية الشاب نفسه، حاول أن يخفي غضبه بابتسامة مغتصبة:

«كنت جائعاً وليس معي المال لشراء الطعام، وقررت أتمشى كي أنسى الجوع».

لم يصدّقه الشاب لأنه كان واثقاً من أنه كان في الطريق إلى الوزارة للبحث عنه.

«أنت إنسان غريب. على العموم، لم تكن للمعلومات التي قدمتها إليّ أي فائدة لأن هناك أكثر من مائة رجل باسم أنطوان ماتوا ودفنوا في صور في السنة نفسها التي ذكرت».

ظهرت ملامح الحزن على وجه إسحاق كرجل تم إصدار حكم الإعدام عليه للتوّ. وفجأة أضاف الشاب:

«ولكن المعلومة التي تخص هجرة سارة إلى الولايات المتحدة هي التي أخرجتنا من المأزق، فهناك ملف للبنانيين هاجروا إلى الخارج ثم تم نقل جثامينهم للدفن هنا، وهذا ما حصل بشأن سارة، فهي ماتت في الولايات المتحدة قبل عدة أشهر وعادت بها ابنتها ودفنتها في صور قبل حوالى شهرين. فهذه الورقة تشمل بيانات قريبة سارة التي قامت بكل الإجراءات في الوزارة واسمها نبيهة».

أخذ إسحاق الورقة منه وسط الدموع. وكان يرتعش فيما أحس بقشعريرة تسري في جسده، فخبر وفاة سارة أحزنه بشكل عنيف لدرجة لم يسبق أن شاهد الشاب رجلاً مصدوماً مثله، وعندما أخرج إسحاق بقية المبلغ كي يعطيه رفض أن يأخذ المال منه وصافح يده قبل أن يتركه.

عندما استعاد إسحاق بعضاً من القوة، لم يتوجه إلى المكان الذي أشار عاطف إليه بحيث توجد به سيارات الأجرة، بل خرج من بوابة الوزارة مسرعاً فقد كان يمشي كطفل ضائع لا يعرف إلى أين يذهب أو من أين يأتي.

الصدمة كانت بادية على وجهه في تلك الحالة، فحبه العميق لماري جعله من السهل أن يشعر ويشارك ماري المرارة التي ذاقتها بسبب فقدان والدتها. هو يحب ماري جداً لدرجة كان يشك بأنه يوجد رجل يحب امرأة كحبه لها.

فلو لم يكن يحبها هكذا، كيف تمكنت من البقاء في داخله بعد غياب دام خمس عشرة سنة تقريباً؟ أحياناً كان يحس بوجودها وكأنها عاشت في داخله منذ خمس عشرة ألف سنة أو حتى خمس عشرة مليون سنة. وعندما كان الأمر يخصها ليس للمال والأرقام أي أهمية، فهي لا تخضع لأي مقياس أو ميزان لأن حبها في نظره لا ولن يقاس أبداً. وسبق أن أبلغ أخاه بأن هذه الحقيقة تعدّ من أهم الأسباب وراء عدم تمكنه من إخراجها من قلبه.

وفجأة أخرج الورقة التي استلمها من الرجل في الوزارة ونظر إليها ليقرأ الكلمات التالية:

نبيهة متري

معلمة في مدرسة القيم والمبادئ

24 شارع عبد الغني في أسوت، صور.

نظر إلى ساعته وعندما لاحظ بأنها كانت الساعة الرابعة بعد الظهر فقط، استقل سيارة أجرة للذهاب إلى مدرسة نبيهة. ولولا وقوع حادث تسبّب في الزحمة، لكان وصل هناك خلال خمس دقائق، ولكنه اضطر إلى أن يقضي نصف ساعة قبل أن يجد نفسه أمام المدرسة.

مشى نحو المدخل وهو يجرّ رجليه ولكنه إبتسم فجأة ابتسامة خفيفة لأنه خطر في باله احتمال بأن ماري قد تكون في صور لغاية الآن. سلّم على الحارس وسأل عن نبيهة على الفور. قاده الحارس إلى غرفة الانتظار دون أن يسأل عن اسمه. اختفى ورجع بعد ثلاث دقائق ليخبره بأن نبيهة آتية.

كان الانتظار أطول بكثير مما توقّعه ولكنه لم يشتك حتى لنفسه، فلقد صبر لخمس عشرة سنة وكان يستطيع أن يصبر أكثر لو تطلّب الأمر ذلك. وفجأة ظهرت نبيهة ولكنه لم يعرف بأن المرأة التي أمامه كانت هي. وتفاجأ عندما توجهت ناحيته وقالت:

«هل أنت من يبحث عني؟ أنا نبيهة».

لم يعرف ما ينبغي أن يقوله في تلك اللحظة وظل ينظر إليها، وفجأة أخذت الدموع تنهمر من عينيه. وعندما تنبهت إلى ذلك ولاحظت على وجهه علامات الصلاة الظاهرة على جباه بعض المسلمين، عرفت من هو دون أن تسأله عن اسمه وظلت تحدّق إليه.

بعد أن تبادلا النظرات لحوالى دقيقة، طلبت نبيهة من إسحاق الجلوس وساد صمت مخيف من جديد. ولحسن حظهما، لم يدخل أحد إلى غرفة الانتظار لمشاهدة ذلك المشهد الغريب. قد يظنون بأن لديهما علاقة عاطفية. وبعد مرور بعض الوقت، تفوّه إسحاق بكلمته الأولى:

«لا أعرف إذا كنت تعرفين مَن أكون أم لا، ولكن في حال عدم التأكد بهويتي، أنا إسحاق كشوغي». ردّت عليه نبيهة بسرعة قائلة:

«أنا أعرف مَن أنت». سكت مندهشاً ثم أضاف:

«أولاً أريد أن أقدّم لك تعازيّ بخصوص وفاة السيدة سارة إلياس. لقد سمعت هذا الخبر من موظف في وزارة الداخلية، وهو الشخص نفسه الذي أعطاني عنوان ومكان عملك».

بدأت نبيهة تنظر إلى الأرض بصمت مما جعله يتساءل عما إذا كانت تستمع إليه:

«هل أنت على علم بما حدث بيني وبين ماري قبل سفرها إلى الولايات المتحدة؟».

«لم أعرف لدى سفرها ولكن قبل حوالى تسع سنوات، اتصلت ماري بي من الولايات المتحدة وسردت لي القصة بنفسها».

أخذ إسحاق منديلاً من جيبه ونظر إلى السقف محاولاً أن لا ينظر إليها كي لا ترى دموعه التي كانت تخرج من عينيه ثم قال:

«أنا رجل ميت يا سيدة نبيهة؛ فمن ترينه بجانبك ليس سوى وهم وخيال. لديّ هدف واحد فقط في الحياة بعد عبادة ربي وهو أن أجد ماري لتسامحني، فإن كانت لا تزال موجودة في لبنان، خذيني إليها من فضلك».

توقّف لبرهة محاولاً أن يسيطر على مشاعره ولكنها قاطعته قبل أن يستطرد:

«لو جئت قبل شهر، لقابلتها هنا. ولكنها رجعت الآن إلى الولايات المتحدة. وما الذي يجعلك واثقاً من قدرتك على الحصول على ما تبتغيه؟ أنا أنصحك بأن لا تفتح الجروح القديمة والتي ربما بدأت تندمج وتلتئم».

اقتحمته موجة رعب من كلامها وتمنّى أن لا تعارض أمنيته في الوصول إلى ماري.

«أوافقك الرأي في قولك هذا، فمثل هذه الأزمات تحتاج إلى التجاهل حتى يختفي الألم الذي يرافقها وهذا أحسن خيار، أعرف والله، ولكن قلبي للأسف قد رفض هذا الخيار. والآن لا أرجو سوى أن يمكنني الله من رؤيتها مجدداً كي أثبت لها مدى معزّتي لها من خلال الصداقة والأخوة. بصراحة أريد أن أصلح حياتها لأنني أحس بأنها تحتاج إلى وجودي».

كلما قال كلمة إضافية، تصبح نبيهة أكثر اقتناعاً بما يقوله. وعندما استخدم كلمة «إصلاح»، كانت بمثابة الشيفرة التي فتحت قلبها إليه وجعلتها تؤمن به كشخص صادق. فهي لطالما أحست بأن حياة ماري تحتاج إلى الإصلاح، ولكن هل سيصلح هذا الرجل حياتها؟ طرحت عليه سؤالاً:

«ماذا تريد منها بالضبط؟».

«هذا يتوقف عليها يا نبيهة، أمنيتي هي أن أتزوج بها ولكني لن أقول لها ذلك لأني أستبعد موافقتها ولذا سوف أقتنع بالصداقة وسأقف بجانبها طوال حياتي. لا أريد سوى فرصة جيدة للمساهمة في حياتها بشكل إيجابي».

بعد أن قال ذلك، ابتسمت ثم طرحت عليه سؤالاً آخر أسعده:

«هل تريد أن ترى صورتها؟».

«نعم، طبعاً، سيكون شرف كبير لي».

أخرجت الصورة من حقيبتها وقدمتها إليه. ركّز عينيه عليها كأنها الشيء الوحيد الموجود في العالم كله، وتأملها كشخص ينظر إلى الجنة من الخارج ثم لمسها كطفل يمسك بيد والدته بعد غيابها الطويل ثم ابتسم ابتسامة عريضة كابتسامة امرأة تستمع إلى طلب الزواج من رجل انتظرت أن تسمعه منه منذ مدة طويلة. كل هذه اللفتات أقنعت نبيهة بأنه يستحق البيانات التي جاء ليحصل عليها.

«اسمع يا أستاذ إسحاق، ليس عندي أي مانع أن أعطيك عنوانها ولكن هناك شرطين». نظر إليها في دهشة وفرح وقال:

«حتى لو يوجد مليون شرط، ليس عندي مانع».

«أولاً لن تخبرها بأنني من أعطتك إياه، وثانياً إذا قالت لك بأنها لا تريد أن تراك، يجب أن ترحل وتتركها بسلام».

«هل توجد شروط أكثر؟ فما قلتيه سهل التنفيذ وأقسم بالله بأنني سألتزم بكل شروطك».

ظهرت ابتسامة خفيفة على وجهها ثم أخذت الصورة منه وأرجعتها إلى الحقيبة قبل أن تتركه لبعض الوقت. فهي أرادت أن تكون لوحدها لتفكر أكثر بما كانت على وشك فعله. ذهبت إلى مكتبها في المدرسة ولم ترجع إليه إلا بعد نصف ساعة بورقة صغيرة أعطتها إياها قبل أن تقول:

«هذه المعلومات التي طلبتها مني، أعطيتك عنوان عملها فقط بلا أرقام تلفونية. لا تنسى وعدك».

وبالنظر إليها، كان من الواضح بأنها بكت بعد رحيلها. وضع إسحاق الورقة في جيبه دون أن ينظر إلى ما كتب عليها ثم قال:

«أنا أعرف بأن لديك شكوك حول هذا الأمر وليس هناك شيء أستطيع قوله ليبعد هذه الشكوك عن ذهنك ولكني أؤكد لك بأن أفعالي ستجعلك تعرفين في المستقبل القريب بأن شكوكك هذه لم تكن في محلها أبداً».

فرحت عندما سمعت تعليقه المفرح وصدّقته مما أعطاه الجرأة عندما طلب أمراً آخر:

«هل يمكنك أن تعطيني عنوان المكان الذي تم دفن والديها فيه؟». فكّرت لبرهة ثم قالت:

«حتى لو أعطيتك العنوان، لن يتم السماح لك بالدخول لأنك غريب وتم دفنهما في مدافن عائلة أنطوان المحافظة جداً، ولكن لو صبرت قليلاً، أستطيع أن آخذك بنفسي بعد حوالى عشرين دقيقة».

قرّر أن ينتظرها وشكرها لكل شيء. كان المدفن قريباً للغاية من مدرستها ووصلا هناك في أقل من سبع دقائق. وقادته نبيهة إلى مكان دفنهما. ودّعته عندئذ وصافحت يده مجدداً قبل أن تنصرف.

وبعد أن غادرت، جلس إسحاق على الأرض بجانب قبرهما وأخذ يستغفر الله مرات كثيرة. كان يبكي فيما دعا لله أن يحقق أمنيته بخصوص زواجه بماري. لم يترك المكان إلا بعد مرور ساعة وكان سعيداً بأنه لم يرَ أحداً لدى مغادرته لأنه كان لا يزال يبكي ولم يرد أن يثير أي شكوك عن السبب وراء حالته التعيسة.

في طريقه إلى بيروت صباح اليوم التالي، وبالرغم من عدم نومه كان سعيداً جداً لأن مقابلته مع نبيهة كانت في نظره أفضل حدث حصل له منذ سفره إلى سوريا برفقة ماري، فقد أمضى الليل وهو يفكر ويعيد التفكير حول الحوار الذي دار بينهما. والشيء الذي شجّعه أكثر من أي شيء آخر كان استلامه منها عنوان ماري في الولايات المتحدة، فهذا الحدث أكد له بأن ماري لم تكرهه لأنها لو كانت تبغضه لما تجرأت نبيهة أن تعطيه عنوانها، فتفاؤله المتزايد بشأن هذا الأمر جعله يحس أيضاً بأنه كان هناك احتمال وارد بأن ماري لا تزال تحبه «ربما لا تزال لديها مشاعر تجاهي مما يبرر اتصالها بنبيهة من الولايات المتحدة قبل عدة سنوات لتخبرها عن قصتنا».

ولكن سرعان ما اقتحمه التشاؤم وبدأ يشك في ذلك قائلاً لنفسه: «إذا كان الأمر كذلك، لماذا جاءت إلى لبنان ثم عادت إلى الولايات المتحدة دون أن تبحث عني؟». ثم بحث عن عذر لها وقال لنفسه بأنها ربما حاولت أن تلتقي به ثم وجدت نفسها أمام مأزق لأنها لم تعرف أي أحد يعرفه. ولكنه استبعد ذلك الاحتمال أيضاً على الفور لأنه يعتبر نبيهة إنسانة صادقة وصريحة ولو حدث ذلك، لأخبرته لدى مقابلتهما.

وفي أثناء الرحلة نفسها، اختار الأسبوع القادم كوقت مناسب للسفر إلى الولايات المتحدة. وقرر أن يغادر من خلال مصر لأنه تذكّر بأن ذلك ما قامت ماري به، فهو غير قادر على النسيان كيف سقط عن السلالم عندما أخبرته جارتها بأنها رحلت إلى مصر وستسافر إلى الولايات المتحدة من هناك.

وبالنسبة إلى تكاليف السفر، لم يكن قلقاً بخصوصها لأن والده سبق أن وعده بتمويل رحلته وحتى إذا لم يعد متحمساً للفكرة كما كان عندئذ، كان إسحاق متأكداً بأنه لن يغيّر قراره، فهو ليس من الذين ينكثون بوعودهم.

ملَّ من التفكير ولجأ إلى الدعاء بصمت حتى وصل إلى بيروت. وعندما خرج من الحافلة، نظر حوله مندهشاً لأن بيروت بدت مختلفة للغاية، ولكن المدينة لم تكن مختلفة، بل هو الذي كان مختلفاً، غيّره التفاؤل الجديد الذي جاء به من صور، وازدادت قوته لدرجة كان يشعر بأن لديه القدرة الكافية ليمشي من المحطة إلى منزله.

وصل إلى البيت حوالى الساعة الواحدة بعد الظهر وكانت والدته أول مَن رأته كالعادة، صرخت ثم أسرعت إليه لتحتضنه. أقلقت صرخاتها زوجها وابنها اللذان كانا يظنان بأنه كانت هناك مشكلة ما عندما سمعاها من فوق، ركضا إليها ثم ارتاحا لدى رؤيتها في حضن إسحاق. اقتربا إليه ثم حضناه أيضاً قبل أن يجلسوا جميعاً فيما أخبرهم عن كل ما حصل في صور. كان يتكلم بفرح، وانتقلت هذه البهجة إليهم جميعاً وجعلتهم متفائلين مثله.

انتهز إسحاق الفرصة لوجود ذلك الجو الاحتفالي ليعلن عن عزمه الذهاب إلى الولايات المتحدة قبل مرور أسبوع وتفاجأ عندما لم يواجه أي اعتراض من أحد. كانوا سعداء جميعاً وكان ذلك واضحاً عندما صافح أخوه يده وناداه الساحر العظيم، وحتى والدته كانت تربّت على كتفه باستمرار.

وما لم يعرفه إسحاق عندئذ هو أنهم اجتمعوا في غيابه وقرروا عدم الاستمرار في معارضته حول الموضوع منذ تلك اللحظة وصاعداً، فأمر مثل الحب خارج عن سيطرة الفرد ولا يجوز أن يلوموه لاختيار قلبه. وبعد مرور نصف ساعة، أخبره والده أن يضع حقيبة سفره في غرفته وأن يرجع بعد بضع دقائق كي يتناولوا الغداء مع بعض ثم يخرجان سوية، فلديهما أمر ملحّ ليقوما به. نهض إسحاق وفعل كما قيل له:

الغداء كان لذيذاً جداً ولكن لم يكن الطعام فقط ما جعله حدثاً جميلاً، بل الجو المحيط به لعب دوراً

مهماً في ذلك. وبعد أن أنهى طعامه، خرج ووالده، وفي السيارة ساد الصمت لمدة قصيرة ثم بدأ جمال الحوار:

«أنا متأكد بأنك تتساءل عن المكان الذي سنذهب إليه».

«لا يا بابا لأني مطمئن ما دمت من يقودنا إليه».

«شكراً للثقة. سبق أن وعدتك بأنني سوف أموّل سفرك ولكني بسبب استعجالك، أصبحت عاجزاً عن فعل ذلك الآن». توقف قليلاً ثم استطرد:

«قررت أن آخذك إلى عزيز، قريب لي من بعيد والذي يتاجر في عملة صعبة، أنت تعرفه جيداً. هو الذي يستطيع أن يعطيك قرضاً لسفرك ولكنه يتعين عليك أن تخبره بأنك ستدفع الدين قبل مرور أسبوعين من خلال وظيفتك الجديدة في الولايات المتحدة». شعر إسحاق بقشعريرة حول جسده ثم قال:

«ولكني لا أظن بأنني سأستطيع أن أفي بذلك الوعد، كيف سأتمكن من دفعه في هذه المدة القصيرة؟ ولا توجد أي وظيفة أصلاً».

«لا تقلق يا ابني، سوف أقوم بالواجب وأدفعه أنا. أتوقع قريباً أن أقبض مبلغاً محترماً من البنك الدولي خلال عشرة أيام لقاء خدماتي».

أحس إسحاق بالذنب لأنه كان على وشك وضع والده في ذلك الموقف، فالكل في العائلة يعرفون مدى رغبته في أن لا يطلب شيئاً من أحد ولكن لم يمنعه ذلك من المضي قدماً بخطته. وعد نفسه بأنه سيعوّض والده لوقفته معه وأراد أن يشكره، ولكن قبل أن يفعل ذلك، بادره والده قائلاً:

«لا أستطيع أن أصدّق بأنني نسيت أن أخبرك أن تأتي بجواز سفرك كي يرى عمك تأشيرتك، فأنت تعرف كم يشك في الناس». ضحك إسحاق ثم قال:

«منذ اليوم الذي هددني فيه محمود أن يمزّق جواز سفري، صرت أحمله إلى كل مكان كأنه جزء من جسدي، لا تقلق لأنه في جيبي حالياً».

ضحكا ثم شكر والده لكل شيء وساد الصمت مجدداً حتى وصلا إلى منزل عزيز. ولكن كان لدى إسحاق سؤال آخر قبل خروجهما من السيارة:

«لماذا تريد أن تفهم عمي بأنني من سيدفع هذا الدين؟». تنهّد والده ثم قال:

«لم أخبر أحداً عن وظيفتي الجديدة سواكم في البيت لأني أريد أن أخدمكم بالكامل ولن أستطيع أن أفعل لكم شيئاً إذا أخبرت بقية العائلة عنها، فسوف يأخذون مني كل ما أكسبه لدرجة لن تمكنني حتى من تمويل سفرك هذا».

هزّ إسحاق رأسه علامة القبول. استقبلهما عزيز ثم حضن إسحاق وأدخلهما بيته، وطلب من زوجته أن تأتي بالشاي. كان سعيداً بزيارتهما وتحدثوا لبعض الوقت قبل أن يدخل جمال في الموضوع:

«لقد حصل ابني على وظيفة في الولايات المتحدة بمساعدة أخي الذي يعيش هناك، وعليه أن يغادر في الأسبوع القادم. ولذا جئت به إليك كي أطلب منك ديناً بألفي دولار وأنا هنا كضمان له بأنه سوف يرد هذا المبلغ قبل مرور أسبوعين». ثم ألقى نظرة إلى إسحاق وقال:

«أخرج جواز سفرك كي يرى عمك تأشيرتك».

وقف إسحاق على الفور كي يخرج جواز السفر من جيبه بينما كان عمه يكرر له بأنه لا داع لأن

يفعل ذلك ولكن جمال يعرفه جيداً، فإن عزيز رجل يشك في كل شيء، ولذا كان جمال مصرًّا على أن يريه إسحاق التأشيرة. أخرج إسحاق جواز السفر أخيراً وقدّمه إليه. ولما شاهد عزيز التأشيرة الأميركية، فتح فمه من الدهشة ثم قال:

«لن أسألك كيف حصلت على هذه التأشيرة لأني أعرف الإجابة، لأنك حصلت عليها من خلال السحر، ولا تحاول أن تنكر ذلك». ضحكوا جميعاً ثم أضاف:

«إذا كانت ألفا دولار هي العقبة الوحيدة في طريق ساحر عظيم مثلك، سأزيل هذه العقبة اللعينة وأرميها بعيداً عن طريقك. ولكن عندي شرط، لا ترد المبلغ بعد أسبوعين، رده بعد عشرة أيام بالضبط». ابتسم جمال وقال:

«أنت تتكلم عن السحر، انظر إلى نفسك وسوف تعرف بأنك ساحر أيضاً. لقد كان يريد أن يرده بعد عشرة أيام ولكني من أخبره أن يقول أسبوعين، كيف عرفت ذلك يا عزيز إذا لم تكن ساحراً مثله؟». ابتسم عزيز أيضاً وأجابه قائلاً:

«أي سحر تتكلم عنه وما فائدة سحري إذا لم أستطع أن أحصل حتى على تأشيرة من سفارة سرلنكا؟».

انفجروا جميعاً ضاحكين بينما قام عزيز بجلب المال، قدّم مظروفاً بالنقود إلى إسحاق مباشرة ثم قال:

«هذا المبلغ الذي طلبته».

شكراه وكانا على وشك المغادرة ولكن زوجته منعتهما من الرحيل وأجبرتهما على أن يتغديا للمرة الثانية في ذلك النهار، ولم يتركا بيت عزيز إلا بعد ساعة، ومن هناك ذهبا إلى وكالة السفر حيث اشترى إسحاق تذكرة من مصر إلى الولايات المتحدة على طيران مصر والتي تغادر في 26 من يناير، بعد أسبوع من اليوم.

كان إسحاق محظوظاً بتوقيت سفره لأنه استطاع أن يشترى التذكرة بثمانمائة دولار، والتذكرة المماثلة في موسم آخر كانت ستكلفه حوالى ألف وثلاثمائة دولار.

عندما خرجا من الوكالة، كان أسعد رجل في العالم لأن كل شيء كان يسير على ما يرام. وقبل ركوبهما السيارة، احتضن اسحاق والده لمدة طويلة.

60

إسحاق 26 يناير 1990

لقد جاء اليوم الذي انتظره إسحاق منذ مدة فاقت الخمسة آلاف يوم أو مائة وثلاثين ألف ساعة. كان على وشك القيام بالرحلة التي ستمكّنه من مقابلة ماري في أقل من ثلاثين ساعة، فهي المرأة التي أصبحت بنظره أهم من الكون بأكمله.

ودّع عائلته من جديد وكاد أن يتأخر على رحلته لأن والدته ظلّت تدعو له بدون توقف، ولولا تدخّل والده، لما تمكّن من تركها على الإطلاق. أخذه والده إلى المحطة ووصلا هناك بسرعة قياسية لعدم وجود أي ازدحام في الطريق. قبّل يد والده وشكره على كل ما قدّمه له. دخل المحطة مسرعاً ووجد نفسه في أول الصف عند شباك تذاكر الرحلات لمصر.

اشترى تذكرته وركض إلى الحافلة التي غادرت في الساعة السابعة والنصف بالضبط. تمنى أن يصل إلى مصر قبل الساعة الرابعة بعد الظهر كي يصل إلى المطار قبل الساعة السادسة مساءً لأن طائرته إلى الولايات المتحدة ستغادر عند الساعة العاشرة ليلاً. سار برنامجه على ما يرام، وصل الى مصر عند الساعة الثانية بعد الظهر، ساعتين قبل الوقت المتوقّع وحصل على سيارة أجرة بسرعة، ولكن كان عليه أن يقاوم جهود السائق في إقناعه لأخذه بجولة حول القاهرة، فلقد أخبره إسحاق بأن طائرته ستقلع عند الساعة العاشرة ليلاً.

«يا باشا، لا يصح أن تذهب إلى المطار الآن فالوقت مبكر جداً ولديك متسع من الوقت كي تتفسح في القاهره» أجابه إسحاق قائلاً:

«معك حق ولكني لا أملك مالاً كافياً للأسف. ولكن سأزور مصر مجدداً وسأمر على كل معالمها المهمة حينئذ».

أومأ السائق برأسه يوافقه فيما قال. ولكن عندما بدأت الرحلة ووجدا نفسيهما في زحمة كبيرة بسبب حادث كبير، كان من الواضح حتى للسائق بأن إسحاق كان مصيباً في قراره أن يذهب إلى المطار مبكراً. فقد عطلتهما الزحمة جداً لدرجة وصل إسحاق إلى المطار متأخراً عند الساعة التاسعة ليلاً، ساعة قبل مغادرة الطائرة. ولحسن حظه، قابل موظفي الطائرة الذين كانوا على وشك منع الركاب الجدد من الدخول، وكان آخر من تمّ السماح له بالانضمام إلى بقية المسافرين في الطائرة قبل أن تتحرك الطائرة وتغلق أبوابها.

كان متوتراً جداً عندما اقترب من الطائرة لأنه لم يسبق له أن استقلّ طائرة طوال عمره. وما جعل حالته أكثر اضطراباً كان كونه بجانب امرأة تحمل طفلاً وكان يبكي بشكل متواصل. واستغرقت رحلته عشر ساعات.

á á á

منذ عودتها من لبنان، كانت ماري منشغلة للغاية. فمنظمتها غيّرت مقرها من بروكلين إلى نيويورك وقررت أيضاً أن تماثلهم وتنتقل للعيش في مانهاتن. وجدت شقة قريبة من المكتب واستنفدت نقل الأغراض كامل طاقتها. وبحلول الثاني من يناير، استقرت في دارها الجديد. في أثناء ذلك كانت مصرة أكثر على المضي قدماً بخطتها للزواج من شوك مما جعلها تفعل أشياء لم تكن لتفعلها من قبل. فمثلاً من ذلك كان ما حصل في أول يوم سبت بعد انتقالها. أخبرها شوك بأنه يرغب في أن يزورها في شقتها الجديدة. قبلت واتفقت معه على أن يزورها في المساء.

فتحت له الباب وهي مبتسمة ومبتهجة جداً مما أدهشه وجعله يعتقد بأنه قد يكون أخطأ في

عنوان الشقة لأن شقتها كانت مظلمة جداً. ولكنه تأكد من أن ماري كانت من تقف أمامه عندما سمع صوتها حين قالت له تفضّل. توجه مرتجفاً إلى أقرب كرسي ثم جلست بجواره.

أخذا يتكلمان عن خطتهما للزواج وعندما كانت تشرح له شروطها ومطالبها، قبّلها لأول مرة على رأسها احتراماً لما كانت تقوله.

ثم قال:

«دعينا نتزوج في الرابع عشر من فبراير، في عيد الحب. لا يفصلنا عنه سوى بضعة أيام بعد اليوم ما رأيك؟». اقتربت منه وقبّلته مجدداً قبل أن تقول:

«أنا موافقة ولكن هناك أمراً مهماً يجب أن لا تنساه كما قلت، يجب أن يكون زواجنا بسيطاً لأن وضعي المالي ليس بأفضل أحواله ولا أريدك أن تتحمل كافة التكاليف». ابتسم وقال:

«تحت أمرك فكل شيء سيكون كما تريدينه بالضبط».

ثم نهض وودّعها لأنه لم يظن بأنه كان يفترض أن يبقى عندها لوقت أكثر من ذلك كي يبيّن لها حسن أخلاقه وأدبه.

á á á

هبطت طائرة إسحاق في مطار JFK عند الساعة السابعة والنصف في صباح اليوم التالي ولم تكن لديه أية مشاكل مع المسؤولين في الجوازات. خرج ووجد سيارة أجرة بسهولة ثم أعطى السائق ورقة عنوان منظمة ماري. كانت أصابع إسحاق تتحرك بنفسها نتيجة الخوف الذي كان يراوده طوال تلك المسافة، ولذلك بدت الرحلة إلى مكتبها كساعات حتى لو لم تستغرق أكثر من ساعة. وعندما اقتربا، نصحه السائق أن يجد حجرة في أي فندق ليضع حقيبته فيها بدلاً من أن يذهب إلى المنظمة وهو يحمل في يده حقيبة السفر. فكّر إسحاق لبرهة بما قال وقبل نصيحته. هكذا ذهب إلى فندق قريب للغاية من مكتبها.

ولدى وصوله إلى الفندق، دفع لليلة واحدة لأن الحجرات كانت غالية جداً ثم أسرع إلى غرفته وأخذ حماماً سريعاً ولبس أفضل ما عنده ثم توجّه إلى مكتبها، وكان من السهل العثور عليها لأن عامل الاستقبال في الفندق أشار إلى مكانه من الفندق.

وعندما مرّ عبر باب المنظمة، اندهش لأنها كانت فارغة والساعة كانت التاسعة عندئذ وتوقّع أن يرى موظفين حول المكان. شاهد امرأة جالسة أمامه قرب المدخل وسألها عن ماري، أخبرته بأنها ستكون موجودة بعد نصف ساعة تقريباً. واستناداً إلى كلامها، اختار كرسياً بجانب المدخل كي يراها في حال حضورها. لم يقرأ أي من المجلات التي كانت موجودة أمامه مما جعل الانتظار طويلاً للغاية. وفي الوقت نفسه، كان قلبه يخفق بشدة كأنه كان يركض في سباق.

وبعد ساعة تقريباً، دخل رجل وامرأة يمسكان بيد بعضهما، نظر إليهما إسحاق بإعجاب لأن منظرهما بدا جميلاً. فكان الرجل يرتدي بذلة خضراء اللون بينما كانت المرأة تلبس قميصاً أسود اللون مع سروال جينز أزرق. وعندما اقتربا إليه، نهض ليسلم عليهما وساعتها فتحت المرأة فمها في دهشة كأنها تتأمل شبحاً بينما قال له الرجل الذي بجانبها:

«كيف حالك وكيف أستطيع أن أخدمك؟».

لم يكن إسحاق يسمعه لأن كل حواسه كانت تتركّز على المرأة التي بجواره. حدّق شوك عندئذ إلى ماري وتفاجأ عندما رأى نظراتها الغريبة إلى إسحاق، فكانت نظراتها تتسم بالحب والإعجاب والحنان. لم يسبق له أن رمقها هكذا بالرغم من جهوده المكثفة طوال كل هذه السنوات لكسب قلبها

مما أفقده السيطرة على أعصابه. ألقى نظرة حادة على إسحاق وغيّر سؤاله ليجعله بأسلوب أكثر عدوانية.

«ماذا تريد من هذه المنظمة أيها الغريب؟». ما قاله لفت نظر إسحاق إليه أخيراً وردّ قائلاً:

«أعتذر يا سيدي لأنني لم أجبك من قبل، ولكن كل ما في الأمر هو أنني لم أرَ ماري منذ حوالى خمس عشرة سنة وأنا سعيد للغاية لأنني أراها أخيراً». ثم ركّز عينيه على ماري من جديد وقال:

«أنا أود أن أقدم تعازيّ الخاصة إليك بوفاة والدتك وأتمنّى أن يقويك الرب لتتحملي هذا الفقدان العظيم». توقّف قليلاً ثم سألها:

«كيف تسير الأمور حالياً وهل بإمكاني مساعدتك بأية طريقة؟». ظلت تراقبه دون أن تردّ عليه مما أقلقه وجعله يقول:

«إذا كنتِ لا ترغبين في رؤيتي، فليس لي خيار سوى الرحيل لأني لا أريد أن تغضبي عليّ، فذلك سيجعلني أغضب أيضاً على نفسي».

كان صوته ناعماً ولغته الإنكليزية كانت جيدة مما أذهلها وأخرج الدموع من عينيها. حتى أولغا التي جاءت إلى المكتب للتو وكانت تنظر إليهما، عرفت بسهولة بأن ماري وإسحاق مغرمان ببعضهما.

ملّ شوك من المشهد وقرّر أن ينهيه فوراً، فهو لن يسمح لرجل آخر أن يسرق حبه الوحيد. اقترب إلى إسحاق وقال:

«اسمع يا رجل، منظمتنا مكان محترم وعلى كل واحد منا أن يبذل جهده كي تبقى المؤسسة ناجحة، باختصار علينا أن نعمل الآن، وأما بالنسبة لك، عليك أن ترحل فوراً». اندهش إسحاق من نبرته الباردة وردَّ عليه:

«لن أختلف معك يا سيدي لأني جئت من أجلها وليس من أجلك أو من أجل المنظمة»، ثم صرف عينيه ناحية ماري قبل أن يستطرد:

«هل يمكننا أن نتكلم لمدة قصيرة على انفراد خارج هذا المبنى؟». ولكن شوك تدخّل قبل أن تردّ قائلاً:

«لن أسمح أبداً لرجل أجنبي ومغفّل مثلك أن يتجاهلني في مكتبي وبلادي».

ثم أمسك بيد إسحاق وأخذ يدفعه إلى الوراء. تراجع إسحاق وقال:

«من أين جئت بكل هذه الكراهية تجاهي يا سيد؟ وماذا فعلت لأستحق هذه المعاملة منك؟».

وكلما قال إسحاق كلمة «سيدي»، ينهمر المزيد من الدموع من عيني ماري فيما يزداد شوك غضباً.

«لماذا تقول سيدي باستمرار؟ فبالنظر إليك، لدينا العمر نفسه تقريباً. اخرج من هنا فوراً. فلقد استنفدت صبري».

وعندما لم يتحرك إسحاق، صفعه شوك على وجهه بشكل عنيف مما تسبّب له بنزيف في أنفه. أراد إسحاق أن يضربه أيضاً ولكنه أوقف نفسه احتراماً لماري، وعندما نظر إليها بعد عدة ثوانٍ، لم يرها مجدداً. فماري قد خرجت من المبنى حين ضربه شوك وأخذت تجري نحو المنتزه المركزي فيما كانت تبكي وتتمنّى لو تنشق الأرض وتبتلعها.

الحاضر

«تلاحقني الأشباح كي تذيقني الذل قبل أن تهلكني، ولو لم يكن الأمر كذلك، لماذا أجد نفسي عاجزة عن نسيان الماضي كي أبدأ حياتي من جديد مع إسحاق، الرجل الذي لا أزال أحبه وأعشقه».

كانت ماري تتحدث إلى نفسها وهي جالسة على مقعد في المنتزه المركزي.كانت تتنهد وتتنفس بسرعة في ذلك الصباح البارد كأنها امرأة في غابة ما تلاحقها نمور وأسود. وآخر شيء توقعته في ذلك اليوم كان أن تراه. وعلى مدى السنوات، تجنّبت استعمال اسم إسحاق كثيراً متعمدة لأنها كانت تخاف من أثر ذلك الاسم عليها، ولذا أشارت إليه بكلمات مثل هو أو ذلك الرجل. كيف حصل على تأشيرة للوصول إلى الولايات المتحدة؟ ولماذا بدا أكبر منها بعشر سنوات بدلاً من سنتين؟

وفجأة اقتحمتها ذكريات مؤلمة عنهما وأخذت تحس بالإشفاق الشديد لنفسها وله أيضاً بسبب تحوّل أحلامهما إلى كوابيس. بالرغم من عدم بقائها معه لمدة تؤهلها لتقارن بين شخصيته القديمة وشخصيته اليوم، لاحظت تغييراً كبيراً فيه. فلو كان إسحاق نفسه الذي عرفته من قبل، لضرب شوك حين صفعه. ولكن إسحاق الجديد فضّل أن يختار السكة الأكثر أدباً واستمر في مناداة شوك سيد بالرغم من الشتائم التي كان يلقيها الأخير عليه. لماذا تغيّرت شخصيته هكذا وأصبحت تتميز بكل هذا الضعف؟ هل كان سجيناً في الحرب أو هل كان ضحية التعذيب الذي جرّده من ثقته بالنفس؟ بدأت تبكي أكثر لدى تحليل كل هذه لأسئلة، وما جعل الأمر أكثر مؤلماً كان عدم معرفة الإجابات وتأكدها في الوقت نفسه بأنها لن تكون لديها الشجاعة لتبحث عنها. ظلت جالسة على الكرسي نفسه فيما قالت لنفسها باستمرار: لقد انتهيت يا الله... لقد انتهيت يا الله!

كان هناك أمر غريب آخر حدث في ذلك الصباح، فلقد ازدادت درجة حبها لإسحاق مما أذهلها لأنها لطالما كانت تظن قبل ذلك اليوم بأن حبّها له قد وصل إلى قمته. ولكن الآن قد تمّ ثبوت أنها كانت مخطئة في ذلك التفكير. فهو لم يعد في داخلها فقط ولكنه أصبح كياناً حياً في الخارج أيضاً لحماً ودماً.

وماذا سيحصل لخطتها مع شوك؟ فهو يحبها جداً وبقي معها طوال هذه السنوات، خصوصاً لدى أزمة والدتها في المستشفى. وهو أثبت رجولته أيضاً لأنه كان لديه فرصة تاريخية قبل بضع أيام أن يكون الرجل الأول الذي ينام بها، بعد أن أصبح في الليلة نفسها الرجل الأول الذي قبّلها، ولكنه لم يستغل ضعفها عندئذ وفضّل أن يصبر حتى تصبح زوجته. ماذا تريد أكثر من ذلك من زوج محتمل؟ هل هناك شيء أجمل من رجل لديه مثل تلك المبادئ في هذه الأيام التي تلفها الخيانة والانتهازية؟

ولكن عندما فكرت عما فعله في ذلك الصباح، تختفي كل تلك الأفكار الجميلة عنه ثم تسأل نفسها سلسلة من الأسئلة... ألم يفسد شوك مظهره الجميل من خلال تعليقاته اليوم؟ فلقد قال لإسحاق بأنه الأجنبي الذي ليس لديه الحق أن يتجاهله في بلده. الآن يقع الدور على إسحاق ولكن ربما يقع الدور عليها غداً. لو أصبحت زوجته مثلاً وكان لديهما طفل متمرد، ألن يقول شوك بأنه إرهابي أو شيء عنصري يشير إلى قلة الاحترام للأجانب؟ ظلت في المكان نفسه غارقة في نفس الأسئلة، ولذا لم تعرف بأن ساعات كثيرة كانت تمضي.

á á á

أما بالنسبة إلى مكان عملها، كانت الظروف تزداد سوءاً. فبعد أن تركت المبنى، حاول إسحاق أن يلحقها ولكن شوك اعترضه وصرخ قائلاً:

«يظهر أنك لم تفهم ما قلته. سوف أعلمك درساً لن تنساه طيلة حياتك».

وقبل أن يردّ إسحاق، هاجمه شوك وأخذ يضربه على كل أنحاء جسده. لو كان لديه مسدساً أو سكيناً، لقتل إسحاق بلا تردد. ولكن في غياب أي سلاح خطير، لم تكن لديه سوى يديه واستعملها في محاولة لأن يلحق أضراراً كبيرة على ضحيته الذي كان بإمكانه أن يدافع عن نفسه وأن يضرب مهاجمه ولكنه فضّل عدم معارضته لأنه اعتبر تلك الضربات عقاباً له لموت أنطوان إلياس، والد ماري. وفي نظر إسحاق، ليس هذا الرجل الأبيض من يضربه، بل أنطوان إلياس هو الذي يفعل ذلك مستعملاً أيدي الرجل الأبيض، وهكذا استسلم إسحاق لهذا العذاب المهين والمؤلم.

ونظراً إلى التدهور في الأمور، ركضت أولغا إلى أسفل المبنى وعادت بمسؤولي الأمن لإنقاذ إسحاق من شوك الذي أراد أن يقتله على ما يبدو. استطاعوا أن يفرّقوهما عن بعض بينما حمل أحدهم إسحاق نحو المخرج لينقله إلى مستشفى قريب. لم يعرف شوك مدى جنون أفعاله حتى شاهد ملابس إسحاق ملطخة بالدم، وبدلاً من مساعدة الحراس لإرساله إلى المستشفى، هرب من المشهد بسرعة ونسي حقيبته ومفتاح سيارته وراءه.

أما بالنسبة إلى أولغا، فلم تكتف بمراقبة الأمور من بعيد، بل اصطحبت الحراس وإسحاق إلى المستشفى كي تطمئن إلى حالته وكي تبلغ السلطات هناك بأن منظمتها ستكون مسؤولة عن تكاليف علاجه لأنه وقع ضحية الضرب من قِبل أحد موظفيها الكبار. ولدى دخولهم المستشفى، أرادت أن تتحدث إلى إسحاق عندما تم إدخاله إلى حجرته، ولكن إحدى الممرضات أخبرتها أن تعود بعد بضع ساعات لأنه لا يمتلك القوة للتحدث إلى أحد.

وهكذا عادت إلى المكتب ثم انشغلت بعملها ونسيت إسحاق تماماً حتى بعد مرور خمس ساعات. قفزت عن كرسيها عندئذ وأسرعت إلى المستشفى ثانياً ولما دخلت حجرته، فرحت لدى رؤيته صاحياً حتى لو كان لا يزال يستلقي على الفراش. كان أنفه مكسوراً ولكن بقية الأجزاء وجهه كانت على ما يرام. فالكثير من الأضرار تلقاها كانت على بطنه وصدره، وهذا ما جعله من الصعب للغاية أن يجلس أو أن يرقد على ظهره. جلست بجانبه ثم قدّمت نفسها إليه قائلة:

«أنا أولغا، زميلة ماري».

ابتسم لدى سماع اسم ماري وحاول أن يجلس على السريرٍ مما أشعره بألم شديد جعله يصرخ. دخلت الممرضة مسرعةً لدى سماع صرخاته ولكنه طمأنها قائلا:

«أنا بخير، أنا بخير. من فضلك اتركيني مع هذه المرأة على انفراد».

رمقتهما الممرضة في حيرة ثم خرجت من الغرفة. بدأ إسحاق يتكلم على الفور وكان الحزن بادٍ علي وجهه:

«لا تخبريني هدف حضورك لأني أعرفه. أعرف بأن ماري لا تريد أن تراني وقالت لك أن تخبريني أن أرحل. أنا كنت غبياً حين فكرت بأنني كنت قادراً على إعادة كتابة التاريخ».

كان يعتقد بأنها جاءت تبلغه أن يختفي من حياة ماري ولذا كان يتكلم باليأس الشديد. قرّر أن يبوح لها بكل شيء لأنه لم يظن بأنه لديه ما يخسره، فلقد خسر المعركة وضاع كل شيء. تكلّم عن مقابلته لماري لأول مرة في مطعم «فلمنجو» ثم حدّثها عن رسالة الوداع التي كتبها لوالديها قبل هروبهما ثم وصف موظف الجوازات الذي حوّل حلمهما إلى كابوس ودخل في تفاصيل عن وفاة والد ماري.

توقّف قليلاً قبل أن يتحدث عن كيفية حصوله على تأشيرة أميركية. وقدّم أيضاً تفاصيل سفره إلى صور ولقاءه نبيهة التي قال بأنها امرأة شفافة. والشيء الأخير الذي تكلّم عنه كان عن حبه الأبدي

لماري.

كانت أولغا تتأمله بدهشة لأنها تعرف ماري كل هذه السنوات ولم تسبق أن أشارت إلى هذه الأحداث. وقبل رجوعها إلى العمل بعد أن استمعت إلى قصته كاملة لمدة فاقت ساعتين، تفوّه بجملته الأخيرة:

«أبلغيها بأنني متأسف عن كل المشاكل التي تسببت بها في حياتها».

فهي أخبرته أيضاً بأنها جاءت بنفسها ولم يتم إرسالها كما كان يعتقد ولكنه لم يصدّقها، فلقد فَقَدَ الأمل العجيب الذي لطالما كان يحمله طوال هذه المدة الطويلة واستسلم لليأس والتشاؤم أخيراً. عادت إلى المكتب مصدومة لأنها لم تسبق أن سمعت قصة حزينة مثل قصة إسحاق وماري. شبّهت قصتهما بفيلم في نظرها مما جعلها تشك في بعض الأشياء التي قالها. قررت عندها أن تتصل بنبيهة كي تتأكد من كلامه. شكّت منذ البداية بأنه سيسهل الحصول على خطها لأن الخطوط في لبنان ما زالت غير جيدة ولكنها سبقت أن اتصلت بماري مرتين خلال رحلتها هناك، ولذا جرّبت حظها وابتسمت عندما سمعت صوت نبيهة.

دامت المكالمة لنصف ساعة ولم تؤكد نبيهة فقط كل ما قاله إسحاق، بل قدمت إلى أولغا المعلومات التي لم تكن في حوزته. فهي أخبرتها مثلاً عن مدى حب ماري له لغاية الآن وعن رغبتها في الزواج بشوك كي ترضي ضميرها الذي جعلها سجينة له منذ موت والدها. استمعت أولغا إليها بدقة ووعدتها أن تبذل قصارى جهدها لتجمع ماري وإسحاق من جديد ثم أقفلت الخط بقلب محطّم.

أخذت تفكر بالخطة المناسبة لتفي بوعدها لنبيهة وظلت تجد نفسها أمام طريق مسدود لمدة طويلة. ذهلت لأن هذه كانت المرة الأولى التي وجدت خريجة الكلية النفسية والمستشارة ذات التجربة لحوالى عشرين سنة نفسها في هذا الموقف. وفي النهاية، افترضت بأن هذا الأمر سيتطلب منها خبرة أكبر وأوسع منها، وأنسب شخص في نظرها للقيام بهذه المهمة كانت السيدة كيسنجر، مؤسِّسة المنظمة التي لديها الدكتورة في الدروس النفسية. نهضت وأسرعت إلى مكتبها. ولدى دخولها عندها، كانت السيدة تحلّل بعض الملفات. سلّمت عليها وجلست بجوارها بصمت كي لا تزعجها. وعندما انتهت من عملها، فاتحتها أولغا بموضوع ماري بينما استمعت السيدة إليها بتركيز تام. ولما أنهت كلامها، رفعت السيدة كيسنجر السماعة واتصلت بسكرتيرة المنظمة وقالت:

«في حال ظهور ماري، أخبريها أن تأتي إلى مكتبي فوراً»، ثم حدقت إلى أولغا وقالت:

«أسست هذه المنظمة كي أصلح حياة الناس. ما هي الفائدة إذاً أن أقف بأيدي مكتوفة ولدى إحدى أهم موظفاتي حياة تحتاج إلى الإصلاح؟».

صرفت عينيها إلى ملفاتها من جديد وشكرتها أولغا وكانت على وشك العودة إلى مكتبها، ولكن أوقفها طرق خفيف على الباب ثم دخلت ماري بمظهر حزين كأنها ملاك فَقَدَ أجنحته. ألقت السيدة كيسنجر نظرة جادة عليها ثم قالت:

«أنا سعيدة جداً لرؤيتك». نهضت احتراماً لماري ثم استطردت قائلة:

«تعالي يا ابنتي واجلسي قريباً مني لأننا لدينا كلام طويل جداً جداً».

جلست ماري بينما تساءلت أولغا بينها وبين نفسها كيف استطاعت هذه المرأة أن تبقي حباً مثل هذا الحب داخلها ولا تبوح به لأحد، وكيف استطاعت العمل والدراسة والتفوق وفي داخلها أمر كهذا قد يشغل وجدانها ويمنعها من فعل شيء. قرّرت أولغا أن تكون أول من يتكلم فقالت:

«كيف حالك يا أختي العزيزة؟ وإذا قلتِ بأنك بخير، سنغضب منك لأننا نحبك فعلاً ونريدك أن تكوني بخير حقاً».

لم تعرف ماري كيف ينبغي عليها أن تردّ لأنها لم تعرف ما الذي ستقوله ومن أين ستبدأ، ولا تزال ترغب في أن تخفي عنهما أكبر قدر ممكن من التفاصيل المتعلقة بعلاقتها مع إسحاق لأنها لم تردهما أن تعرفا بأنه كان لها يد في موت والدها. رداً على كلام أولغا، أخذت تحكي بسرعة فيما اخترعت كذبة سريعة:

«كان يومي شاقاً للغاية، والسبب عندي بعض المشاكل المتعلقة بشقة والدي في بيروت ويجب أن أجد حلولاً لها حتى بالرغم من كوني هنا بعيدة عنها».

سكتت مديرتها لبرهة ثم ألقت عليها نظرة متفحصة قبل أن تقول:

«حسناً، هل يمكنني أن أعرف السبب وراء مجيء ضيفك من لبنان، ما اسمه ومنذ متى تعرفينه؟».

شعرت ماري بقشعريرة حول جسدها، فهذا السؤال بالذات هو ما كانت تحاول التهرب منه.

«ذلك الشخص ليس مهم، بل الرسالة التي جاء بها هي التي تشغل بالي منذ الصباح، فشقة والدي فيها سقف يكاد ينهار وعندي مهلة قصيرة كي أعثر على حل للمشكلة».

ابتسمت السيدة كيسنجر لأنها لم تندهش من ردة فعل ماري، فهي اعتادت على هذا النوع من الردود من الكثير من المرضى الذين عالجتهم أثناء ممارستها مهنة الطب النفسي على مدى عشر سنوات. فما كانت ماري تقوله يدعونه بالإنكار.

وفي تلك الأيام، كانت تستقبل العديد من المرضى في مكتبها الذين، بدلاً من أن يتحدثوا عن مشاكلهم، ركّزوا على مواضيع ليس لها أي علاقة بما يعانون منه بسبب الخجل. ولكنها تعلمت بمرور الوقت أحسن طريقة لإخراجهم من هذه الحالة، وكان هذا الإنجاز من ضمن الأسباب الرئيسة التي جعلتها ناجحة في تلك المهنة. بعد أن ساد الصمت لمدة كافية، دخلت في الموضوع بنبرة جادة ورقيقة في آن واحد:

«تظهر المشاكل وتختفي دائماً وهذا أمر لا يمكننا السيطرة عليه، فالشيء المهم هو الحلول التي نتبنّاها لمعالجة هذه المشاكل بمساعدة الناس الذين يحبوننا ويدفعهم هذا الحب ليخدموننا، وهذه النقطة لدينا السيطرة عليها». توقّفت ثم نظرت إلى أولغا وقالت:

«أظن بأنه عليك أن تخرجي لأنها قد تحسّ براحة أكثر في غيابك».

قالت ذلك متعمدة لأنها عرفت بأن ماري سترفض مما سيجعلها تتكلم. وكانت محقة لأن ماري قاطعتها على الفور كأنها كانت في حاجة إلى وجود أولغا بجانبها. بدت كأنها خائفة من غضب مديرتها بسبب ما حدث في الصباح، وحتى إنها راودتها شكوك بأنه قد يتم طردها من العمل.

«لا، أنا أحس براحة أكثر لوجودها، فهي أختي طيلة هذه السنوات وأعز صديقة لي منذ جئت إلى هذه البلاد. فلتكن معنا، أرجوك».

بعد أن قالت ذلك، صارحتهما بكل ما كان يدور ببالها لأنها كانت تحس بأن لدى مديرتها معلومات كثيرة عن حياتها من خلال نبرتها وطريقة كلامها. لم تؤكد فقط معظم الأشياء التي سمعتها أولغا من إسحاق، بل قدمت المزيد من التفاصيل مستعملة إشارات يديها في بعض الأحيان لوصف ما تعنيه.

كان مشهداً عاطفياً جداً واستغرق ثلاث ساعات، وفي النهاية لم تكن ماري فقط من يبكي، بل كانت السيدة كيسنجر وأولغا بينما كانتا تستمعان إلى قصتها الحزينة.

الشيء الوحيد الذي تجنّبت ذكره كان بأنها لا تزال تحب إسحاق جداً، وعندما تكلمت عن مشاعرها ناحيته، قالت بأنها فقط تعتبره أخاً لها، ولكن كان من الواضح بأن ذلك الكلام غير صادق تماماً، فكل الإشارات أشارت إلى أنها لا تحبه فقط، بل تعشقه بجنون. أصبحت السيدة كيسنجر قلقة من جديد لأن ماري لم ترد أن تعترف بذلك وانتظرت قليلاً بعد أن أنهت كلامها قبل أن تفاتحها بهذا الأمر.

«لقد فعل هذا الشاب عملاً عظيماً اليوم. أخبرنا قبل مغادرته عن الجهود الخارقة التي بذلها ليحصل على تأشيرة أميركية وعلى المال لشراء التذكرة كي يأتي إلى هنا فقط من أجل رؤيتك. وأمثاله نادرون جداً وعلينا أن نقدّر ذلك. حسناً، هل يمكنك أن تخبريه بأنني أدعوه إلى فنجان شاي غداً؟».

اقشعرّت ماري لدى سماعها ذلك الطلب، فهي لم تعرف مكانه أولاً وثانياً، لم تظن بأنه كانت لديها الجرأة لمواجهته بسبب الصوت الذي كان بداخلها والذي لا يزال يقول لها بأن مجرد التحدث إلى ذلك الشخص يعتبر بمثابة خيانة لوالديها، ولكنها استجمعت قوتها وقالت:

«سأخبره ذلك إذا نجحت في العثور عليه لأني بصراحة أجهل مكانه».

صمتت السيدة كيسنجر لمدة طويلة وأحست ماري بأنه كانت هنالك مشكلة ما. قررت أولغا أن تتدخل. اقتربت من ماري وأخبرتهما بأن إسحاق في المستشفى بعد أن ضربه شوك ضرباً شديداً وكاد أن يقتله. تصرّفت المديرة كأنها لم تكن على علم بذلك الأمر بينما قفزت ماري من كرسيها مرتعبة وقلقة ثم سألت أولغا عن اسم وعنوان المستشفى. ولكن أولغا أبت أن تخبرها وحصل خلاف بينهما حتى قاطعتهما السيدة كيسنجر قائلة:

«اجلسي يا ماري»، كانت ماري منفعلة جداً ونفذت أمرها بتردد ثم استطردت المديرة:

«ذلك الرجل الذي تدّعين بأنك تحبينه كأخ يحبك جداً، ربما أكثر من حب أي رجل أعرفه لأي امرأة أعرفها حسبما سمعت عن مشاعره تجاهك. وهو في الوقت نفسه تعذّب كثيراً بعد الخطأ الكبير الذي ارتكبه في سن صغيرة والذي أخذك منه. وكما تعلمين عاش في بلادكما طوال الحرب الأهلية الصعبة التي دامت لأكثر من عقد، ولكن ذلك لم يمنعه من البحث عنك كي يصلح ما انكسر بينكما قبل سنوات كثيرة». توقفت ثم تابعت كلامها:

«ولكن إذا كان من المستحيل أن تقبلي بهذا الحب العظيم وتسامحيه لفعله بالرغم من حبك الواضح تجاهه، أنصحك أن لا تعطيه أملاً بزيارتك له في المستشفى، ابتعدي عنه مهما صعب عليك ذلك كي يبدأ حياته من جديد ويتخلى عن هذا الحلم الجميل الذي يبدو من المستحيل أن يتحقق».

أصابت كلماتها ماري كسهم اخترق قلبها.. أخذت ترتعش وترتجف كأنه تم رميها على الثلج ثم أخذت تقوم بحركات تلقائية وعشوائية. نهضت أولاً ثم بدأت تتجول في مكتب المديرة بتثاقل كأنها تجبر نفسها على المشي. وبعد ذلك توجهت نحو النافذة ونظرت إلى الخارج لمدة طويلة ثم تابعت تجوّلها ثانية وبسرعة أكبر قبل أن تقف فجأة بجانب طاولة المديرة وأمسكت بالإنجيل الذي يوجد عليها وذهبت به إلى ركن بعيد عنهما وأخذت تقرأه بفضول كأنها تبحث فيه عن دعاء سيطلق

سراحها من سجن ضميرها.

مرت أكثر من أربعين دقيقة وهي على تلك الحالة الغريبة بينما كانت أولغا ومديرتها تراقبانها في حيرة شديدة. فجأة أعادت الإنجيل إلى مكانه واقتربت منهما بعينين تفيضان بالدموع وقالت لهما بصوت خفيف يشبه الهمس:

«هل توجد بينكما مَن بإمكانها أن تأخذني إليه؟ أحبه جداً ولا أريد سوى تمضية بقية عمري معه».

لم تتلقَّ ماري رداً من أولغا أو السيدة كيسنجر حين طلبت منهما أن تقلّها إحداهما إلى إسحاق، بل اكتفت الاثنتان بإمساك يدها ثم أخذن يتمشين جميعاً إلى المستشفى كطالبات في طريقهن إلى امتحان مهمّ، وبسبب سرعة خطاهن، وصلن إلى المستشفى خلال أربع دقائق فقط.

وعند اقترابهن من حجرة إسحاق، تركت أولغا يد ماري وتحركت أمامهما لأنها الوحيدة التي سبقت أن زارته بينهن. شاهدن ممرضة تخرج من عنده مبتسمة فيما طمأنتهن بأن حالته كانت تتحسن وبأنه لم يعد هناك نزيف داخلي، وبعد ذلك سبقتهما أولغا في الدخول إلى غرفته بعد أن طرقت الباب.

وعندما دخلت أولغا ورآها إسحاق، ظن بأنها جاءت لوحدها مما جعله أكثر حزناً مما كان من قبل، فتجنّب النظر إليها عندما حيّاها بينما كان يركّز عينيه على السقف. عرف في قرارة نفسه بأن تصرّفه كان يعبّر عن قلة الأدب بدون شك ولكنه لم يستطع أن يمنع نفسه من القيام بذلك لأن قلبه كان فعلاً محطماً. وظل ينظر إلى السقف ضارباً بالأصول والآداب عرض الحائط مما جعله مستحيلاً عليه تماماً أن يتنبّه لوجود ماري، ملكة أحلامه ومالكة قلبه. وكان مصرًّا على إبقاء عينيه بعيداً عن أولغا لمدة طويلة لولا أنه سمع صوت ماري تحييه باللغة العربية وبصوت رقيق:

«مساء الخير إسحاق، أتمنى بأن حالتك تتحسن الآن».

تجمّد فوراً ثم حدّق إلى الناحية التي جاء منها الصوت ولم يصدّق عينيه عندما رآها. وعندما استطاع أن يجلس على السرير لأول مرة منذ تم إدخاله المستشفى، لم يصدق قوته الجديدة أيضاً. كان يتأملها كأنه رجل أعمى استعاد بصره للتو أو كأنه امرأة عاقر اكتشفت فجأة بأنها حامل بعد أن تجاوز عمرها الستين عام. مرت ثوانٍ قبل أن يقول:

«كنت أريد ذلك الرجل أن يقتلني ولكنه فشل لأنه كان يضربني في أماكن غير خطرة. لم أدافع عن نفسي كي تتاح له فرصة كاملة أن يصيبني بالضربة الحاسمة والقاتلة والتي كان ينبغي أن ترسلني إلى قبري كي أرتاح من العذاب الأكبر والخطأ الذي ارتكبته في حياتي».

توقف ثم غطّى وجهه بيديه كما يفعل بعض الأطفال عندما يحسون بالذنب بسبب شيء سيئ فعلوه ثم استطرد:

«أنا أستحق مثل هذا المصير لأن ما فعلته ذنباً لا يُغتفر أو يُنسى. أملي الوحيد الآن هو أن تسامحيني وتحبيني حال موتي».

ذهلت ماري جداً بسبب كلماته وبسبب استخدامه للإنكليزية لنقلها إليه. شاهدت الحزن والتشاؤم اللذين ارتسما على وجهه كأن وجهه قد أصبح دارهما الأبدي، وشعرت بالإشفاق الشديد عليه. مسحت الدموع من عينيها ثم اقتربت إليه ولكن قبل أن تقول شيئاً، قبّلت رأسه ثم قبّلت يده عدة مرات.

«ليس من الضروري أن تموت قبل أن أحبك وأسامحك لأنني لا أزال أحبك ولقد سامحتك بالرغم من كونك حياً». أمسكت بيده ثم تابعت كلامها:

«فلنحاول أن ننسى ما فات ونبني مستقبلاً سعيداً يعوّضنا عن الماضي الحزين. لن يسهل تحقيق هذا الإنجاز لأن الذكريات أحياناً ستضع العقبات في طريقنا ولكن علينا أن نبذل قصارى جهدنا لأننا لو حاولنا ونجحنا، سنكسب كل شيء، ولكن لو لم نحاول، لن ننجح وسنخسر كل شيء».

عندما تفوهت بتلك الكلمات، كان إسحاق يبكي ويقول في نفسه بأنه سيجعلها أسعد امرأة على

وجه الأرض. ألقى نظرة تقدير على أولغا والسيدة كيسنجر لأنه كان يحس بأنهما لعبتا دوراً مهماً في ما بدا أمامه كالمعجزة الكبرى ثم ركّز عينيه على ماري وقال:

«يقال بأن الأحلام تتحقق ويظهر بأن هذا الكلام صحيحاً. أعدك اليوم أمام هاتين المرأتين الطيبتين بأنني سأجعل حياتك أجمل مما كانت عليه في أي حلم عشتيه طوال حياتك».

أراد أن يقول المزيد ولكن الطبيب دخل فجأة وتعجّب عندما لاحظ بأنه لم يكن لوحده:

«ظننتك أجنبياً من ليبيا، أقصد من لبنان. من أين لك بكل هذه الحسناوات؟». ابتسم إسحاق وقال:

«أنا من لبنان فعلاً»، توقف ليشير إلى ماري ثم قال:

«ولكن أمثال هذه الفتاة يجعلون الناس دائماً حولها ويبحثون عنها مثلما ترى النحل يحوم حول الزهر».

ساد الصمت لبرهة لدرجة ظن إسحاق بأنه أخطأ في لغته الإنكليزية، فهو لم يعرف بأن الكل كانوا مسحورين بكلامه النابع من القلب. كسر الدكتور الصمت قائلاً:

«يبدو بأنك بدأت تشفى بشكل جيد مما جعلك شجاعاً لدرجة تريد أن تثبت لنا بأنك تعرف لغتنا أفضل منا».

انفجر الجميع ضاحكين ثم أخبرهن الدكتور بعد ذلك بأن عليهن أن يرحلن كي يستريح المريض، وأصرّ على ذلك حتى بعدما ترجّته ماري كي يسمح لها أن تبقى معه لمدة أطول. اضطررن إلى المغادرة بعد ذلك، وكانت الساعة عندئذ التاسعة والنصف ليلاً.

عادت ماري إلى شقتها مبتهجة وكأنها كانت جنّية قد خرجت للتو من القمقم بعد حبسها لمدة دامت ألف سنة. أسرعت إلى الفراش لتنام مبكراً لأنه كان عليها أن تقوم بخدمة لإسحاق في اليوم التالي قبل أن تذهب إلى العمل. لقد قال الدكتور بأن إسحاق سيقضي على الأقل ثلاثة أيام في المستشفى، ولذا كلّفها إسحاق أن تذهب إلى الفندق الذي يقيم فيه كي تخبر إدارة الفندق بأنه لن يعود كي تخرج حقيبته وتحفظها في مكان آمن.

في الصباح التالي، نفّذت طلبه واستغربت عندما تم السماح لها بدخول حجرته وأخذ أغراضه بدون التأكد من أنها كانت فعلاً من طرف إسحاق. حملت الحقيبة الخفيفة إلى شقتها بسرعة وكانت تنوي الذهاب إلى المكتب مباشرة ولكن كان هنالك ضيف لم ترغب برؤيته. فقد وجدت شوك أمام الشقة منتظراً رجوعها كأنه كان على علم بأنها كانت خارجاً. حدّق إلى ما كانت تحمله ثم قال بنبرة تلفّها السخرية:

«لا ينوي صديقنا الجديد الرحيل على ما يبدو».

لم تكن سعيدة لرؤيته لأنها تكرهه بعد ما فعله لإسحاق.

«ما أغربك يا رجل! لديك الجرأة أن تعلن ذلك عنه بعدما كدت أن تقتله، فشخص مثلك ينبغي أن يكون وراء القضبان في هذه اللحظة. يا لحظك لأنّ إسحاق لا يريد أن يبلّغ عمّا قمت به».

«اسمه إسحاق، حسناً! كما جاء إسحاق بعدة مواضع في التوراة وأخذ كل المجد، يريد إسحاق هذا أن يأتي بعدي ويأخذك مني».

لم تستطع ماري تصديق أن تلك الكلمات كانت تخرج من رجل ذكي مثله احترمته كل هذه السنوات، كم كانت مخطئة برأيها عنه. وما أذهلها أيضاً كان تأكّده بأن إسحاق سيأخذها منه. كيف عرف بأنها كانت تحب إسحاق أصلاً؟ فهي لم تكن على علم بأن شوك كان يراقبها في اليوم الفائت

عندما كانت تنظر إلى إسحاق ولم يرَ في عينيها عندئذ سوى الحب الواضح والعميق.

«لا أعرف عما تتكلم ولن أستفسر عنه لأني أعرف بأنه ليس سوى كلام سخيف. وعلى فكرة تعرفت عليه قبلك وكدنا أن نتزوج في الماضي». تنهّد وقال:

«ممتاز، ولماذا لم تخبريني عن فارس أحلامك كل هذه السنوات نظراً إلى أهميته في حياتك؟ كان يجب عليك أن تصارحيني بدلاً من أن تعطيني أملاً مزيَّفا، لِمَ كنتِ بهذه الحقارة والقسوة يا حقيرة؟».

صدمتها كلماته جداً ولم يسبق أن تحدّث إليها أي رجل هكذا، فهي لم تمنح أحد الفرصة في حياتها كي يدوس على كرامتها.

«أكرهك جداً يا شوك وأريد أن تعرف من الآن وصاعداً بأن الشمس أقرب إليك من احتمال وجود أي صداقة بيني وبينك حتى».

ضحك ضحكة طويلة وشريرة بينما تمشى بعيداً عن باب شقتها ثم اقترب إليها بسرعة وقال:

«هل هذا الجزاء المناسب لي لكل هذه السنوات التي منحتك فيها الحب والاهتمام؟ سأتركك الآن ولكني أود أن أذكّرك بأن من يضحك أخيراً، يضحك كثيراً. إلى اللقاء أيتها الأفعى».

بقيت واقفة أمام بابها لبعض الوقت فيما اقتحمها سخط شديد ثم فتحت الباب بيد مرتجفة. كانت تخاف جداً منه لأنها رأت الشر في عينيه وأخذت تشكر ربها بأنها لم تتزوج به.

احتاجت إلى بعض الوقت كي تستجمع قوتها وتذهب إلى العمل في ذلك الصباح. ولكن بعد مرور مدة قصيرة، نسيت الأمر لأنها كانت مصممة على البقاء قوية كي لا تضيع البهجة من حياتها ثانية بعد أن رجع إسحاق إليها.

أمضت يوماً لطيفاً معه في المستشفى بعد عملها في ذلك اليوم وكان اليومان التاليان جميلين أيضاً وحصلت فيهما الأشياء نفسها تقريباً. فهي تبنّت البرنامج نفسه المكون من زيارات قصيرة إليه على الأقل لمرتين خلال ساعات العمل. وعندما تنتهي من عملها، كانت تسرع إلى شقتها لتطبخ له طعاماً لبنانياً وتأخذه له قبل الساعة السادسة والنصف ثم يأكلان مع بعضهما وتبقى معه في المستشفى لثلاث ساعات قبل العودة إلى المنزل.

وبحلول اليوم الثاني، كان هناك تحسّن كبير في حالته، استطاع أن يمشي بدون مساعدة بينما قلَّ الإحساس بالألم لديه. والوجع الوحيد الذي ما زال موجوداً كان يأتي من صدره فقط من حين إلى آخر. ولكن حتى ذلك الألم اختفى في يومه الثالث بعد أن أدخل الدكتور دواءً قوياً يدعى **Cataflan** في قائمة أدويته. وهكذا رجع بسرعة إلى طبيعته واستعاد جزءاً كبيراً من نشاطه وأخبره الدكتور في اليوم نفسه بأنه سيغادر المستشفى في اليوم التالي.

ارتاح إسحاق وماري لوجودهما في المستشفى لأنه عرض عليهما بيئة مناسبة ليتحدثا إلى بعضهما ويريا ماذا تغيّر خلال فترة فراقهما عن بعضهما، وذلك في مكان هادئ وبعيد عن أي ضجيج، وسرعان ما اكتشفا بأنهما لا يزال لديهما ذلك التطابق الفريد الذي أوقعهما في غرام بعضهما قبل سنوات كثيرة. وهذا الاكتشاف أعطاهما انطباعاً بأن حياتهما كانت مجرد شريط تم تشغيله من جديد بعد أن تجمّد مؤقتاً، فوجدا نفسيهما في الطريق نفسه الذي كانا عليه عندما أفسد ذلك الضابط خطتهما عند الحدود السورية.

رفضت ماري احتمال أن تبدأ علاقتهما الجديدة بالكذب ولذا صارحته في يومه الأخير في المستشفى عن كل ما دار بينها وبين شوك منذ مقابلتهما وحتى ظهوره المفاجئ أمام شقتها قبل عدة أيام، فباحت له بأنه أول من قبّلته في حياتها. خافت من أن يغضب إسحاق حول هذا الأمر واندهشت حين أبلغها لاحقاً في ذلك المساء بأنه لن يحبّها بشكل أقل حتى لو تزوجت بشوك لأن الحب شيء

يفوق ذلك الارتباط السطحي، فهو متعلق بالروح.

فتحت فمها مذهولة عندئذ لأن مثل تلك الكلمات كانت آخر شيء توقّعته من رجل شرقي عاش في الشرق الأوسط طيلة حياته. كان من الصعب جداً لها أن تمنع نفسها من أن ترتمي في حضنه وظلت تراقبه كأنه ملاك نزل من السماء ليرفعها إليها.

وفي يومه الأخير في المستشفى، رفضت أن تترك حجرته وأقنعته أن يسمح لها أن تخفي نفسها وراء الستائر كي لا يراها الدكتور أو الممرضة عندما يزورانه ليلاً. وافق بكثير من التردد ثم تابعا حديثهما بأصوات خافتة حتى سمعا طرقاً على الباب. تسللت إلى مخبئها ودخل الدكتور وتحدّث إلى إسحاق لمدة لم تتجاوز الخمس دقائق ثم غادر دون أن يحس بوجودها على الإطلاق.

أما بالنسبة إلى الممرضة، فهي لم تأتِ في تلك الليلة، ربما أبلغها الدكتور بأنه ليس هناك داعٍ لذلك لأن حالة إسحاق قد أصبحت على ما يرام. وعندما لم تظهر عند الساعة العاشرة ليلاً، أطفأتْ ماري النور ورقدت على أريكة بجانب إسحاق. كانت أجمل ليلة أمضياها. لم يقولا شيئاً لبعضهما لأنهما خافا من أن يسمعهما أحد من الخارج.

ناما نوماً عميقاً ولكن ماري استفاقت عند الساعة السادسة صباحاً خائفة من أن يدخل عليهما أحد ثم خرجت من المستشفى متسللة دون أن يتنبه إليها أحد. وأسرعت إلى البيت كي تبدّل ملابسها وتجهّز الفطور لإسحاق.

عادت إليه قبل بعد مرور ساعتين وكانت تتلألأ كعروس. فطرا سوية ثم أخبرته النبأ السار بأن مورغان، خطيب أولغا الذي يشتغل كشرطي سيأتي إلى المستشفى عند الساعة الواحدة بعد الظهر ليأخذه إلى بيته حيث سيقيم عنده مؤقتاً. قالت أيضاً بأنها ستأتي مع حقيبته لترافقهما إلى هناك. ابتسم وقبّل يدها لأول مرة ثم تركته ووعدته بأنها ستعود عند الساعة الواحدة بالضبط. وعدها إسحاق بأنه سيجهّز نفسه للرحيل منذ ذلك الوقت ولدى وصولها المكتب، طلبت ماري من محاسب المنظمة أن يذهب إلى المستشفى ليسدّد حساب إسحاق هناك وفعل ذلك.

عادت إلى المستشفى قبل الساعة الواحدة وتفاجأت لدى رؤية مورغان في انتظارها. سلّمت عليه. أبلغها بأنه جاء مبكراً لأنه لديه موعداً بعد ساعة وكان على عجلة. أسرعت عندئذ إلى حجرة إسحاق لتستعجله بالخروج.

دخلت إليه ولأنها وجدته يصلي، لم تستطع أن تخبره شيئاً. جلست على كرسي لتراقبه بدقة وبإعجاب. مرّت عشر دقائق قبل أن ينتهي ولما انتبه لوجودها، ابتسم وعندما أخبرته بأن مورغان كان في الخارج، قال بأنه كان مستعداً. نهض ثم حمل حقيبته الصغيرة ولكن قبل أن يصلا إلى الباب، فتحه رجل مع قبعة سوداء على رأسه ويرتدي قميصاً وسخاً وبنطلون جينز أزرق ورثّ. وعندما اقترب إليهما، اتضح بأنه شوك. ألقى نظرة حادة وسريعة إلى ماري ثم نظر إلى إسحاق من الأعلى إلى الأسفل، ثم أخرج مسدساً من جيبه وقال:

«جئت من الصحراء لتخطف عروستي مني كأنها جمل، ربما لا تعرف بأن في مثل تلك المهمة ليس للنجاح أي احتمال».

ثم صوّب المسدس باتجاه إسحاق واقترب إليه أكثر ثم قال:

«اليوم سأخبرك لماذا يخاف الناس مني عندما أغضب».

«شوك من فضلك، أرجوك أن تهدأ. فأنا متأسفة لأنني قلت لك تلك الكلمات عندما جئتني في شقتي ذلك اليوم، حتى إن الرجل الذي تريد أن تقتله وبّخني لذلك وأخبرني أن لا أتوقف عن تقدير وقفتك بجانبي كل هذه السنوات».

كان صوتها عالياً ومرتجفاً بينما ظل إسحاق ساكتاً. فهو كان واثقاً من عدم تمكنه من منع شوك من قتله. أما بالنسبة إلى شوك، بدا كأن غضبه كان يزداد مع كل كلمة تقولها. نظر إليها ثم صرخ قائلاً:

«كنت أظن بأنك أذكى من ذلك بكثير يا غبية، أليست لعبته واضحة لك؟ فقد قال لك أن تقدّريني كي يكبر في نظرك وكي ترينه كالملاك الذي يحب خصومه مما سيجعل من السهل له أن يخفي كذبه الذي تتسم به شخصيته الحقيقية».

أحسّ إسحاق عندئذ بأنه كان عليه أن يتدخل، فقد كان قلقاً من غضب شوك المتزايد والذي جعله يحس بأنه كان على وشك قتل ماري أيضاً، وليس هو فقط. اقترب إسحاق إليه وقال:

«أنت محق، أنا كاذب فعلاً وربما أسوأ أيضاً. أنا مستعد للموت الآن، تفضل، أطلق عليّ الرصاص».

توقف لبرهة فيما تساءل عن مصدر شجاعته الجديدة قبل أن يستطرد قائلاً:

«ولكن اتركها لتعيش كي تشعر بالألم كل يوم، ينبغي أن يكون ذلك عقاباً لها وانتقاماً مناسباً لك لأنها ستقضي بقية عمرها حزينة».

تعجّب شوك لأن إسحاق عرف مقدماً عن رغبته في اغتيالهما الاثنين ولم يعرف كيف عرف ذلك. اقترب منهما وبعيداً عن الباب بينما أخذ يفكر باقتراح إسحاق. جلس على السرير، محتاراً عما إذا كان سيقتلها أم لا.

وفي أثناء ذلك، أصبح مورغان على علم بكل ما كان يحصل في الغرفة لأنه بعد أن انتظر ظهور إسحاق وماري لأكثر من عشرين دقيقة، استفسر عن حجرة إسحاق وعندما وصل إليها، سمع الخلاف من الخارج. وعندما بدأت ماري تبكي، عرف بأن المعتدي كان يحمل مسدساً أو سلاحاً خطيراً آخر مما جعل الوضع خطيراً للغاية ومن الصعب عليه أن يقتحم الغرفة على الفور.

مرَّ بجانبه عندئذ عامل النظافة في المستشفى من جنوب أميركا وناداه ثم أخبره كل شيء بسرعة وشرح له الخطة التي ستنقذ حياة ماري وإسحاق. فهم الرجل ما كان عليه فعله وتحرك فوراً. وفي أقل من دقيقتين، كان ينظف شباك حجرة إسحاق من الخارج مسبباً ضجيجاً جذب انتباه شوك الذي خاف وقال:

«مَن هناك؟».

«أنا موظف التنظيفات وأقوم بعملي».

ارتاح شوك عندما أحس بأنه لم تكن هناك مشكلة، لم يسمع مورغان عندما فتح الباب وأخذ يتسلل ناحيته. نهض عن السرير عندما أخذ قراره الأخير عما ينبغي أن يفعله وقال:

«سوف أنفذ خطتي الأولى وأقتلكما الاثنين. تعدّ ماري امرأة خائنة ولذلك لن تكون حزينة بعد موتك كما قلت، فستجد رجلاً آخر تتسلّى به ثم تنساك كما نسيتني».

ولكن قبل أن يطلق الرصاص عليهما، ضرب مورغان يده مما أدى إلى سقوط المسدس على

الأرض ثم دارت معركة عنيفة بينهما. رفع إسحاق المسدس وأمسك بيد ماري ثم خرجا راكضين من الحجرة.

شاهدا رجال الأمن عند مخرج الغرفة وقدّم إسحاق إليهم المسدس ثم ظل يراقبهم حتى سيطروا على شوك بعد أقل من ثلاث دقائق. ظهر شرطي آخر بعد ذلك وألقى القبض عليه.

لم يرفع شوك رأسه لدى خروجه من المستشفى ولكن عندما مرّ قريباً من ماري، قال:

«دمرتي حياتي أيتها الأفعى الوضيعة».

تم إصدار الحكم على شوك بالسجن لعشر سنوات لمحاولة القتل في قضية سريعة للغاية بسبب اعترافه بالذنب منذ البداية. ولكن كان هناك احتمال لتخفيف هذا الحكم بشكل كبير إذا تصرّف بشكل جيد في السجن لأنه لم يسبق له أن دخل السجن. بدا نادماً طوال جلسات المحكمة وتجنّب النظر إلى العدسات كي لا يشاهده معارفه.

حمّلت ماري نفسها مسؤولية تحوّله من ملاك إلى طاغية مما جعلها تحسّ بالذنب في أول أيام القضية ولكن أثناءها، تعلّمت أشياء جديدة عن شوك لم تكن تعرفها على الإطلاق مما أثبتت لها بأنها كانت تجهل شخصيته الحقيقية من قبل. اكتشفت مثلاً بأنه سبق أن طعن حبيبته في المدرسة الثانوية في دينفر كولورادو حيث اعتدى عليها بالطعن بزجاجة مكسورة لأنه شكّ فيها وكان عمره عندئذ خمس عشر سنة فقط.

وبعد طرده من المدرسة وخضوعه للكثير من الجلسات الاستشارية مع دكتور نفسي مشهور، خيّب شوك ظن والديه عندما تابع تصرفاته العنيفة بحيث كان دائماً يتورط في صراعات مع أولاد الجيران. ولذلك تنهدا عندما حصل والده على وظيفة أفضل في الساحل الشرقي حيث تم تعيينه كمحامي في شركة كبيرة.

تحسّن سلوك شوك بعد انتقالهم وتحوّل لملاك عندما وقع في غرام ماري لأنه كان يريدها أن تقع في حبه أيضاً، ولكن كل ذلك تغيّر عندما اتضح له بأنه كان على وشك فقدانها مما تسبب في ظهور طبيعته القديمة. لم تتوقف ماري عن تقديم الشكر والحمد لربها الذي منعها من الزواج برجل غير متزن مثله.

أما بالنسبة إلى خطتها وإسحاق للزواج فقد أجّلاها بعدما أقنعتهما السيدة كيسنجر بأن ذلك لمصلحتهما. ذهبت ماري برفقة إسحاق إلى مكتبها لشرب الشاي. ولدى وصولهما إليها، أخذا يتكلمان عن رغبتهما في إقامة حفلة زواج كبيرة في لبنان، ولكن السيدة كيسنجر أرجعتهما إلى الواقع عندما قالت:

«اسمعا، لديكما الحب والعشق وهذا شيء جميل ولكن الزواج للأسف يحتاج إلى أكثر من ذلك كي ينجح، فإنه يتطلب دخلاً جيداً والكثير من التخطيط والصبر والمثابرة والشفافية والمصداقية. والآن قد حان الوقت كي أطرح عليكما بعض الأسئلة الصعبة التي ستعلمني مدى استعدادكما للزواج، هل أنتما جاهزان؟ أومآ برأسيهما ثم نظرت السيدة إلى إسحاق مستفسرة:

«كيف ستطعم زوجتك؟».

«لا أعرف».

«أي بلاد ستعيشان فيها؟».

«لا أعرف».

«ماذا سيكون دين أطفالكما؟».

«لا أعرف».

سكت إسحاق بعد هذا الكم من الأسئلة بينما ابتسمت السيدة كيسنجر ابتسامة خفيفة ونظرت إلى ماري قبل أن تقول:

«عملك في الأيام أو الأسابيع أو الأشهر المقبلة هو أن تساعديه في العثور على إجابات لهذه

الأسئلة والتي لا يعرف إجاباتها حتى الآن، وبعد ذلك يمكنكما أن تتكلما عن الزواج». ثم استدارت لتنظر إلى إسحاق وقالت:

«يؤسفني أن أضعك في هذا الموقف المحرج ولكن صدّقني، يستحسن أن تطرح هي عليك هذه الأسئلة الآن بدلاً من لاحقاً».

قدّرا نصيحتها وأمضيا الأسابيع المقبلة يبحثان عن الإجابات لتلك الأسئلة مما أدى إلى نشوب أول خلاف لهما. خلافهما الأول كان متعلّقا برجوعهما إلى لبنان. أراد إسحاق أن يعيشا هناك بينما أبت ماري تلك الفكرة مدّعية بأنه كان من غير المعقول لهما أن يتوقعا معيشة جيدة في بلاد خرجت للتو من حرب أهلية طويلة، ولكن إسحاق لم يوافقها الرأي مدّعيا بأن الله هو الرزاق ولا يتوقف الرزق عند بلد معيّن، لم يعجب ماري تفكيره على الإطلاق.

ولكن عندما مرت الأيام وتأكدت بأنه لن يتراجع عن موقفه، استسلمت لرغبته ووافقت أن تعود إلى لبنان لتعيش هناك ولكنها أخذت منه وعداً بأنهما سيرجعان إلى الولايات المتحدة في حال لن تسير الأمور في لبنان على ما يرام في غضون سنتين.

أما بالنسبة إلى العمل، قرّر إسحاق أن يبحث عن وظيفة كمترجم إنكليزي في السفارة الأميركية أو البريطانية لدى رجوعهما إلى لبنان لأنهما سمعا بأنه سيتم فتح السفارتين قريباً، ولكنهما اختلفا مجدداً في موضوع السكن. صرخت ماري عليه يوماً بخصوص هذا الأمر قائلة:

«أنا وافقت أن أرجع إلى لبنان، لماذا لا تستطيع أن تقدّم تنازلات أيضاً وتوافق أن تعيش معي في شقة والدي؟». نظر إليها إسحاق باستياء:

«كيف أستطيع أن أواجه الناس وأنا أقيم في شقة والدك؟ هل نسيتِ بأننا من مجتمع عربي وهناك أصول معينة تحدّد أفعالنا؟ لو كان على قيد الحياة، لسمح لي المجتمع بفعل ذلك ولكن في الظروف الحالية، سوف يقولون الناس بأنني انتهازي».

لم تجبه على الإطلاق، بل قطّبت وجهها وسكتت لمدة طويلة. لم يعجبه صمتها وأصبح قلقاً. وبعد ساعة تقريباً، اقترب منها وقال:

«أعتذر منك. لا ينبغي أن أبالي بكلام الناس لأن كلامك هو المهم. من اليوم لن أكرّر مثل هذا الخطأ». تنهد ثم أضاف:

«أوافق أن أعيش معك في شقة والدك».

رمت نفسها في أحضانه من السعادة ثم ذهبا إلى دار السينما لمشاهدة فيلم رومانسي ولم يناقشا أي أمر آخر حتى بعد يومين لتفادي أي خلاف جديد.

والموضوع التالي كان يتعلّق بالدين، ماذا سيكون دين الأطفال؟ كان ذلك أصعب سؤال، ولذلك لطالما ابتعدا عن مواجهته متعمّدين، خائفين لأنه كان قادراً على إفساد كل شيء بينهما. ولكنهما ببساطة وبعد نقاشات مستميتة لإقناع كل منهما الطرف الآخر، اتفقا أن لا يتدخلا في اختيار دين أطفالهما، وهذا بالرغم من وجود رغبة قوية في داخلهما أن يختار الأطفال الدين الذي يعتنقه كل منهما.

وبعد أن تجاوزا كل هذه المراحل بنجاح، كانا جاهزين أخيراً للدخول في المرحلة الحاسمة. اتصل إسحاق بوالده وطلب منه أن يزور عم ماري الكبير في صور، رجل يدعى بطرس إلياس ليطلب يدها منه. استقبل والده الخبر بحماس وذهول. لم يظن بأن إسحاق سينال موافقة ماري للزواج ووعده أن يتوجه إلى صور في صباح اليوم التالي.

اتصل إسحاق بعد ذلك بالدكتور طارق الذي دهش جداً بالخبر واعتذر لأنه لم يكن يثق بما كان سيفعله عندما قرّر البحث عن ماري ثم طلب من إسحاق أن يسمح له بمرافقة والده إلى صور، قبِل إسحاق الطلب ثم اتصل بوالده مجدداً ليخبره بأن الدكتور طارق سيرافقه إلى صور.

كان ينتظر اتصالاً من والده متلهفاً في اليوم التالي لمعرفة نتائج الزيارة ولم يتصل حتى الساعة الثامنة ليلاً عندما رجع إلى بيروت. أبلغه بأن أهل ماري وافقوا بعد أن عارضوا في البداية بسبب اختلاف الأديان.

«ولولا إصرار ماري على موقفها عندما اتصلوا بها، لمنعوا زواجك منها يا ابني».

ونظراً إلى هذه المعارضة غير المتوقعة، قرّرت ماري أن لا تجازف بأمر زواجها وأصبحت مصممة على الزواج في الولايات المتحدة بدلاً من لبنان، وكان لدى إسحاق الرأي نفسه، هكذا حددا يوم 27 مارس 1990، يوم زواجهما.

منذ اليوم الذي تم تحديد تاريخ العرس فيه، فرَّ النوم من عيونهما. احتراماً لدينيهما، اتفقا على زواج في المحكمة وتجنّبا أي مناسبة في المسجد أو الكنيسة ولكنهما أعطيا كلاً منهما الحق في تنظيم مناسبة في مسجد أو كنيسة في لبنان وذلك ما حدث فعلاً.

ولما وصلا إلى المحكمة في رفقة عم إسحاق والكثير من الموظفين في منظمة Kids Back On Track كان عليهم أن ينتظروا انتظاراً طويلاً لأنه كان هناك الكثير من المقبلين على الزواج مثلهما. ألقى إسحاق نظرة مستهزئة إلى ماري عندئذ وقال:

«لولا تضييعك الكثير من الوقت على مساحيق التجميل، لجئنا قبل الساعة السادسة صباحاً». ضحكت وقالت:

«الساعة السادسة صباحاً؟ ربما تظن بأننا نهرب».

ضحك الجميع على ما قالته واستمرت النكات لساعات. انتهيا من كل الإجراءات في المحكمة عند الساعة الواحدة بعد الظهر ثم غادروا جميعاً إلى حفلة غداء نظمها السيد والسيدة كيسنجر. كانت المناسبة لزواجهما وفي الوقت نفسه، أقيمت حفلة لوداع ماري. كانت لطيفة واستغرقت أربع ساعات.

وصل إسحاق وماري عند الساعة السابعة إلى فندق الشيراتون حيث سيمضيان بقية أيامهما في نيويورك قبل رجوعهما إلى لبنان، وكان ذلك هدية أخرى من السيد والسيدة كيسنجر. كانا متوترين للغاية لأنهما قد انتظرا تلك الليلة منذ مدة وقد حان الوقت لمعرفة مدى قرب توقعاتهما إلى الواقع.

شغّلت ماري التلفاز لتبحث عن فيلم رومانسي فهي تسعى إلى خفض درجة التوتر. رأت الفيلم المشهور Gone with the wind بالصدفة وطلبت من إسحاق أن يشاهده معها. أعجبهما الفيلم وكان له أثر عجيب على إسحاق لأنه أصبح شجاعاً جداً بعد مشاهدته وأخذ يمسك يدي زوجته ويقبّلها بالكثير من الثقة بالنفس كأنه اكتشف للتو بأنهما متزوجان ثم رفعها وقادها إلى غرفة النوم وقد أحسا في تلك الليلة بأن حجرتهما لا بد وأن تكون جزءاً من الجنة بسبب سعادتهما العارمة بزواجهما واجتماعهما أخيراً.

مرّت الأيام وتطوّرت الأمور كما أرادا، رجعا إلى لبنان ونالا استقبالاً عظيماً من قبل عائلتيهما. ولكن بعد أن استقرا وبدأ إسحاق بالبحث عن عمل، لم يحصل على وظيفة كمترجم في السفارة الأميركية أو البريطانية لأنه لم تكن لديه شهادة جامعية. واضطر إلى فتح مطعم بمساعدة أبيه ونجح في ذلك بينما كان يدرس في الجامعة في الوقت نفسه.

أما بالنسبة إلى ماري، اتخذت قراراً أن لا تعمل لدى أحد وأسست منظمتها الخاصة التي

تتخصص في مساعدة الأطفال اللبنانيين الذين فقدوا والديهم أثناء الحرب الأهلية. كان هدفها هو الحصول على التمويل لملجأ للأيتام والتأكد بأن هؤلاء الأيتام ينالون أفضل معاملة هناك، فهي لم تنسَ بعد القصة الحزينة التي سردها السيد وتسون عن تجربته السلبية في الملجأ. كان من السهل عليها أن تحصل على التبرعات بسبب تجربتها الطويلة كمستشارة في ميدان مماثل في الولايات المتحدة. وبالإضافة إلى ذلك، كانت الأمم المتحدة تنشر الوعي عن الظاهرة التي ركّزت عليها منظمتها مما جعله من السهل أيضاً أن تحظى بالعون لتلك المبادرة الشريفة. حققت نجاحاً باهراً بسرعة قياسية لم تحلم به طول عمرها، وأصبحت مشهورة جداً ولم تندم يوماً على رجوعها إلى لبنان.

ولكن بالرغم من هذا النجاح في مهنتها مقترناً بحياتها الزوجية السعيدة، لا زالت أشباح ضميرها تعود إليها من حين إلى آخر. والسبب يرجع إلى تكرار الإجهاض لديها بسبب ورم غير خبيث في جدار رحمها. كانت مقتنعة بأن ربها كان يعذبها بسبب ماضيها ولذلك رفضت إجراء عملية بالرغم من الجهود التي بذلها إسحاق ليقنعها بضرورتها.

ولكنه يوماً ما استطاع أن يقنعها بمساعدة نبيهة وخضعت أخيراً للعملية. لم يمر أكثر من شهرين قبل أن تصبح حاملاً مجدداً، ومرت أشهر دون حصول أي إجهاض. ولكنها أصبحت مريضة جداً في منتصف الليل في شهرها السابع واضطر إسحاق إلى أخذها إلى المستشفى حيث أبلغه الدكتور بضرورة قيامه بعملية من أجل إنقاذ الجنين. وافق إسحاق واستطاع أن يقنع زوجته أن توافق أيضاً. كانت العملية ناجحة وأنجبت توأمين: صبي وبنت.

ولد أنطوان وسارة كشوغي في السادس من مايو عام 1991، يوماً قبل عيد ميلاد والدتهما. وفرحت ماري جداً لدى إنجابهما لدرجة لم تتمكن فقط من تحرير نفسها من عذاب ضميرها بعد ذلك، بل نسيت أيضاً بأنها كانت سجينته في يوم من الأيام.

انتهى